ملف خاص

ندوة التعريب

عقدت في طرابلس بليبيا بين ٢٥ كانون الثاني و٢ من هذا الشهر ندوة تناولت بالدرس قضية التعريب . وقد اسهم فيها عدد كبير من علماء اللغة في مختلف الاقطار العربية ، كما حضرها ممثلون عن معظم المجلات الفكرية في العالم العربي . وقد جمعت هذه الندوة الروح العلمية الجدية في البحث والتدقيق الى الصدق والايمان بالهدف الذي ترمي اليه . واجمع الباحثون على ضرورة التعريب اولا وعلى قدرة اللغة العربية على استيعاب التطور الحضاري العالمي ثانيا . وقد برزت مشكلة التعريب بنوع خاص في المغرب العربي الذي نالت دونه حديثا استقلالها الذاتي، وكان من الطبيعي ان تسترد لغتها القومية بعد ان عمل الاستعمار بشتى الوسائل للقضاء عليها . فالعربية الفصحى هي اللغة القومية ــ وما ينبغي ان تكونه ــ لغة الحياة والفكر والجامعة والادارة لمختلف الشعوب العربية . فاذا كان المغرب ، وخاصة في الجزائر « ورشة عمل » في عملية التعريب ، واذا كانت ليبيا تولي التعريب كل اهتمام وعناية ، فقد مرت بالمرحلة نفسها دول المشرق العربي منذ عشرات السنين ابان استقلالها في مصر وسوريا والعراق . وقد اسهمت مجامعها اللغوية وجامعاتها ومؤسساتها الوطنية في اغناء اللغة العربية وتأكيد صلاحيتها وقدرتها على الحياة ، قدرة هذه الامة على البقاء . وكان خط عام يوجه هذه الندوة ، وهدف واحد يقود الباحثين على تشعب دراساتهم وامتدادها عبر الماضي مرورا بالازمات المعاصرة ، هو خدمة اللغة العربية ، باعتبارها القاسم المشترك للشعوب العربية ، ورمز وحدتهم . فهي تضم تراثهم الحضاري الضخم وتحافظ عليه ، وتعبر عن امانيهم في الحضارة وتطلعاتهم نحو المستقبل .

وبالرغم من الصعوبات التي ذكرها الباحثون والتي تتلخص في ايجاد مصطلحات دقيقة في مجالات العلوم المتقدمة ، فان الاصرار على متابعة البحث في دروب التعريب كان امرا لا خلاف عليه .

وقد عمدنا في هذا العدد الى نشر معظم ابحاث هذه الندوة بصورة كاملة تعميما لاهميتها على المستوى العلمي والقومي الوحدوي وليشارك جمهور الادباء والمفكرين والقراء في كل انحاء الوطن العربي في هموم عملية التعريب . واما الابحاث التي تعذر نشرها كاملة ، فقد عمدت الى تلخيصها (وقد مثلت « الاداب » في الندوة) .

وعلى جانب هذه الندوة عقدت اجتماعات متعددة بين المسؤولين عن الاعلام في المجلات المدعوة . فتدارست ، بوحي من هذه الندوة ، الوسائل التي تعزز اللغة العربية كتابة واسلوبا . كما نوقشت قضية الاخطاء اللغوية التي يكثر انتشارها والتي تهدد اللغة كبناء لغوي ينبغي ان يظل سليما ، وتطرق البحث الى محاربة اللهجات العامية والتصدي لها ورفض النشر بها، لان المقصود بها ، في الصميم ، تقويض العربية كلغة حضارية رفيعة وكوسيلة موحدة للعرب على امتداد ارضهم وفي مختلف عصورهم . كذلك ، درست عدة قضايا ، ينبغي للمسؤولين الصحفيين التنبه لها : التشكيك بالتراث العربي وبقدرة العربية على مجاراة الركب الحضاري ، والكتابة باسلوب مشوش غامض الغاية منه القضاء على الاسلوب العربي الناصع . . الخ . واخيرا درست قضية التبادل الفكري على مستوى الوطن كله . وقد لاحظنا ان كل قطر عربي ، سواء كانت مجلته تابعة لوزارة من وزارات الثقافة والاعلام ام خاصة، تشكو من اقفال الإبواب العربية الاخرى في وجهها ، بالرغم من وجود قاسم مشترك (قومي ، وحدوي ، تقدمي) بينه وبين البلد الرقيب . واتفق الجميع على خطر هذه الظاهرة على المستوى القومي والعلمي والفني ، وعلى ضرورة التفاعل الفكري بين ابناء الامة الواحدة ، باعتبار ان الوحدة على صعيد الفكر ، هي المقدمة الحقيقية للوحدة السياسية التي ينشدها الشعب العربي .

عايدة مطرجي ادريس

لماذا التعريب ؟

عبد العزيز بن عبدالله

حضرات السادة :

احييكم باسم مكتب تنسيق التعريب ، المكتب الذي شغل نفسه والعالم العربي طوال عشر سنوات في اعداد معاجم علميه بلغات ثلاث هي الفرنسية والانكليزية والعربية ، ليقدم الى الجيل الناشيء ما يعينه على متابعة العلوم باللغة العربية ثم الرجوع الى اللغات الاخرى ان شاء لملاحقة التطور العلمي بلغته الاصيلة .

وقد يتساءل المتشككون عن الدواعي لهذا العمل المضني فيقولون: لماذا التعريب ؟ لماذا لا ناخذ العلم من منبعه بلغته الاولى التي وضع فيها ؟ لماذا نتعب انفسنا بنقله الى اللغة العربية ثم نعود فنحمل الطالب على العودة الى تلك اللغة التي نقل عنها ليتابع درسه وبحثه ؟

لقد وجدت ان التساؤل الاول (لماذا التعريب ؟) مندمج تمام الاندماج في التساؤل الاخر (اللغة العربية والتعريب) ولذلك آثرت عرضهما معا في اطار واحد . ولنعد الى التساؤل الاول لنجد جوابه لدى المربين الذين يضطلعون بتثقيف الجيل الجديد ، ولنصعد معهم الدرجة الاولى فهم اجدر من يلجأ اليه في هذا الموضوع التعليمي - التربوي في آن واحد . انهم يؤكدون ان التعليم بلغة اجنبية مهما كان مسهلا ومبسطا لا بد ان ياخذ من التلميذ جهدين معا ، الجهد الاول في محاولة تفهم معاني الالفاظ والمصطلحات الجديدة والتي قد تتداخل احيانا فتتعقد عليه مفاهيمها ويضيع بذلك وقتا مهما كان قصيرا فهو وقت مقتول على اي حال . اما الجهد الثاني الذي سيبذله التلميذ فهو في حفظ هذه المفاهيم واستذكارها لتوسيع آفاق ثقافته فيها .. بينما لو كانت هذه الدروس تلقى عليه بلغته التي يتحدث بها ويفهمها لاقتصد احد الجهدين وصب كل قوته على الاحاطة بالموضوع ، فرسخ في ذهنه وتملك من قلبه فلن ينساه من بعد حتى ولو اهمله الى زمن طويل .

وجواب المربين الاختصاصيين هذا فيه شيء كثير جدا من الصحة ولا يقدح فيه قول المنكرين القائلين بانه انما يتعلم باللغة الفصحى، وهذه اللغة نفسها بعيدة عنه بعد اللغة الاجنبية ، فهو في كلتا الحالين مضطر الى بذل جهدين لا جهد واحد ، والواقع ان هذا التشكك من عمل اعداء العروبة الذين يريدون اماتة لغة القرآن الكريم واحياء اللغات العامية للتفريق ما بين البلاد العربية وجعلها على غرار اللغات اللاتينية كالفرنسية والطليانية والاسبانية والبرتغالية .

وهل يرتاح المستعمرون من العرب الا اذا فرقوهم هذا التفريق؟

اني لا ادعي هذه الدعوة ايها السادة بسبب عاطفي ، ولو ان عاطفة العروبة والاسلام تسيل مع دمائنا وتنساب في عروقنا وتغذي مطامحنا وامالنا باستمرار . كلا فاذا كان للعاطفة من نصيب في هذه الدعوى فان فيها كثيرا من التعقل والهدوء . فلقد اثبت لنا التاريخ القريب والبعيد ان عمل المستعمرين والمبشرين وخريبهم لايتناول الارض والبناء والمزارع والمعامل والمدن ،بل يتغلغل الى ابعد من ذلك بكثير ، انه يحاول التسلل الى ما وراء المادة ويصيب العقيدة في اعماقها ، ولقد ادرك هؤلاء ان العرب ما داموا متمسكين بقرآنهم متعلقين بلغة دينهم فانه لا سبيل الى السيطرة عليهم وامانتهم . ولذلك فانهم لا يكفون عن مهاجمة هذه اللغة هجوما مركزا مدروسا ، فتارة يدعون ان قواعدها صعبة لا يمكن حفظها مع ان قواعد اي لغة ليس اسهل منها بكثير بل ان قواعد اللغة الالمانية والروسية من الصعوبة بحيث لا يمكن ادراكها الا بجهد طويل وزمن اطول ولا اتحدث عن قواعد الصينية واليابانية وما شابهها لئلا يقال : هذا تعجيز .

وتارة ينشرون اقوال بعض المغرضين على اوسع نطاق كقول احد المستشرقين بعد ان تعلم اللغة العربية : لو طلب الي ان اقطع القارة الافريقية بطولها من الجنوب الى الشمال مشيا على قدمي لمشيتها وما أقدمت على تعلم اللغة العربية ثانية فانها اصعب من ذلك بكثير . هل ترون أيها السادة في هذا القول شيئا من منطق؟ الا ترونه حاملا مذموما ؟ الا تلاحظون ان الذي ينشر مثل هذا القول لا يمكن الا ان يكون حاقدا كريها ؟

وتارة يشجعون على نشر العامية بتأليف الكتب فيها كما يحدث في بعض البلاد العربية ، وتارة يهاجمون الحرف العربي ويدعون الى الكتابة بالحروف اللاتينية . ماذا اعدد ؟ ان مثل هذه الدسائس لا حصر لها . (ولقد ثبت ان التلميذ العربي الصغير يستطيع ان يفهم لغة القرآن الكريم ويتعلم بها بسهولة كبيرة لا يمكن ان تبلغها اللغة الاجنبية . فدعوى المدعين بأن التعليم باللغة الفصحى لا يقل عن التعليم بلغة اجنبية باطل من اساسه ولا أظنني بحاجة الى البرهان عليه باكثر مما قدمت .

هذا رأي المربين المنصفين . اما ما يتعلق بالناحية القومية فانه لا مجال للشك مطلقا في قيمة التعليم باللغة الوطنية العربية لغة القرآن والدين ، لغة التاريخ العربي كله . اللغة التي احتوت امجادنا والامنا . اللغة التي رافقتنا مع الزمن في احلك لياليه واكثر ايامه اشراقا ووضوحا ، اللغة التي ارتبطت بمطامحنا وامجادنا وامالنا ..

نعم هذه اللغة الحبيبة التي عايشناها وعايشتنا وطالت صحبتنا اياها قرونا طويلة جدا لا نعرف لها اولا ولا ندرك لها نهاية ، كيف يريدون لنا أن نتركها ونستبدل غيرها بها ؟ أيظنونها من بعض الملابس تلقى اذا رثت وتهمل اذا قدمت ؟

واذا كانت الامم الجديدة قد سبقتنا في مضمار الحضارة المعاصرة فهل يعني هذا ان نستسلم وننام ، الم يكن للغتنا هذه امجادها العلمية في القرون الوسطى ؟ فلماذا لا يكون لها مثل هذه المشاركة في الحضارة الحديثة ؟ ولقد اثبتت لنا التجاريب امكان ذلك حين سبقت بعض البلاد فعربت ونجحت نجاحا منقطع النظير ، واصبح لنا مؤلفات علمية ذات قيمة محترمه جدا وما زلنا في اول الطريق ، فكيف لو سرنا الى المدى الفسيح قدما متعاونين ؟

ونحن في مكتب تنسيق التعريب نواصل الجهد لتغذية المسيرة العلمية بمعاجم تساعد الطلاب والمدرسين واستطعنا خلال السنوات العشر التي مضت ان ننجز معاجم على مستوى المدارس الثانوية هي : الكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والرياضيات والجيولوجيا واجتمع العلماء العرب في العام الماضي بالجزائر وتدارسوها واقروها بعد ان اجروا فيها بعض الاصلاح وهي الآن تحت الطبع وستوزع على العالم العربي كله خلال بضعة شهور .

ووضعنا معاجم اخرى سنعرضها في مؤتمر قادم ان شاء الله هي: معجم البترول ، معجم الفقه والقانون ، معجم الدم والعظام ، معجم الاقتصاد ، معجم الادارة ، الى جانب معاجم معاني كثيرة صغيرة الحجم ولكنها كبيرة الفائدة اناف عددها على العشرين وما زلنا في الطريق نعمل ونكد ونجهد مستعينين بالله تعالى متكلين عليه مندفعين بتشجيع اخواننا العرب ولا نلقي القلم حتى يأذن الله .

وكلنا ايمان بأن هذه الامة النبيلة الاصل والفرع ، العظيمة في تاريخها الحضاري ودينها القويم ، الطامحة الى مستقبل مشرق ، ستصل باذنه تعالى الى مرامها ، وستشارك في المسيرة الحضارية بلغة القرآن كما شاركت فيها أبان القرون الوسطى ، واذا كان فجر العرب قد انبثق فقد اضاءت له شمس الحرية الان طريقه ولن يرجع القهقرى ما دام فيه من المخلصين امثالكم .

عبدالعزيز بن عبدالله

مدير مكتب تنسيق التعريب بالرباط

د . صبحي الصالح

العربية والتعريب

تمهيـــد

في شوال ١٣٨٨ هـ وزع المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي استفتاء حول مدى الارتباط بين انتشار الاسلام وازدهار لغة العرب . وانتهت جمهرة الاجوبة الى ان الاسلام مهد لعالمية اللغة العربية اداة علم وحضارة (١) ، فانتشرت هـذه اللغـة بفضل المد الحضاري الاسلامي (٢) ، واتسعت شبكتها باتساع نفوذ القرآن (٣) ، الى الحد الذي يسعنا معه ان نقول : لولا الاسلام لكانت العربية مجرد لهجة (٤)، فما حماها ولا صانها وخلدها الا القرآن (٥) .

ذلك اذا شأن العربية في ماضيها ، تحولت بفضل الاسلام لغـة عالمية ، لغة علم وفن وفلسفة وحضارة مثلما كانت بنزول القرآن بهـا لغة شرع ودين . ولكن ، هل هذا شأنها الان في العصر الحديث ؟

ما من ريب في ان الوازع الديني قد ضعف وتضاءل ، بسبـب النزعات القومية التي باتت تسود اكثر مناطق العالم ، ومن بينها بصورة حتمية البلاد العربية التي كاد معظمها يرتبط بالقومية اوثق من ارتباطه بالدين : فالبيئات العربية الخالصة في سورية ولبنان ـ برغم تباعدها عن الوعي الاسلامي الصحيح ـ ما تنفك تعنى بالعربية الفصحى افضل العناية ، لانها في نظر انصارها جزء ضخم من التراث القومي الذي لا يجوز التفريط بشيء منه (٦) .

ولئن سلم هذا الرأي من بعض الوجوه فمن العسير ان يسلم مـن جميع الزوايا على وجه الاطلاق . والاحكم والاقرب الى المنطق عندنـا هو نفي التعارض بين انتشار العربية قوميا ودينيا في آن واحد ، فلا مسوغ للتقليل من اهميـة الوازع الديني ، مهما يكن قد طرأ عليه من ضعف ووهن لمجرد التباهي بالتـــراث القومـي واعتبـــاره العامـــل الوحيد في كـــل ما بدأت تصيبـــه العربيـــة مـن ازدهار مـع حركـــة النهضـــة منذ اوائـل القـرن التاسـع عشر : تـــدل علـى ذلك الوقائع التاريخية والحقائق السياسية التي ما نزال نعيشها في العالم العربي كله بوجه خاص ، وفي العالم الاسلامي برمته بوجه عام. اما الماضي فيؤكد ان لغـة القرآن محت القبطيـة في مصر ، والبونيقية في الشمال الافريقي ، والنبطية في العراق ، واللاتينية في الشام » (٧) ، وان اهم الدول العربية انما تعربت بفضل القرآن (٨) ، وامـا حاضرنا فيؤكد انه لولا تأثير الدين الاسلامي في الفارسية والتركيـة والاردوية مثلا لما ظلت العربية محتفظة بمكان الصدارة حتى في مواجهة اللغات المستعربة الدائرة في فلكها (٩) . بيد ان الخطر الحقيقي فـي افراد الاتجاه القومي في كل نهضة لغوية عربية انما يتمثل في انتفـاء الحاجة الى التعريب والاكتفاء بعمليـة الترجمة ، ما دامت غايتنـا الوحيدة تنحصر في نقل المصطلحات العلمية والفنية واثراء لغتنا بمـا ينقصنا من وسائل التعبير . ولا يكون مثلنا في حال كهذه الا كمثـل الفرنسيين الذين يفرقون بين الترجمة والفرنسة ، أو كمثل الطليـان الذين يميزون بين الترجمة والطلينة ، وهكذا ... الا ان هؤلاء الاقوام ـ تبعا لطبيعة لغتهم ـ قد تكفيهم الترجمة ولا يحتاجون مثلنا نحن العرب الى دقة التفرقة بين عملية الترجمة للمعاني والافكار والعلوم وعمليـة النقل الى أوزان لغتهم وصيغها ، لان النسيج اللغوي ـ كما سنوضح ـ مختلف كل الاختلاف بين طرائق التعبير هنا وهناك.

ومهما يكن من شيء ، فان العقلاء من القوميين العرب ـ مهمـا يبالغوا في اعتبار القومية هدفا نهائيا ـ لن يرتكبوا هذا الخطأ ، ولن يحولوا الى الوعي القومي وحده كل سياسة التعريب ، وهم جميعـا يقرون بان اكبر تراث للعرب هو الاسلام . وواضح من وراء هذا كله انه لا بد لنا ـ كي نبلغ بالتعريب وجهه الاكمل ـ من أن نأخذ بعين الاعتبار كلا من الوعي الاسلامي والنزعة القومية ، ولا سيما لدى تقصينا لطبيعة العربية في نقل العلوم واشتقاق المصطلحات لكل ما نحن بحاجة اليه. وذلك يعني ان علينا ان نربط بين ماضينا وحاضرنا ، فنفرق اليوم كما فرقوا بالامس بين عمليتي الترجمة والتعريب ، وان نكثر من نقل العلوم بكل وسيلة نملكها كما فعل علماؤنا القدامى عندما قامت حركة النقـل لديهم على قدم وساق في كل الميادين ، ولا سيما في عصر المأمون الذي

---

(١) مجلة اللسان العربي ، العدد السادس ، شوال ١٣٨٨ هـ (انظر رأي الاستاذ روكس بن زائد العزيزي ص ١١٨) .

(٢) اللسان العربي ٢٣٧ (رأي الاستاذ عبد العزيز حسين) .

(٣) الاستاذ نديم الملاح ١٤٢ .

(٤) الاستاذ محمد الحاج صدوق ٢٨٤ .

(٥) الدكتور احمد شوكت الشطي ١٨٠ .

(٦) انظر في هذا رأي الدكتور عبد العزيز مطر في اللسان العربي ص ٢٢٣ وكذلك رأي الدكتور عمر الدقاق في اللسان أيضا ص ١٩٠ .

(٧) هذا رأي الاستاذ محمد عبدالسلام هارون في اللسان العربي ص ٢١٩ .

(٨) انظر رأي الاستاذ مفتي محمد شفيع مدير دار العلوم بكراتشي ـ اللسان العربي ص ١٤٣ .

(٩) اوضح هذا الرأي الدكتور محمد يوسف من جامعة الباكستان، نفسه ١٤٥ وأتى في هذا الصدد بادلة وحجج يصعب نقضها .

بلغت فيه تلك الحركة اوجها ابتغاء الدقة في نقل مصطلحات الطب والطبيعة والفلك والكيمياء والفلسفة والرياضيات ، واهم الفاظ الحضارة والعلوم والفنون (١٠) .

ولقد استقصى الامير العلامة مصطفى الشهابي تلك المصطلحات التي نقلت الى العربية بطريق الترجمة تارة وبوسيلة التعريب تارة اخرى ، في كتابه القيم : « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » . وبرغم ما توالى على الحياة البشرية من مصطلحات انشاها التسارع « التكنولوجي » والحضاري منذ مطلع السبعينات في القرن العشرين ، ما تزال القواعد العامة التي اتبعها النقلة في وضع المصطلحات ، والتي لخصها الامير الشهابي ادق التلخيص ، هي الوسائل التي لا بد لنا من استخدامها في عمليات الترجمة والتعريب في عصرنا الحديث .

ونحن مع الامير الشهابي في ان تلك القواعد لا تخرج عن هذه الوسائل الاربع .

ا) تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية ، وتضمينها المعنى العلمي الجديد .

ب) اشتقاق كلمات جديدة من اصول عربية او معربة للدلالة على المعنى الجديد .

ج) ترجمة كلمات اعجمية بمعانيها .

د) تعريب كلمات اعجمية بمعانيها . (١١)

ومن خلال هذه القواعد نستخلص عدة حقائق لغوية ، تتصل بطبيعة العربية في كل عملية من عمليات النقل التي نريد ان نشربها بها .

اولا : ان الترجمة ليست في العربية اكثر من ايراد المعاني التي تتضمنها الكلمات الاعجمية المنقولة . وتكون الترجمة ، بهذا الاعتبار ، صفة لغوية مشتركة بين العربية وسائر اللغات الانسانية ، اذ لم تكن العربية بدعا من لغات الانسان ، فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير ، وهي جميعا تقرض غيرها وتقترض منه ، متى تجاورت او اتصل بعضها ببعض على اي وجه ، وباي سبب ، ولاية غاية . ومن يرم العربية مقصورة على الاعراب ، محبوسة عن الترجمة ، ويزعم انها بصيغها وانواع اشتقاقها وحدها اعربت عن خصائصها الذاتية ، وانها ان ادخلت على نفسها بالترجمة مصطلحات الحضارة شوهت محاسنها وفقدت خصائصها وانكرت نفسها بنفسها ، فليس يريد لهذه العربية الا الموت وليس يعيش بعربيته الا في روح من العاج بناها له خيال سقيم !(١٢)

ثانيا : ان التعريب – مع انه غير الترجمة – ربما يشبهها في بعض الحالات التي تنقل فيها الكلمات الاعجمية بمعانيها . الا ان العملية تختلف اختلافا بينا هنا وهناك : فانزال الالفاظ المنقولة على احكام العربية ، وسبكها في قالب من قوالبها ، واشتقاق صيغ جديدة او بسط الدلالة في بعض معاني الصيغ لتحويرها وتضمينها المداول الجديد المقترح ، كلها عمليات لغوية ادخل في التعريب منها في الترجمة، وهي من اجل ذلك امس رحما بهذه اللغة المرنة المطواع .

ثالثا : أن العمل الاشتقاقي الذي يسود حركة التعريب هو الذي اتاح للعربية في القديم وما يزال يتيح لها في الحديث ان تلد كل لحظة مولودا جديدا ، وان تلبي للاحياء ادق مطالب التعبير « لكننا – سواء الاحظنا قوالب المشتقات ام لم نلاحظها – لا يخفى علينا ان حركة الاشتقاق الدائمة تنشيء لمشتقاتها صيغا مقدودة على قدها ، مرسومة على حدها ، لا شيء اكثر شبها بها من القوالب التي تصنع على مثالها السبائك الذهبية : ففي العربية اذا ظاهرتان متعاكستان ، وهما على تعاكسهما متداخلتان متكاملتان . ظاهرة الحركة الاشتقاقية فيما تلده وتحييه وظاهرة الصياغة القالبية فيما تسبكه وتبنيه » . (١٣)

رابعا : ان تحوير المعنى القديم ، او بسط الدلالة في البناء القديم سواء اتناول الصيغ الاسمية او الفعلية او الوصفية ، يدل دلالة قوية على مرانة العربية وسعتها ، كان صيغها القديمة التي بلغت عند ابن القطاع (١٤) الف مثال ومئتي مثال وعشرة امثلة (١٢١٠) لم تكن برمتها كافية لادخال المصطلحات الجديدة في قوالبها ، ما دام بعض المطبوعين من المحدثين لا يرون ضيرا في اقتراح صيغ وابنية جديدة تختلف عن القديمة المحفوظة في تحريك وتسكين ، او في طول وقصر ، او في نحت والصاق ، مهما يكن الترقيع فيها كلها واضحا جليا .

خامسا : ان الاشتقاق عند اهل العلم بالعربية لا ينحصر في اخذ بعض الالفاظ من بعض ، او في توليد الفروع من الاصول ، كما هو شان الاشتقاق في جمهرة اللغات الانسانية ، بل هو في العربية صور واشكال وانماط ، ربما كان اقل ما يعنينا منها في مثل هذا المقام هو الاشتقاق الاصغر او الاشتقاق العام او الاشتقاق العادي الذي يتكلم عليه الصرفيون ، وربما كان اكثر ما يعنينا منها واقوالها تعبيرا عن خصائص لغتنا عند الترجمة او التعريب هو النحت والالصاق او ما يعبر عنه ايضا بالاشتقاق الكبّار ، فيمقابل كلمن الاشتقاقين اللغويين الاخرين : الكبير والاكبر .

سادسا : قبل ان نفيض في توضيح ضروب الاشتقاق المتنوعة ،من كبير واكبر وكبّار ،في الحدود التي يسمح بها هذا المجال ،وقبل ان نبرز الفروق الدقيقة بينها ، ونميط اللثام عن الاوجه التطبيقية العملية لكل منها على حدة ، لا مناص لنا من التنبيه الى وهم فاسد يوشك اكثرنا ان يقع فيه ، عندما تجمح بنا عاطفتنا القومية طورا والدينية طورا اخر ، الى المبادرة العجلى « اللاوعية » و « اللامسؤولة » للاكثار من التعريب ، جاهلين او متجاهلين ان هذا التعريب لا يجوز ان يكون مقصودا لذاته ، لانه وسيلة وليس بغاية ، ولانه ضرورة تقدر بقدرها وليس معيارا ثابتا يقاس عليه بصورة دائمة .

وتبيانا لذلك يطيب لنا ان نردد مع مونين Mounin ان اللغة ليست اكثر من اداة اتصال بالتجربة الانسانية واداة تحليل لها. وهذه التجربة نفسها عرضة للتغاير والاختلاف بين مجتمع واخر ، وبين بنية واخرى (١٥) ، ونخلص مع هذا اللغوي الكبير نفسه الى ان ما ننشده من كل لغة انسانية ، ومنها لغتنا العربية الفصحى ، هو تحديد رؤيتنا للحقائق والاشياء ، وللكون والحياة ، وللانفس والافات ، وفاقا لما صرح به مارتينه Martinet في قوله الموجز الواضح : « انما نتوخى من اللغة ان نتمكن بوساطتها من تحديد رؤية كل منا للعالم الذي يحيط به » (١٦) وفي هذا المعنى نفسه يقول كاسيرر : « ان الانسان لا يدرك العالم ولا يفكر فيه بوساطة التعبير فحسب ، بل توشك رؤيته للعالم ان تكون محددة قبل بالتعبير » (١٧) .

سابعا : ما دامت اللغة وسيلة لتحديد الرؤية ، واداة للتعبير عن المعارف الانسانية ، تاملية كانت ام تجريبية ، فان لجوءنا الى التعريب (بانزال الالفاظ الاعجمية على احكام العربية مع الاحتفاظ بصياغتها (الصوتية الاصلية)لا يجوز ان يكونمرتكزا تعبيريا لنا الا عند الضرورة. ولسوف يكون منا هذا الموقف المتروي الرصين منسجما مع القرارالحكيم الذي اتخذه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ونصه : « يجيز المجمع

(١٠) قارن بالمصطلحات العلمية للامير مصطفى الشهابي ٢٣ .

(١١) المصطلحات العلمية ٢٤ .

(١٢) انظر كتابنا (دراسات في فقه اللغة) ٣١٥

(١٣) كتابنا « دراسات في فقه اللغة » ٣٢٨ .

(١٤) المزهر للسيوطي ٢/ ٤

(١٥) G . Mounin . Les problémes Théorique de la traduction . nrf 1963 . P . 58 - 59

(١٦) Ibid . P . 50

(١٧) Ibid . P . 44

ان يستعمل بعض الالفاظ الاعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم » (١٨) .

اما قبل تحقق هذه الضرورة فالترجمة الدقيقة تقوم مقام التعريب اذا تحرى الناقل العليم باسرار العربية اللفظ العربي الانسب لاداء مدلول اللفظ الاعجمي . فنحن نترجم مثلا Microscope بالمجهار . و Den simétre بالمكثف ، و Florieulture بزراعة الازهار، (١٩) ، وهكذا .

وقد علق الامير الشهابي على قيد « الضرورة » بقوله : « ارى ان قيد « الضرورة » الذي وضعه المجمع للتعريب هو ضرورة : اقول هذا لانني عارف بسخافات بعض اساتيذ العلوم الحديثة ، الذين عربوا الفاظا علمية اعجمية ، كان في استطاعتهم ان يجدوا لها الفاظا عربية مقبولة بقليل من الجهد ، ومن المعرفة باصول تلك الالفاظ الاعجمية وبمعانيها » (٢٠) .

ثامنا : لا بد لنا ان نبدي اسفنا الشديد للذين يخلطون – وهم في اوج حماستهم القومية – خلطا مضحكا بين الترجمة والتعريب . انهم اولئك الذين يتوهمون ان مجرد الترجمة ،على اي صورة تتم ، هي تعريب محض ، يستحيل في نهاية المطاف تمليكا للعربية ما لم تك من قبل تملكه ملكا ذاتيا اصيلا ، مع ان التعريب الذي كان عليهم ان يلتمسوه في هذا المضمار هو تحويل اللفظ الاعجمي عربيا او بمنزلته ... ولو ادركوا هذا منذ البداية لالتزموا – دون تردد – الكف عن استعمال اللفظ المعرب ، اذا كان له اسم في لغة العرب ، احياء للفصيح وقتلا للدخيل ، كما كان يفعل اسلافنا من ائمة اللغة ورجال العلم الخالدين . ولقد عقد السيوطي فصلا ممتعا في « المزهر » للمعرب الذي له اسم في لغة العرب ، نقل فيه امثلة من كتب اللغة المختلفة تشهد بان العرب عرفت مثلا في لسانها الفد قبل ان تعرب الباذنجان (٢١) ، والحُرُض قبل الاشنان (٢٢) ، والصرفان قبل ان تعرب الارزيز بالرصاص (٢٣) ان طائفة من تلك الاسماء عربتها العرب او تركتها كما هي (٢٤) ، ولكنها غالبا مما له اسم في لسان العرب رغم تعريبها اياه (٢٥) . وثمرة هذا كله اننا – لكي نحيي العربيات الفصيحات – لا بد لنا من قتل الاعجميات الذميمات .

والشواهد التي نذكرها في هذا المقام كافية بحد ذاتها لحملنا على الكف عن استعمال اللفظ المعرب ما دمنا نجد مقابله في لسان العرب : ان السكرجة تسمى عند العرب « الثقوة » ، والياسمين يسمى « السمسق » ، والنرجس يدعى « العبهر » ! (٢٦) فاذا اردنا اليوم تطبيق هذا المقياس السليم على الفاظ اعجمية ننقل مدلولاتها الى العربية ، في اي باب من ابواب المعرفة الانسانية ، لم يكن لنا ان نذعر من مجرد العودة الى رصيدنا اللغوي الضخم الذي قد نجد فيه مدلولا مكافئا او مساويا او شديد الشبه – وان لم يكن تام الشبه من كل وجه – في لفظ عربي صميم من الفاظنا التي امتحنت بسبب الهجر

(١٨) المصطلحات العلمية ٦٧ .

(١٩) نفسه ٦٦ .

(٢٠) نفسه ٦٣ .

(٢١) عن امالي ثعلب . قارن بالمزهر ١/٢٨٤ .

(٢٢) عن صحاح الجوهري ، وقارن بالمزهر ١/٢٨٣ .

(٢٣) الرواية هنا عن ابن درستويه في « شرح الفصيح » . انظر المزهر ١/٢٨٤ .

(٢٤) انظر فقه اللغة (للثعالبي) فصل في سياقة اسماء تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب الى تعريبها او تركها كما هي (ص ٢٥٣ – ٢٥٥) .

(٢٥) المزهر ١/٢٨٣ .

(٢٦) المزهر ١/٢٨٤ .

والاهمال . وكأي في الفاظنا من مستعمل قد هجر ، مع ان في وسعنا احياءه من جديد .

تاسعا : علينا ان نعترف – سواء أحببنا ام كرهنا – بان انتشار اللغة (اي لغة كانت) – رهن بمدى اسهامها في الواقع الحضاري ، ومشاركتها في تملك معنى اللفظ قبل اقتراح صياغته ، مهما تكن تلك الصياغة ، وذلك يعني ان كل تخلف توصم به لغتنا مثلا ينحصر في الباحثين العرب لا في اللغة العربية .

اني اوافق من قال : « لا تصير العربية علمية من طريق التعريب »، لان عملية التعريب ليست لعبة لفظية ، ولا زخرفة جمالية ، ولا انفعالات عاطفية ، ولا همسات شعرية ، ولا انغاما موسيقية ، ولا شعوذات سحرية ، ولا شطحات صوفية ، انها على العكس من ذلك عملية علمية، منهجية ، واقعية ، (٢٧) بل هي انسانية شاملة ابهت ما فيها الالوان المحلية والاقليمية وحتى القومية ، وابرز ما فيها واصله واخلده وابقاه الالوان الحضارية العالمية التي تؤمن بان العلم لا ارض له ، ولاوطن له، وان الانسان اخو الانسان في كل زمان ومكان .

عاشرا : من اجل ذلك اراني شخصيا اوافق على التعريب المدروس لا المرتجل الجزئي لا الكلي ، الذي يفسح في جميع مراحل التعليم مكانا رحيبا للغة اجنبية تثقيفية على الاقل بجانب لغتنا العربيةالفصحى، لغة القرآن ، لان وطنا في العالم لن يستطيع بعد اليوم ان يحبس نفسه في قوقعته ، والناس عن يمينه ويساره لا يقنعون بخيرات الارض بل ينشئون المحطات في الفضاء اللامتناهي الفسيح !

لكني لا اوافق ابدا على الشعور بالانهزامية ، وعلى وصم العربية بالتخلف والرجعية ، ولا سيما بعد ان بدأت في السنين الاخيرة تتكامل في اجهزتها العلمية والتعليمية وسائل القدامى ووسائل المحدثين لشؤون النقل والتعريب ، حتى ليوشك ان نتوهم ان قدامى لغويينا ما يزالون احياء بين ظهرانينا في القرن العشرين ، او ان علماءنا المعاصرين ما يبرحون يولدون الالفاظ ويضعون المصطلحات مع ائمة اللغة الاولين الغابرين .

حادي عشر : ان التسابق الى حركة التعريب ، بدون خطة متكاملة مدروسة ، ولا سيما اذا اقتصر على التعريب الحرفي للمصطلحات المطلوب نقلها ، يوسع شقة الخلاف القائم في المصطلحات بحيث يكون في العالم العربي من اللغات العربيات عدد مماثل للغات الاجنبية المنتشرة فيه (٢٨).والافضل اذا ان نقصر التعريب على الالفاظ الدولية للمصطلحات العلمية المستعملة بالفاظها اللاتينية في جميع لغات العالم. اما بقية المصطلحات فلن تعجز العربية عن توليد اللفظ الملائم لها عن طريق الاشتقاق .

وفي هذا الصدد يلاحظ ان بعض علمائنا المعاصرين لا يجدون بأسا في قبول طائفة من المصطلحات العلمية بالفاظها اللاتينية اسوة بجميع اللغات الحية ، ومن بينها الروسية برغم تقدمها العلمي والتكنولوجي : فلا داعي لانفراد العرب بنقل تلك المصطلحات – ولو نقلا غير دقيق – من اللاتينية الى العربية ، دون طائل ولا جدوى . والى هذه النقطة بالذات نبه المستشرق الفرنسي شارل بيلا Charles Pellat عندما كتب

(٢٧) من محاضرة لنا في النادي الثقافي بجبيل ، اغسطس ١٩٧٠ . وقد اشرنا الى نظير هذا في محاضرتنا بطرابلس ليبيا (يوليو ١٩٧٣) عن ضرورة الحفاظ على اللغة العربية في الوطن الاسلامي ، في مؤتمر الشباب العالمي الاسلامي ، الذي دعيت اليه جمعية الدعوة الاسلامية .

(٢٨) وحينئذ تكون مصطلحات مصر والعراق والاردن مثلا انكليزية اللفظ ، ومصطلحات سورية ولبنان وبلدان الشمال الافريقي العربي فرنسية اللفظ ، فتكثر بهذا السبب اللغات الاقليمية وتتسع بينها مع الايام شقة الخلاف .

يقول : « يعلم الجميع ان علماء النبات والحيوان يستعملون في العالم اجمع اسما ونعتا لاتينيين لكل جنس ونوع من النبات والحيوان ، فهذه الاسماء والنعوت مجمع عليها كما قلت في العالم كله ، والروس انفسهم الذين يكتبون بخط خاص يذكرون لكل حيوان ونبات اسمه ونعته باللاتينية » (٢٩) .

ثاني عشر : وقد تعترضنا هنا مشكلة اختلاف المصطلحات التي تم تعريبها في بعض البلدان العربية ، او التي اقترحها مكتب التنسيق لشؤون التعريب التابع لجامعة الدول العربية ، والذي مركزه الرباط، وذلك في بعض المعجمات التي انجزها في السنين الاخيرة بنشاط ملحوظ مشكور . لكن لهذه المشكلة حلا عمليا يمكن تبنيه عن طريق الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، وعن طريق المجامع العلمية واللغوية القائمة اليوم في القاهرة ودمشق وبغداد . فليس عسيرا ان نضع حدا لاختلاف الاصطلاح العلمي اذا سعينا لايجاد مجمع عربي لغوي وعلمي موحد ، وعقدنا مؤتمرات علمية بالتعاون مع المكتب الدائم لتنسيق التعريب ، ابتغاء الوصول الى الوحدة الثقافية العربية ، ووضع مقاييس عامة لايثار مصطلح على اخر حتى تكتب له السيرورة . ومن المعروف انه اقيم في الجزائر سنة ١٩٦٤ مؤتمر لهذه الغاية شاركت فيه جميع الدول العربية . واذا لم يكتب للمحاولة النجاح الكامل في ذلك الحين ، فلا مانع من اعادة الكرة في محاولة جديدة . (٣٠)

ثالث عشر : قد يكون من المفيد هنا ان ننوه بافتقارنا الى مراجع علمية عربية لتدريس جميع العلوم على المستوى الجامعي . ومما يعين على حل هذه المشكلة العويصة اسهام الدول العربية عن طريق جامعتها بتمويل مشروع على جانب عظيم من الاهمية . الا وهو اصدار معجمين عربيين ، احدهما لغوي والاخر علمي تعدهما الهيئات العلمية واللغوية في الوطن العربي . وان واقع التدريس الجامعي في كثير من البلدان العربية ليؤكد اليوم انا قطعنا اشواطا في هذا الصدد ، « فالدراسات القانونية والاجتماعية بوجه عام انما تدرس باللغة العربية ، وكذلك الدراسات العلمية من طبيعة وهندسة ورياضة ، بل يدرس في جامعات جمهورية مصر العربية نظريات الذرة والاليكترونات باللغة العربية، ولم يبق الا بعض الدراسات العلمية التي لم تستكمل وسائلها في المكتبة العربية » . (٣١)

وعندما يتم وضع المعجمين اللذين اشرنا اليهما انفا فسوف نؤيد كل التأييد استعمال الكلمات المدونة فيهما ، على حالها التي وردت عليها ، ولو كان لدى المؤلفين افضل منها ، « على ان يبين المؤلف في اخر كتابه او في هوامشه نقده والكلمة المفضلة لديه لتنظر فيها لجنة المعجم فتقرها اذا اقتنعت بها في الطبعة الجديدة ، ويقضي ذلك بان يطبع المعجم لا اقل من مرة كل ثلاث سنوات » (٣٢) .

رابع عشر : وابتغاء الدقة في نقل المصطلحات ، ولا سيما من طريق التعريب اذا اقتنعنا بضرورة اللجوء اليه عندما لا نجد مندوحة عنه بالترجمة الصحيحة ، جدير بنا الا ننسى ما كررناه في بحثنا في اكثر من موطن ، لاهميته الكبرى ، من وجوب انزال المعرب على اوزان العربية ، لنبلغ في ذلك ما بلغه اسلافنا من ائمة اللغة من القدرة على التصرف في الكلمة المعربة واعمال مباضع الاشتقاق في بنيتها ، فنحن نعلم انهم قالوا في زنديق . زندقة وتزندق ، وفي سردق : بيست مسردق ، (٣٣) مثلما قالوا في الديوان : دون تدوينا ، وفي النوروز: نورز ينورز .

ومن تنزيل الكلمة الاعجمية على احكام العربية ان نختار لتعريبها وزنا يشبه بعض الاوزان العربية ، فكلمة (Physique) يمكن ان تترجم بعلم الطبيعة ، ولكن الترجمة ليست دقيقة ، وخير منها تعريب اللفظة نفسها منتهية بالالف المدودة لكيلا يضيع اصل التسمية ،فنقول « الفيزياء » ، على نحو ما قال الاستاذ العلامة عز الدين التنوخي في كتابه « مبادىء الفيزياء » فقد نبه الى انه « لم يراع في الاصطلاح الا الافضل مما اشتد اليه مسيس الحاجة ، ولو كانت الكلمة اعجمية الاصل : فانها اذا ما تعربت بنزولها على احكام العربية خفت على اللسان وعذبت بصقله اياها في البيان : يدل على ذلك مثلا اسم الكتاب (مبادىء الفيزياء) » (٣٤) .

والعليم باسرار هذه اللغة لا يختلط عليه الاعجمي والعربي ، ولا يلتبس عنده الاصيل والدخيل ، فان للكلمة العربية نسيجها المحكم وجرسها المتناسق ، وايقاعها المعبر . ولم يضن علينا ائمة العربية بمقاييس نعرف بها عجمة الاسم ، لكي نتناوله بالتغيير ان شئنا صياغته على اوزان العربية ، او نعرف حقيقته على الاقل ان آثرنا تركه على لفظه دون تبديل فيه (٣٥) .

واكثر هذه المقاييس يقوم على النقل والسماع ، فبنية الكلمة وحدها تسمها بالعربية او بالعجمة ، وحسبك أن تردد في سمعك لفظ « ابريسم » لترى ان وزنه مفقود في العربية . ولن تجد كلمة عربية اولها نون ثم راء مثل « نرجس » ولا اخرها زاي بعد دال مثل « مهندز » ، او كلمة يجتمع فيها الصاد والجيم نحو « الجص » ، او يجتمع فيها الجيم والقاف نحو « المنجنيق » (٣٦) . ولن تجد كلمة رباعية او خماسية عارية عن حرف او اكثر من حروف الذلاقة (٣٧) . فانها متى كانت عربية فلا بد ان يكون فيها حرف ذلقي ، نحو سفرجل ، وقد عمل (٣٨) .

خامس عشر : واذا كنا في بحثنا هذا لا نسيغ لانفسنا ان نتعرض لبعض المسائل الاشتقاقية المتعلقة بالقلب والابدال في كل من الاشتقاق الكبير والاشتقاق الاكبر ، مخافة التحول في ندوتنا هذه عن العربية وطبيعتها في عملية التعريب الى ما يشبه الدراسة « الاكاديمية » او الجامعية التي ليس موضعها في مجال كهذا ، فلا مفر لنا بشكل خاص من الاشارة الى لون من الاشتقاق فريد : هو النحت والالصاق او الاشتقاق الكبّار ، لان كثيرين توهموا قلته في العربية ، حتى وسع بعضهم انكار الافادة منه على وجه الاطلاق . وقد حملنا

---

(٢٩) انظر في اللسان العربي ص ٥٤ بحث هذا المستشرق بعنوان (اللغة العربية والعالم الحديث) .

(٣٠) انظر كتابنا « دراسات في فقه اللغة » ص ٣٥٣ (الطبعة الخامسة) .

(٣١) هذا ما افتى به مجمع اللغة العربية في القاهرة تحت عنوان « حتى علوم الذرة والالكترونات تدرس باللغة العربية » ، لما استفتاه المكتب الدائم لتنسيق التعريب – انظر اللسان العربي ص ٩٨ . وذلك ايضا ما اقترحه المجلس الاعلى للجامعات في القاهرة تحت عنوان (ضرورة التعجيل بتعريب التعليم) ، انظر اللسان العربي ايضا ص ١٠٥ .

(٣٢) هذا هو اقتراح الدكتور احمد شوكت الشطي الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق وذلك في مقاله في اللسان العربي ص ١٣٦ تحت عنوان : « للغة العربية طاقات خلاقة ، ولكن تنقصنا وسائل التنسيق » .

(٣٣) الاشتقاق والتعريب (للمغربي) ٤٨ .

(٣٤) انظر الجزء الاول ، صفحة (ج) ، وقارن بالمباحث اللغوية في العراق للدكتور مصطفى جواد ص ٨٦ .

(٣٥) قارن بكتابنا « دراسات في فقه اللغة » ص ٣٢٣ .

(٣٦) المزهر ٢٧٠/١ .

(٣٧) احرف الذلاقة ستة (بر فل من) .

(٣٨) المعرب للجواليقي ، وقارن بالجمهرة لابن دريد ص ١١ (المقدمة) .

هذا الموقف على افاضة القول فيه في كتابنا « دراسات في فقه اللغة » (٣٩) ، واتينا فيه بشواهد يستحيل نقضها او دفعها ، الجئنا خلالها الى عد النحت من انواع الاشتقاق بيد اننا نود ان نقيد الضرورة فيه « بالقصوى » ، لان اساليب الاشتقاق الشائعة تغني عنه غالبا ، ولان للذوق دخلا كبيرا في النحت ، فما كل تركيب مزجي ترجم به لفظ اعجمي يثقل في السمع او يستكره ، ولا كل لفظ منحوت مختزل يخف في الاسماع ، وتكتب له السيرورة في المجتمعات .

ولان نقول: هذه السمكة من شائعات الزعانف (Acanthoptérigiens) خير واقرب الى الفهم من ان تقول « هي من الشوجينات » والذوق يمج وصف الحشرات بالمستجناحيات ، بينما يرضى عن وصفها بمستقيمات الاجنحة (Orthoptéres) وان المعنى ليستغلق على من يسمع او يقرأ تسمية عصبيات الاجنحة من الحشرات (Nérvoptères) بالعصجناحيات (٤٠) . ولا ريب في ان التركيب المزجي في جميع الامثلة المتقدمة اوضح دلالة واخف وقعا من الكلمات المختزلة ، بل ربما كان الطف في الاسماع واقصر في الرسم حتى من بعض الكلمات الاعجمية .

سادس عشر : وكما ادخلت اللغات الحية على بعض الفاظها العلمية صدورا وكواسع (Préfixes at Suffixes) من لغات الحضارة القديمة (كاليونانية واللاتينية) يسوغ الذوق احيانا ادخال مثل تلك السوابق واللواحق على بعض الالفاظ العربية . ويبدو لنا ان اساتذة جامعة دمشق لم يرتكبوا شططا حين اضطروا الى تعريب (Carbonyle) بالفحميل ، و (Formyle) بالنمليل ، و (Amyloide) بالنشوية ، و (Alcoyle) بالغوليل ، فقد ملكوا العربية المطواع بهذه الكواسع الفاظا علمية مختزلة يرضى عنها الذوق ولا يأباها نسيج الكلمة العربية ، كما فعل هؤلاء الاساتيذ بمعجم كلارفيل (Clairville) الطبي (٤١) .

ومن الصدور التي نحسب ان لا ضير في ترجمتها لنؤلف بها على طريق النحت كثيرا من مصطلحات العلوم والفنون : الصدر اليوناني (A) الذي يكتب (An) امام الاحرف الصوتية ، ويفيد بكلا رسميه معنى النفي ، فقد قرر مجمع القاهرة ترجمته بكلمة لا النافية مركبة مع الكلمة العربية المنحوتة (٤٢) . ولقد صدر المجمع في قراره هذا عن المنهج الذي اخذ به المتقدمون انفسهم في التعبير عن الشيء الذي لا يتناهى باللامتناهي ، وعن الذي لا يدوم باللادائمي ، وعن طائفة من الفلاسفة العناديين باللاادريين ، فيسعنا ما وسعهم حين نقول اليوم : لا اخلاقي Amoral لا اجتماعي « Asocial » لا تناظري « Assymetrique » لا هوائي Anaérobe (٤٣)

وحين يسوغ الذوق ترجمة صدر او كاسعة (Préfixe ou Suffixe) لتركيبها مع كلمة عربية نحتا واختزالا ، لا ريب انه سيكون اقرب الى تسويغ النحت في كلمتين عربيتين خالصتين ينألف منهما اصطلاح علمي مختصر ، فلا ضير في استعمال (الزمكان) (٤٤) نحتا من الزمان والمكان ، و « الحينب والحينبات » (٤٥) نحتا من الحيوان والنبات Zoophyle « والحيزمن » نحتا من الحيز والزمن Espace - temps (٤٦) ومقياسنا في هذا كله الذوق السليم الذي نرجو ان يصدق فيه قولنا : لا يجتمع ذوق المطبوعين على مستكره في السمع مستثقل على اللسان !

وفي ضوء هذه الملاحظات المميزة بوضوح بين الترجمة والتعريب ، والمدققة في شروط التعريب بوجه خاص . والساعية الى توحيد المصطلحات لما يوضع من الفاظ العلوم والفنون ، يسعنا ان نكون على يقين من ان نقلة العلوم الحديثة في هذا العصر باتوا يعبرون اليوم عن خصائصها اصدق تعبير ، فما هي باللغة الجامدة الميتة ، بل هي اللغة المرنة المطواع التي كتب الله لها النماء والبقاء والخلود .

صبحي الصالح

---

(٣٩) انظر في كتابنا هذا الفصل الخامس من الباب الثالث من صفحة ٢٤٣ الى ٢٧٤ .

(٤٠) المصطلحات العلمية ص ٩٨ .

(٤١) طبع جامعة دمشق ، بالاشتراك مع الاساتذة الدكتور مرشد خاطر ، والدكتور احمد حمدي الخياط ، والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي .

(٤٢) وكان قرار المجمع حكيما حين قيد هذا النوع من النحت بموافقته للذوق . فقد اذن باستعمال (لا) مركبة مع الاسم المفرد ، دون ان يتخذ قرارا باستعمالها دائما او عدم استعمالها دائما (مجلة المجمع ، المجلد ٦ ص ١٧٢) .

(٤٣) انظر في ترجمة هذه الصدور والكواسع على طريقة النحت مقالا ممتعا لساطع الحصري في مجلة التربية والتعليم سنة ١٩٢٨ (المجلد ٦ ص ٣٦١ — ٣٧٥) .

(٤٤) انظر على سبيل المثال (نظرية النسبية) للدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا ،

(٤٥) هذه من نحت الاستاذ عزالدين التنوخي .

٤٦) المباحث اللغوية في العراق ص ٩٨ .

د . ممدوح حقي

مؤسسات التعريب ومنجزاتها

العقبات الحقيقية والمصطنعة في طريق التعريب

قضيت خلال هذا الصيف قرابة شهرين في القاهرة ، مشاركا في ندوة علمية دعت اليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، للنظر في المعاجم العلمية الستة التي وضعها مكتب تنسيق التعريب في الرباط ، وهي : الكيمياء ، الفيزياء ، الرياضيات، الجيولوجيا ، الحيوان ، النبات . وقد عكف على دراسة كل معجم علماء متخصصون من البلاد العربية ، جلهم من كبار اساتذة الجامعات ، اعادوا النظر فيما اتفق عليه بمؤتمر الجزائر من مصطلحات ، وحققوها والقوا عليها النظرة الاخيرة قبل دفعها الى المطبعة لتخرج - باذن الله تعالى - معجما علميا متكاملا للتعليم العام في البلاد العربية .

ولقد افدت من هذه التجربة كثيرا كما افدت قبلها من مؤتمر الجزائر الذي انعقد في ديسمبر من العام الماضي (١٩٧٣) للنظر في توحيد المصطلحات العلمية ، هذا بالاضافة الى خبرة طويلة في الترجمة والتعريب ، اخرها بضع سنوات دسمة في المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط بصفتي كبيرا للخبراء ومشاركا في وضع المعاجم العلمية والانسانية ، وحصلت في اخر المطاف على اراء اخواني العلماء المتخصصين بندوة القاهرة ومؤتمر الجزائر وما دارت حوله مناقشتنا ، وادركت موضع الداء الحقيقي ، وسأنشر حقيقة ذلك كله امامكم بمنتهى الايجاز ، لتروا رأيكم وتقرروا بعد ذلك امرا وتضعوا خطة حكيمة نتفق على تنفيذها في الوطن العربي بأجمعه ، ونوحد جهودنا في الترجمة على اصول ثابتة نخدم بها الفكر العربي خدمة خالصة لا عوج فيها ولا امتا .

نحن لا نشك في ان الغرب قد تقدمنا خلال العصر الحاضر تقدما واضحا جدا ، وان علينا - اذا اردنا الدخول في حومة الحضارة الحديثة - ان نتتبع خطاه ، ونمشي على اثاره ونفيد من تجاربه ونستخدم مخترعاته ومكتشفاته ، وان نستغل الزمن المتسارع بكل دقيقة من دقائقه لئلا تتسع الشقة ، بيننا وبينه مع الايام ، فلا نستطيع اللحاق به بعد ذلك ابدا . وان نكف عن التبجح بالماضي ، فقولنا : كنا وكنا ، لا يفيدنا شيئا . نعم كان لنا ماض مجيد ، وكانت لغتنا لغة الحضارة خلال القرون الوسطى ، لم تعجز عن ترجمة ما لم يكن لها به علم من قبل ، واثار علمائنا شاهدة بذلك يكفي ان نذكر منهم ال بختيشوع وابن ماسويه وحنين بن اسحاق والكندي والفارابي وعيسى بن يحي وثابت بن قرة والرازي وابن سينا وجابر بن حيان والزهراوي وابن جزلة وابن النفيس وابن زهر وابن رشد وابن الطفيل وابن حزم ... وسواهم كثيرا جدا مما لا يمكن احصاؤه ، ولكن هل يكفي التفاخر بهم وبماضينا اللامع ونحن نعيش في ظلام وتفكك وتأخر ؟ هل يكفي قولنا : بأن اللغة التي لم تعجز عن الترجمة والاقتباس والخلق والابداع في القرون الوسطى ، لن تعجز اليوم عن ملاحقة العلوم ؟ هذا القول قد فاته الزمن ، والتفاخر وحده لا يجدي بل يجب العمل كما عمل اجدادنا الكرام ، والعمل الفردي في هذا العصر ناقص مبتور ، فلا بد من التضافر ، لا بد من التآزر ، لا بد من توحيد المساعي لتتساوق خطواتنا مجتمعين .

ان عصرنا هذا عصر العلوم والتقنيات ،عصر الالة والذرة والالكترون فيجب ان نتجه هذا الاتجاه لننسجم مع التصور المعاصر ولا نشذ عنه . كان اكتشاف البخار ثورة فكرية جبارة غيرت كثيرا من المفاهيم . وحرفت طرق التجارة عن مساراتها وخلقت طورا صناعيا جديدا لم نستطع اللحاق به في ابانه ، فاهتبل الغرب هذه الفرصة وسيطر على العالم واستغل بلادنا وخيراتنا سنين طويلة ، وما كدنا نستيقظ لنتخلص من براثنه حتى ظهر عصر الكهرباء، ولحق به عصر الالكترون .. وما زال كثير منا يعيشون بافكار القرن التاسع عشر ويعدون انفسهم متقدمين . وما زال كثير من حملة الشهادات العليا يجترون ما تعلموا في معاهدهم ولا يتتبعون التطور المتسارع ،فكانهم جمدوا في مواقعهم لا يحيرون حركة.الزمن يتطاير بهم وهم لايشعرون. بينما ارى على الجانب الاخر اجيالا جديدة تتحرق لاكتساب العلم الجديد وتتمنى لو تقحمت الزمن واحرقت المراحل للوصول الى اهدافها، ولكنها لا تعرف الطريق الصحيح ،فهي تتخبط خبط الاعشى ، يضرب هنا وهناك لعله يصيب هدفا ، وقليلا ما يصيب .

لقد طلع علينا العصر الحاضر بكل هيله وهيلمانه ، ونحن لا نزال نرزح تحت وطأة استعمار وحشي غاشم ، وكأننا طفل امام عملاق . غير ان هذا الوضع لم يبعثنا على اليأس والقنوط ، بل دفعنا دفعا نحو اكتساب اي شيء وبأي طريق وعلى اي وسيلة . ولنعد قليلا الى الوراء ، ولنقف عند مشارف القرن التاسع عشر ، ولنلق بنظرة عجلى على الامة العربية انذاك ثم نسير ، فماذا نرى ؟ الامبراطورية العثمانية تسيطر على الشرق الادنى كله وعلى جزء كبير من شرقي اوروبا ، وتقود هذا العالم المتسع باسم الخلافة الاسلامية، وتقف اوروبا الى الجانب الاخر تدس على هذه الامبراطورية المسلمة وتحاربها سرا وجهرا ، وتحاول تحطيمها بكل وسيلة . ولا بد هنا من الاعتراف بأن العثمانيين لم يفعلوا شيئا لتقدم امبراطوريتهم او

استنقاذها ، بل تقوقعوا حول انفسهم وتركوا الدنيا حولهم تدور كما تهوى . اوروبا تتقدم علميا واقتصاديا وعسكريا ، وهم جامدون يراوحون في اماكنهم على ما كان اجدادهم ويصرخون باعلى اصواتهم: « يا نشاهم جوق يشاء » ليعش مليكنا طويلا ، كأنما الامبراطورية كلها هي الملك وحده ؟ وجاءهم نابليون من اقصى الغرب فهز امبراطوريتهم هزا عنيفا ، ومكن انتصاره للمبدأ السياسي السائد في المحافل السياسية الاوروبية الذي يشبه هذه الامبراطورية بالرجل المريض، ووقفت كل الدول العصرية تنتظر موته لتتقاسم ارثه .

وهزهم محمد علي باشا من بعده مرة ثانية، ودخل ابن زوجته ابراهيم باشا بجيوشه الى لب بلادهم ، وتوقف عند كوتاهية يشرف على عاصمتهم . ولولا اختلاف الدول الاوروبية يومذاك على تقسيم الامبراطورية العثمانية فيما بينهم ، ولولا ضغطهم على ابراهيم باشا وارغامه على التراجع ، لكان هو الوارث الوحيد لها ، ولبنى مكان الامبراطورية العثمانية المزعومة ، امبراطورية عربية يراسها هذا البطل الليبي ابن زوجة محمد علي باشا الذي انتسب اليه اذ ربي في حجره ، واشتهر بانه ابنه . وكانت الحرب العالمية الاولى ثالثة الاثافي ـ وقد مهدت لها حروب البلقان وليبيا من قبل ـ وصحونا عام ١٩١٨ فاذا الدنيا غير الدنيا ، واذا البادشاه العظيم قزم محبوس في قصر يلدز ، واذا البلاد العربية مجزأة منقسمة ، يحكم الانكليز العراق والاردن وفلسطين ومصر وعدن ويسيطرون على سواحل الجزيرة العربية كلها سيطرة مقنعة بمعاهدات مع مشائخها وامرائها ، اقل ما يقال فيها : انها ضحك على الذقون .. ويحكم الافرنسيون سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب وتحكم ايطاليا ليبيا ، وتحكم اسبانيا مراكز ستراتيجية مهمة في المغرب مثل مليليا وسبته والصحراء المغربية والساقية الحمراء وتحكم طنجة هيئة دولية من كل هؤلاء لكل دولة في ادارتها نصيب خاص ، واذا وعود لورانس هباء ومكملهون كذاب وعصبة الامم لعبة في ايدي كبار المجرمين والغادرين والعرب يقطعون اصبعهم ندما على وقوفهم الى جانب الحلفاء الخونة (بريطانيا وفرنسا واميركا) .

لكن هل وقف العرب مكتوفي الايدي امام هذه الفاجعة ؟ هل استسلموا الى اليأس والبكاء حسرة وعجزا ؟ كلا ، فقد نفروا الى العمل في كل حومة وقاوموا بثورات دموية رائعة كانت مثلا في البطولة تسطر بحروف من ذهب ، وناوروا مناورات سياسية بارعة جدا نجحوا في بعضها واخفقوا في كثير لقوة اعدائهم وتكالبهم عليهم واتجهوا نحو التعلم يعبون منه عبا سريعا لينقذوا شعبهم من الجهالة الطويلة التي ران عليهم ظلامها طوال العهود العثمانية ، وطفق القادرون ينقلون الى اللغة العربية وما لقنوه في الغرب مجاهدين على كل جبهة لا يكلون ولا يملون حتى انحسرت الحرب العالمية الثانية عن استقلال البلاد العربية متتالية ، وها نحن الان ـ بحمد الله ـ مستقلون في كل قطر ، فهل وصلنا الى ما نبتغيه ، وحططنا على الهدف الذي سرنا نحوه عصورا ؟

عفوكم ايها السادة ، كان لا بد من هذا التمهيد التاريخي لنعرف اين نحن ؟

وماذا علينا ان نعمل ؟ وكيف نخطط لكي لا نضل السبيل . وانا لم آتكم بجديد وانما قربت الامر من ذاكرتكم تطبيقا لقول الله تعالى: « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

لنعد الى عهد البطل الليبي ابراهيم باشا، فقد تنبه الى ضعف الامبراطورية العثمانية وتهالكها ، ووطن نفسه ليكون وريثها، وعرف أن عصره عصر علم وتخطيط لا عصر كلام وتخليط، ان الرجل السياسي لا يبني دولة ، فعليه ان يعمل ، فكيف عمل ؟

انه هو الذي استحث والده الروحي محمد علي باشا على ارسال البعوث الى اوروبا للدرس والتعليم ، وليكونوا نواة للدولة الناشئة .

وهو الذي رسم خطة التعريب التي سار عليها خلفاؤه من بعده ، فلما احتل الانكليز مصر عرقلوها ثم منعوها . ولو رجعنا الى عهد التعريب الخديوي لرأينا مؤلفات عربية بعلوم عصرية كالطب والصيدلة والنبات والفلك والجيولوجيا والفيزيا والكيميا والميكانيك والهندسة والهيدروليك والعلوم العسكرية .. وسواها .

فلماذا لا نجد الان مثل هذه الهمة وعلى المستوى الذي نريد ؟ مع انا جئنا بعدهم بقرن او يزيد ؟.

لعلنا لو استقصينا الاسباب وحاولنا حصرها ، لما وجدناها خارجة عما يلي :

١ ـ قناعة بعضنا بعجز اللغة العربية عن مسابقة العلوم العصرية، واعتقادهم بانها لغة لم تخلق الا للشعر والادب والغناء .

٢ ـ عجز بعض البلاد العربية عن تعريب التعليم والادارة حتى اليوم بسبب تفشي اللغة الاجنبية التي كانت حكومتها مسيطرة عليهم .

٣ ـ واذا عربت بعض البلاد التعليم الابتدائي والثانوي ، فما زال التعليم الجامعي فيها بلغة اجنبية .

٤ ـ ارتباط المصالح المتبادلة ما بين بعض المتنفذين والدولة الاجنبية ارتباطا ماديا وثقافيا ، فقد نشأوا في ظلها وتعلموا بلغتها، وهم يجهلون اللغة العربية او يكادون .

٥ ـ العمل الخارجي الحثيث ، والمخطط تخطيطا شيطانيا لاقناعنا بأن سير العلوم الذي يكاد لا يصدق العقل مدى تسارعه ، لا يترك للغة العربية الجامدة مجالا لمجابهة التطور العالمي حتى ولا امكانية ملاحقته ..

والجواب على ذلك سهل ميسور ، فلغتنا ليست لغة شعر وادب وحسب ، بل هي لغة علوم كذلك . والادلة عليها كثيرة موفورة نقتصر منها على ما يلي :

١ ـ حينما اضطر العرب الى الترجمة لمجابهة حضارة لم يكونوا يعرفون عنها شيئا ، لانت لهم اللغة واعطتهم ما يشتهون فترجموا وعربوا الفلسفة والفيزيقا والارطماطيقا والماطماطيقا والجومطريا وعلم الهيئة والطب .. ولم يقفوا عند حد .

٢ ـ وفي بدء عهد الدولة الخديوية في مصر ، ساروا على الخطة نفسها ، واسعفتهم اللغة بكل ما يريدون . وعندنا من اثارهم في العلوم المختلفة والطب والصيدلة والميكانيك والهيدروليك وسواها.. ما نقف امامه بكل احترام .

٣ ـ وفي فترة استقلال سورية عام ١٩١٨ وهي فترة لم تزد على عامين ، عربت الادارة كما عرب التعليم من ادنى درجاته حتى نهاية التحصيل العالي والجامعة ، ولم يتراجع السوريون عن تعريبهم حتى اليوم ، ولقد حضرت في العام الماضي درسا بالالكترون في الجامعة السورية بدمشق القاه استاذ شاب عرض فيه مصطلحات العلم مترجمة الى اللغة العربية ، مما ادهش زميلي مدير مكتب تنسيق التعريب ـ وكان رفيقي في هذه الزيارة ـ وزاده يقينا بقدرة لغتنا وليونتها.

٤ ـ الاعمال العلمية التي قمنا بها في مكتب تنسيق التعريب اذ وضعنا معاجم علمية كثيرة ، منها التي عرضت في مؤتمر الجزائر وندوة القاهرة ، فوحدت واقرت صيغتها النهائية ، وستكون بين ايديكم بعد بضعة شهور . ومنها معاجم في : البترول والحقوق والادارة والاقتصاد والخرائط والهيدروليك وسواها .. وجميع مصطلحاتها باللغة العربية ترجمة او تعريبا لما في اللغة الانكليزية واللغة الفرنسية معا ، وجميع معاجمنا ثلاثية اللغات ولنا الامل ان نرفعها الى خمس لغات حين نضيف عليها الروسية والالمانية .

٥ ـ الاعمال العلمية التي قام بها اساتذة الجامعات في سوريا العراق ومصر ، وسجلت في مؤلفات قيمة جدا ، هي موضع تقدير

العرب والاجانب على حد سواء .

٦ ـ الاف المصطلحات العلمية التي وضعتها المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة ودمشق وبغداد . ومجلاتها القيمة شاهدةبذلك، بل ان في بعضها تحقيقات علمية جديدة تصحح كثيرا من المفاهيم السائدة في الغرب .

واما قول بعضهم بأن العلوم العصرية يدخل عليها في كل يوم نحو خمسين مصطلحا جديدا ، وبأن التطور يخلق كل يوم علما لا تعرفه اللغة العربية ، فالجواب عليه : بأننا استطعنا في مكتبنا ـ على ضعفه وفقره ـ ان نجابه هذا الوضع ،ونجحنا فيه الى حد بعيد جدا، ولو فسح لنا في العمل كما نشاء ، ورفعت من طريقنا العقبات وازيحت المثبطات لادينا خدمات اكبر ، ولساعدنا بمجهودنا المتواضع المجامع اللغوية التي لم تقصر هي كذلك في الترجمةوالتعريب ولولا الروتين الدائر ، وحكمة الشيوخ المتانية ، ومحاولة تحري اكبر ما يمكن من دقة ، لماشت جميعها تسارع العصر الحاضر .

ايها السادة :

كنا وما زلنا ننقل عن الغرب ترجمة وتعريبا بصورة شخصية فردية ، يشعر احدنا بالحاجة الى الترجمة فيقوم بواجبه وحده مستهديا بهدي ضميره ، وقد يقع ان يترجم المصطلح العلمي عالم عربي اخر او استاذ في جامعة ، فينشأ للمصطلح العلمي الواحد ترجمتان او اكثر . وتنشأ مع هذه الفوضى لهجات علمية جديدة تشبه ما نحن فيه وافعون من اللهجات العامية المتباينة . ومن هناكانت الدعوة الملحة التي يقوم بها مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي لتوحيد هذه المصطلحات وبسببها اقيم مؤتمر الجزائر ، ومن اجلها استدعيت الندوة العلمية هذا الصيف . وقد اخذت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خدمة هذه الفكرة على عاتقها وستدعو الى مؤتمرات كل عامين ، لتوحيد ما يجمعه مكتب تنسيق التعريب ، ونستطيع ان نطمئن بعد الان ،الى ان المصطلح العلمي قد اخذ سمته وعرف طريقه ، وسيكون للامة العربية كلها مصطلح موحد مقابل المصطلح الاجنبي .

لقد اكدت ـ ياسادتي ـ على المصطلح العلمي كثيرا واهملت ما سواه ، فما شأن التراجم الاخرى يا ترى ؟ وهل اذا كان عصرنا عصر علم وتقنيات ، يجب ان ينصب اهتمامنا عليها وحدها ، وان نهمل ما عداها ؟ كلا ، فالادب والفن شأنهما هين جدا اذا قيسا بالعلم ، ولقد اكثرنا من ترجمة الروايات والقصص والمسرحيات ونشرنا على العالم العربي كميات هائلة جدا من اثار ادباء العالم الكبار من كل لغة ، بل بلغنا فيها حد التخمة ، ودخل علينا بسبب ذلك كثير من الكتب التافهة واللااخلاقية والمؤذية . ونحن لا نستطيع، ان نغل اقلام الكتاب والصحفيين والمنشئين والقصاصين والشعراء ونحصر حق الترجمة بهيئة معينة ـ حكومية او غير حكومية ـ كما تفعل بعض الدول التي تلغي حرية الفكر ، ولا ندعو الى ذلك ، ولكننا نستطيع ان نجابه المشكلة باسلوب اخر ، يفسح المجال للمنافسة ويمنح الحرية للجميع بلا حدود ،وهو ان نؤسس هيئة عليا للترجمة في كل قطر عربي ونربط بينها بصلات وثيقة ونطلق يدها في اختيار ما يجب ان يترجم فيما بينها ، لكي لا تتعدد ترجمات الكتاب الواحد ، وتقوم هي بالترجمة أو تكلف من ترى فيه القدرة علىالقيام بهذا العمل ، وتنشر اعمالها مطبوعة طبعا انيقا متقنا ، وتعرضه في السوق رخيصا ، يجتذب القراء نحوها فيميلون الى الاصلح ويهملون ما عداه .

ولو رجعنا الى تاريخنا القريب لوجدنا شبيها بهذه الفكرةالتي املتها الحاجة الى الذوق الرفيع والايمان بقيمة ما يجب انيقدم الى القارىء العربي من زاد فكري سليم .

ففي زمن محمد علي كانت هناك هيئة عليا للترجمة ، ولعل الطهطاوي اول من ساهم في تقويتها وتدعيمها ، ثم ضعفت بعده وتضاءلت بعد احتلال الانكليز مصر ، ثم امحت نهائيا .

وتأسست في مصر بعد الحرب الكونية الاولى لجنة غير حكومية اطلقت على نفسها اسم :« لجنة التأليف والترجمة والنشر » . من اشهر اعضائها : طه حسين واحمد امين واحمد زكي وعبد الوهاب عزام واحمد حسن الزيات واسماعيل مظهر .. ونشرت انتاجها الادبي والعلمي فحازت ثقة القارىء العربي بدقتها واتقانها وحسن تخيرها للموضوعات المترجمة والمؤلفة .

وتأسست في سوريا حول عام ١٩٣٤ عصبة الادب ، تحمل الفكرة نفسها ، من اعضائها عمر ابو ريشة ، وسامي الكيالي واورخان ميسر وممدوح حقي ، ونشرت من اثارها كتابة الكشاف وديوان ابي ريشه والغريزة الجنسية ، ثم ادركها ما ادرك لجنة التاليف والترجمة المصرية .

وقامت في دمشق قبيل الحرب الثانية جماعة التحصيل العالي ونشرت مبادئها وهي لا تخرج عن مبادىء عصبة الادب كثيرا ، فقضت عليها قوانين الحرب سريعا ولم تنجز عملا ذا قيمة .

وقام بعض الشباب الجامعيين في مصر بتاليف لجنة لترجمة الموسوعة الاسلامية ، وها قد مضى عليها نحو اربعين عاما ولم تترجم نصفها بينما اعيد طبعها في اوروبا للمرة الثانية منقحة مزيدة موضحة .

وظهرت في العراق محاولة شبيهة بها دعا اليها الشاعر الرصافي ، ولكنها لم تنجح ،وجدد الدكتور داود الجلبي الدعوة ، فأخفق .

واقيمت في الاردن لجنة حكومية للتعريب والترجمة والنشر ،وما زالت نشيطة تعمل ، وصلتها بمكتبنا وثيقة جدا .

وكذلك فعلت الحكومة السورية ، واكثر منشوراتها علمية قيمة، ومثلها سلكت حكومة الكويت ، لكن اكثر منشوراتها ادبية .

ولم يظهر في الجزيرة العربية كلها ، ولا في الشمال العربي الافريقي حتى اليوم ما يشبه هذه الهيئات ، كل ما هنالك اعمال فردية او حكومية تنشر اعمالها من دون تخطيط ثم تضمحل .

وأراني اقف احتراما واجلالا لعمل المجامع اللغوية الثلاثة :مجمع القاهرة ومجمع دمشق ومجمع بغداد ، وللجامعات العربية وبخاصة منها جامعة دمشق التى باشرت تدريسها بعيد الحرب الكونية الاولى باللغة العربية ، وما زالت مستمرة على ذلك حتى اليوم ، وترك كبار اساتذتها اثارا علمية جديرة بالتقدير ، نذكر منهم : القنواتي والخياط وخاطر والكواكبي والقباني وحسني سبح ، وهو الان رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق ، ومع انه قد بلغ من العمر ما ينبغي لمثله ان يستريح فيه ، لكنه ما زال دائبا على التاليف والترجمة ، واخر اثر له : نقد وتصحيح لمعجم كلير فيل الطبي الفرنسي .

واذا كنا نقدر المجامع اللغوية والجامعات العربية اجمالا ، فيجب الا ننسى عمل المؤتمرات العلمية المتمادية منذ نحو ثلثقرن ، كالمؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والقانونية والاقتصادية والمالية .. وسواها . تتناوب اجتماعاتها في مختلف العواصم العربية وبشهد كل عام عددا منها تسجل اعماله في ضبوطها ، ويفيد منه العلماء والمتخصصون بعد ذلك . ونحن في مكتبنا افدنا منتائج هذه المؤتمرات وصححنا كثيرا من المفاهيم والترجمات على ضوء بحوثها ومناقشاتها وتقاريرها وتوصياتها .

وتمخضت الحرب العالمية الثانية عن احداث جسام ، هزت العالم العربي هزا عنيفا ، ودست في جنبه خنجرا مسموما هو ما يطلقون عليه اسم اسرائيل وتبلبلت الافكار وولدت احزاب متعددة تحمل مبادىء متباينة تتفاوت ما بين اقصى اليمين الى اقصىاليسار،

وظهرت في الشرق الادنى على اثر ذلك ، كتب يسارية بعضها معتدل وبعضها متطرف ، وترجمت جميع اثار ماركس وهيغل ولينين وماو .. تؤيدها وتساعد على نشرها دولة شرقية كبيرة ..

وظهر مقابلها في لبنان وفي مصر كتب يمينية عليها مسحة ادبية ما بين قصص ومسرحيات وتاريخ شخصيات وشعر .. تؤيدها وتنشرها هيئة موكلة عن حكومة غربية كبيرة كذلك ..

وتصارعت الاراء وتشوش الفكر العربي وتحير الجيل الناشيء كيف يقرأ ؟ ولمن يقرأ ؟ .. وتنبهت جامعة الدول العربية الى هذا الوضع الشاذ ، فانشات فيها مكتبا اسمته : « الادارة الثقافية » وكلفته بدرس النشاط الفكري العربي وتوجيهه توجيها عروبيا حسنا ما امكن.

وما زالت الفكرة تتطور تطورا مستمرا حتى خلقت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وضمت اليها : الادارة الثقافية ، ومكتب تنسيق التعريب ، وجهاز محو الامية ، ومعهد الابحاث والدراسات العربية ومعهد المخطوطات .. واخذت تعقد الاجتماع تلو الاجتماع لبحث موضوعات فكرية وعروبية شتى ، وتضع تقاريرها وتقدم توصياتها .

ولما عقدت حلقة الترجمة في الكويت اواخر العام الفائت ، نوقشت حركة الترجمة مناقشة صريحة جدا ، وتقدم كثير من ممثلي الحكومات العربية بآراء قيمة ، ولكنها جميعا لم تنظر الى ترجمة المصطلحات العلمية ، التي هي اساس التطور المعاصر ، وكانها تركت الامر لمكتب تنسيق التعريب المتخصص الوحيد في الوطن العربي بهذا الموضوع . والمكتب وحده لا يستطيع عمل شيء اذا لم يقف العلماء العرب الى جانبه يمدونه بالعون . والمساعدة التي نتطلبها تتلخص فيما يلي :

١ – ان تتكون في كل قطر عربي كتلة من العلماء والاساتذة الجامعيين يتابعون التطور العلمي ويمدوننا بما استحدث من مصطلحات جديدة بأي لغة ، وبما يقترحون لها من ترجمة ملائمة .

٢ – ونحن نتلقى من كل قطر ما يبعث به ، وننسقه مع ما يأتي من الاقطار الاخرى ، ونضع فيه مشروع معجم ننشره على العلماء لنتلقى اراءهم فيه نقدا واصلاحا ونسجل ذلك كله ، وننقح مشروعنا بالقدر المستطاع ، ثم نعقد ندوة من كبار المتخصصين من كل قطر لدراسته ، حتى اذا اشبعوه بحثا وتحقيقا وتصحيحا ، اعدنا تنسيقه من جديد ، وعرضناه على المؤتمر العربي الكبير ليكتسب شرعيته .

٣ – وبعد موافقة المؤتمر عليه ، يصبح معجما شرعيا ، نطبعه طبعا انيقا صحيحا ونقدمه الى العالم العربي لتطبق مصطلحاته الموحدة في جميع الاقطار على السواء .

لكن هل انتهت مهمتنا عند هذا الحد ؟ كلا ، لان العلوم في تطور مستمر ، ويدخل عليها في كل يوم نحو خمسين مصطلحا ، فعلينا متابعة هذا التطور وملاحقة ما يستجد يوميا وتسجيله واعادة البحث فيه وتوحيد ترجمته باستمرار وادخاله في المعجم الجديد بالطريقة نفسها التي صنع بها المعجم المتقدم .

تلك هي احدى الصعاب التي تعانيها ترجمة المصطلحات العلمية ، وهي عقبة يسهل تجاوزها بالدأب والايمان . وهناك عقبات اخرى كثيرة نسرد بعضها فيما يلي :

١ – لا شك ان كثيرا من العلوم المعاصرة لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا ، بل حتى الامم المتمدنة الحديثة لم تكن تعرفها قبل ولادتها ، ومع كل علم مصطلحات جديدة ، فكيف نضع لها مقابلاتها ، وليس في معاجمنا لها شبيه ؟ من اين نأتي بالراديو والتلفزيون والهيغرومتر والجيوفيزيا والجيومورفولوجيا والبتروغرافيا والستراتيغراف ... وما ماثلها ، وهي تعد بمئات الالاف ، ولم يكن احد في الكون يعرفها قبل خلقها في العصر الحاضر ، واحرى الا يعرفها العرب ، والا توجد في معاجمنا حتما .

هناك طريقتان رئيسيتان نتبعهما دائما في صياغة المعاجم ، احداهما الترجمة والثانية التعريب . فاذا لم نوفق بالترجمة الصحيحة الى مصطلح من كلمة واحدة ، وضعنا اثنتين ، اما بطريق الاضافة كقولنا لكلمة amenophilous هوائي التلقيح ، او بطريق الوصف كقولنا لكلمة amenophilous ساق شاذة . وحين نعجز عن الترجمة الصحيحة نعربه تعريبا ، وهو بان نقربه من وزن صرفي معروف فنقول للتلفزيون مثلا «تلفاز» على وزن فعلال ولكلمة machine مكينة على وزن فعيله ، ونشتق منها بعد ذلك ما نشاء فنقول : تلفز يتلفز متلفز متلفز .. .. الخ . واذا عسر علينا وضعه في وزن صرفي اخذناه كما هو فقلنا : رادار radar وكروماتيد chromatid وكيوتن ... ثم نشتق منها ما يمكن ، فنقول مثلا من كيوتن : كوتن يكوتن مكوتن مكوتن cutinised ... واذا لم يسعفنا الاشتقاق ، عدنا الى الترجمة الجملية .

٢ – وقليلا ما نلجأ الى النحت فنقول : برمائي مثلا قياسا على ما قاله العرب : عبشمي من عبدشمس ، وحضرمي من حضرموت ، وعبدلي من عبدالله ، وحمدل من الحمد لله .. ولكنا نخشى ان نفتح الباب على مصراعيه فندخل علينا تراكيب مستثقلة نحن في غنى عن اختصارها بهذا النحت المستهجن ، ولا يدفعنا اليها الا حب التقليد والمحاكاة .

٣ – وتنشا امامنا صعوبة جديدة هي المترادفات . فاللغة العربية من اغنى لغات العالم بالمترادف – وان كنا لا نؤمن بالمترادف المطلق على اطلاقه – لكن كثرة هذا الترادف ، ان اغنى لغة الادب والشعر ، فقد يخلق في العلوم فوضى ويسبب بلبلة ، لان اهم ما ينبغي للعلم هو دقة التعبير ، بحيث اذا لفظنا المصطلح لا ينصرف الى سواه ، ولو بالتشبيه ، والمترادف لا دقة علمية فيه ، فكيف نقول في الالفاظ التالية مثلا :

Calamiduos : غلافي أم غمدي ؟
Chromosome deficirency : نقص صبغي ام قصر صبغي ؟
Curved : منحن أم مقوس ام ملتو ام معوج ؟
Dormante stage : طور السكون ام طور السبات ام النعاس ام النوم ام الرقاد ؟
Energy Liberation : تحرير الطاقة أم اطلاق الطاقة ؟
Early flowter : زهرة مبكار ام بكور ام معجال ام عجول أم متبادرة أم بادرة ؟
Paleobotany : علم الحفريات النباتية ام الاحافير ام المتحجرات ام علم الاحاثة ؟
Herbivor : نباتي أم عاشب ؟
Fragile : هش ام قصف ام كسور ام عطوب ام هشوم ؟ وماذا نعطي لكلمتي :
Ecrasable - Cassant
Frogment : كسرة ام فتيتة ام قطعة ام جزء ام شظية ؟
Hibernation : بيات شتوي ام خمود ام رقاد ام سبات ام نوم ؟

ومثل ذلك كثير جدا وانما مثلت بهذا العدد القليل لتقريب الفكرة ، على اننا قد نفيد احيانا من بعض المترادفات ، وبخاصة اذا كانت تشير الى وصف معين ، فنحددها تحديدا استعماليا جديدا يضعها في مكانها من التعامل العلمي ، وبهذا نحاول التفريق بين : السيولة والميوعة . اللدونة والليونة والمرونة . السد والسد . الافراز والابراز والاخراج . العمومي والعام ..الخ ، ومثل هذا عدد وفير ، لكن من هو صاحب الحق الشرعي في ضع ذلك كله وتحديده ؟

٤ ــ ومشكلة الوحدات والمقاييس والرموز والارقام الحسابية والجبرية لم تحل بعد .

كان اجدادنا يعرفون القمحة والدرهم للوزن الخفيف الثمين كالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويعرفون الاوقية والرطل والقنطار للوزن الثقيل ، ويعرفون الذراع والباع والمرحلة والميل للاطوال والمسافات ، ويعرفون الصاع والمد والغرارة للكيل .. لكن كل هذه الوحدات والمقاييس غير دقيقة ، فما وزن القمحة مثلا، وما عرض الشعرة وكم هي الاوقية والرطل ؟ وما طول الذراع والميل ؟ وما الفرق بين الذراع الهاشمي والذراع العادي ؟.. الخ.

كان كل بلد يستخدم مقياسا خاصا به ، فالرطل في مصر مثلا صغير جدا اذا قيس برطل الشام الذي يزن ٨٠٠ درهم او رطل حلب الذي يزن ١٠٠٠ درهم . وتنسحب هذه الفوضى على كل مقاييسنا القديمة، فلما حل المقياس المتري محلها وانتشر في البلاد العربية المتقدمة ، تقاربت المفاهيم ، لكن ما زالت هناك وحدات ومقاييس اخرى سواها ، ان لم تبلغ الالاف فهي حتما بضع مئات ،كيف نحل مشكلتها؟ كوحدات الوقت والزمن والسرعة والشدة والشغل والعزم والتردد والمقاومة والكثافة وطول الموجة والانحراف والاحتكاك واللزوجة والصوت والاضاءة والالكترون والكهرباء .. فهذه كلها كيف نترجمها ؟.

٥ ــ ومشكلة الرموز الكيماوية والرياضية والفيزيائية والكهربائية والالكترونية وما شابهها كيف نجد طريقا لحلها .

٦ ــ واذا انتهينا من مشاكل الترجمة والتعريب ، نجد انفسنا في موقف اخر تجابهنا فيه المطبعة بالحرف المشكول والحرف العاري والحرف الراكب والحرف المسطح .. ومشاكل طباعية كثيرة بحثتها الندوة التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اواخر عام ١٩٧١ وانتهت منها الى توصيات نرجو لها حسن التطبيق لان الحرف هو الوسيلة التي تتشكل بها الكلمات للتفاهم بين الناس، فاذا كانت هناك صعاب طباعية قائمة ، تلكأ الحديث المتبادل ما بين العالم والمتعلم ، وتباطأ التفاهم وعسرت الاستفادة والافادة وخدمة الفكر .

٧ ــ يقولون : ان في اللغات الاوروبية سوابق ثابتة على الكلمة، ولواحق قارة تساعد على التصريف وتقليب المعاني .. وليس في العربية ما يشبهها ، ولذلك لا يمكن ان تكون وسيلة سهلة للعلم . ونسي هؤلاء الشعوبيون او تناسوا ان لكل لغة عبقريتها الخاصة في الصياغة والتصريف وابتداع الصور المختلفة للمعاني المتباينة واذا لم يكن للعربية هذه السوابق واللواحق فلديها مئات الاساليب الاشتقاقية مما يفتقر اليه سواها . وما قول هؤلاء الشعوبيين باللغات التي كانت ميتة فأحياها اهلها في برهة عقدين من السنين او ثلاثة ، وهي الان تتعامل اداريا وتدرس كل العلوم بلغتها القومية كالفيتنامية والكورية والعبرانية .. فهل تكون العربية اقل منها ؟.

واذا كانت هيئة الامم قد اعترفت بالعربية لغة خامسة في التعامل الدولي ، أفنكون اقل حماسة للغتنا من الغريب ؟.

٨ ــ تلك هي اهم مشاكل الترجمة تناولتها من الداخل ، واخرت عن عمد المشكلة الخارجية الكبرى لاركز عليها .

نحن نعمل ونجد ونترجم ونضع المعاجم ونوزعها على العالم العربي بقصد استخدامها والافادة منها ، فاذا بقي التعليم بلغة اجنبية، وبقيت الادارات تمارس اتصالاتها وانظمتها بلغة غير لغة الشعب، فما هي الفائدة من كل هذا العمل ؟ ولماذا اجتمعنا نحن هنا ؟الاجل ان ننظر في ترجمة شكسبير ودانته وغوته ولودفيغ وريلكه ولامارتين وكافكا .. ؟ دعوا الادب يسير في طريقه وحده فهو كفيل بالنهوض على قدميه من دون هذا التدخل ، ولنركز على الترجمة العلمية ،لننقل ما وصل اليه الغرب من علوم بها طغى علينا وحطمنا واستعمرنا، تعالوا نستعمل سلاحه نفسه لكي نعرف كيف نداقع عن انفسنا ونحمي كياننا ونلطلق مع الحضارة الحديثة بكل كيانها . الشعوب الزراعية دائما في الدرجة الثانية ، والشعوب الصناعية دائما في الدرجة الاولى ،ان الشعب الذي لا يعرف كيف يدير الالة ويسخر الكهرباء ويطوع الالكترون ، يقف عاجزا امام التقدم الحضاري ويستعير مظاهر المدنية استعارة ... شعب مقضي عليه بالجمود والتأخر .

ولا يعيبنا ان نأخذ العلم عن سوانا مهما كان شأنه ، نستفيد من الصديق والعدو ، ونسعى الى مبتكرات العلم في اقاصي الارض، او لم يأخذ الغرب عنا علومه وفلسفته حينما هم بالنهوض ؟. هم انفسهم قالوا بأن حضارتهم الحديثة مدينة للعرب . اسمعوا اقوال عظمائهم :

قال جورج سارتون مؤلف ((تاريخ العالم)) :((كان العرب اعظم معلمين في العالم ، زادوا على العلوم التي نقلوها عن غيرهم ، ولولا عملهم لتأخر سير المدنية قرونا عديدة)) .

وقال نيكلسون : ((ما المكتشفات اليوم بمحسوبة شيئا مذكورا ازاء ما نحن مدينون به للعرب الرواد الذين كانوا مشعلا وضاء ابان القرون الوسطى المظلمة في اوروبا)) .

وقال اكثر مؤرخي العلم من الاجانب : ((ان الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب في كل فرع من فروع المعرفة وانه كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والبيروني والكندي وامثالهم لكي يتسنى ظهور جاليلو وكيلو وكوبرنيق . وانه لولا اعمال العرب ، لاضطر علماء النهضة الاوروبية للبدء من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير المدنية عدة قرون)) .

وكذلك قال كليردوفو وسيد يوولز ونيو برجر ولكلرك مؤرخ الطب العربي وجرمان وبراترام وهومبولد وبيتر باخمان وغوستاف لوبون ... وكثير غيرهم .

قال عبدالحليم المنتصر رئيس اتحاد الجمعيات العلمية في العالم العربي تعليقا على ذلك : اذكر انني شاهدت في سقف مكتبة الكونكرس الامريكية ، منقوشا بماء الذهب : ان مصر هي الينبوع الاول للحضارات جميعا ، وان العصر العربي الاسلامي هو الينبوع الاول للعلوم الطبيعية فشعرت بالزهو ان اكون سليل هاتين الحضارتين ووريث هاتين الثقافتين .

وانا نفسي جمعت من المعجم الفرنسي وحده بضعة الاف كلمة عربيه ، أخذوا بعضها من اللغة الفصحى كالامبيق والغول والالفباء والابجدية والبرقوق والتكويم والطبيب ودار الصناعة .. واخذوا بعضه الاخر من العامية السائدة كالافندي والاغا والعيش وكلمة بزاف المغربية (وهي بمعنى كثير) . وتصرفوا ببعض الاسماء المشهورة تصرفا ليس فيه ذوق فقالوا افسين لابن سينا ، وافروس لابن رشد ،وسلادان لصلاح الدين . وابدل لعبدالله ، بينما حافظ العرب قديما على النطق الاصيل في الترجمة فقالوا : ارثماطيقا وفزيقا وجيومطريقا .

ونحن في هذا العصر نقول : بتروغرافيا وستراتيغرافيا وتونا .. واذا لم يكن لبعض الحروف الاجنبية مقابل عربي مثل V.G.P. فانا نقربها بقدر الامكان من حرف شبيه ، ولهذا عدل عن اليصابات الى اليزابيت مثلا . وقد وضع المجمع اللغوي بعض القواعد لذلك ، نرجو ان تنتشر وتطبق . ولغتنا كريمة معطاءة تساعدنا على الترجمة الدقيقة ، والشعب الذي لا يستخدم لغته القومية في التعليم وفي الادارة ، شعب مستعبد ثقافيا لسواه ، وشهامتنا العربية تأبى لنا مذلة الجهل ، وديننا يأمرنا بالعلم وبالعمل :((هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعلمون)) ؟ والارض يرثها عباد الله الصالحون لاعمارها والحياة فيها . ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم)) .

د . انطوان المقدسي

التعريب في دلالته التاريخية
من الترجمة الى التعريب

مقاربة اولى

لو بعث صاحب القاموس المحيط حيا لوجد ما يضيفه الى تعريفه للتعريب عندما يقول : « هو تهذيب النطق من اللحن » .

ومع ذلك فقد اوجز المشكلة . اذ ان التهذيب ليس ازالةالدخيل وحسب الاعراب مجرد التقيد بقواعد اللغة . وانما الاول هو استعادة الايقاع العربي بالتربية ، والثاني ، الافصاح والابانة ، كما يقول صاحب القاموس ايضا والايقاع والبيان سمتان متلازمتان الى حد الاندماج، اذ ان الموجود حركاته وسكناته ، وهذه ترتسم امام الوعي صورة عندما يقولها القائل وبنسبة احكام القول .

وتلك خصائص النطق الصحيح انه يؤلف ، الفسحة اللسانية حيث يمكن للقول ان يكافيءالموجود، وعندما يشف هذا عن ابعاده فهو تجلـي .

انها حقائق اوجزها صاحب القاموس ، بالاحرى دل عليها ، واقتصر على الدلالة اذ لم تكن المشكلة ، يومها ، اشكالا يبلغ حد الاحراج (الطريق المسدودة في لغة الفلسفة) كما هي عليه الحال اليوم .

لسنوات قليلة خلت ، لم تكن كذلك ، فشوقي ومطران ،الرافعي والبشري ورثة المتنبي والبحتري والجاحظ ، وابن المقفع وهؤلاءبدورهم ورثة الجاهليين .. وكلهم كل منهم بنسبة عبقريته ، من اركان اللسان المبين ، صاغهم وصاغوه فوصل الينا تراثا حيا وكأنه من الازل الى الابد .

فماذا جرى حتى تبدل الوضع ، اكاد اقول بين عشية وضحاها، وفقد القول العربي ايجازه الممتنع ، فالايقاع اصوات تسعى لاهثة الى دلالة عصية حتى ليخيل الى السامع او القاريء ان اللفظ جسد فقد روحه ، والنص سيل من العبارات ، مرصوف بعضها الى جانب البعض الاخر في سلسلة تعرجات بضيع في متاهتها الكاتب والقاريء ، الكاتب قبل القاريء ؟

لسنوات قليلة خلت ، كان الاصل ما يزال حاضرا ، ، فلنا نموذج هو التراث ، اعلامه ، آياته ، معاجمه ، تراث ، مرجع نحتكم اليه وله القول الفصل . والعربية بهذا ، انه في نظر اربابها ، متضمنة شروط وجودها ، تساير خطها ، فانت الى الاصالة ، وتحيد عنه فانت الى الهجانة .

وعلى فجاة ها هو الماضي - القريب منه والبعيد - يبدو ماضيا، له طريقه ولنا طريق اخرى . فكل خطوة الى الامام تباعد بيننا وبينه حضـوات .

انها قطيعة تصيبنا في الصميم من شخصيتنا وتستدعي العروبه ردا لا رد سـواه .

وهذه ، حيانها وتوانها ،فعل التعريب الذي ينشئها .

تما هو هذا الفعل ؟ وما هو على الضبط ، الاشكال الذي يدل عليه ؟ والمسالة بعد ليست جديدة . لقد جابهها اجدادنا يوم امتد الفتح ، واجهـوا ، ثقافات العالم ، تمثلوا منها ما تمثلوا وحاوروا ما حاوروا ، تبنوا ما تبنوا واسقطوا ما اسقطوا .

واختيارانهم هذه كونت في تاريخ الفكر منعطفا حاسما ما يزال حتى اليوم من مقومات هذا الفكر . فهل بوسعنا ان نعثر على المقياس الذي اعتمدوا عسى ان يسعفنا ، ونحن اليوم نواجه مثلما واجهوا واكثر ؟ هل بوسعنا ان نكتشف الخط الذي هداهم فنرسم لذواتنا خطا غير الذي رسموا واياه في الوقت ذاته ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بالامر السهل ، اذ ان الموضوع لم يدرس بعد ، وان درس فمن منظور اجنبي يسعفنا مرة ويضللنامرات.

والمنظور هنا وفي كل دراسة اخرى اساس . لان العلم ، وان كان موضوعيا فهو من موقع اليه يرتد .

والمطلوب منا ، نحن عرب اليوم ، بناء الموقع العربي ، ذلك الذي ننطلق منه نحو حوار جدي ومنتج مع تراثنا من جهة ، ومع التراث الاجنبي من جهة اخرى .

اقول مسبقا اني لا ادعي الجواب ، وانما شق بعض من الطريق التي تؤدي اليه .

على اية حال فان الجواب - اي جواب - يفترض مسبقا ،تعريف التعريب . فمرة اخرى اسائل : ما التعريب ؟

نحو .... اللسان

التعريب فعل .

والفعل انشاء ،

فماذا وكيف ينشيء ؟

لنلاحظ ، بادىء ذي بدء ، ان ايجاد المصطلحات الفنية - التقنية الذي هو اليوم ، الشغل الشاغل عندنا للاخصائيين وللدوائرالمختصة، ليس ، على اهميته ، الا مقاربة اولى من المشكلة تكاد تكون جزئية هامشية بالقياس الى المشروع المقبل الذي تدل عليه كلمة عروبة ، والذي هو استعادة شخصيتنا التاريخية والثقافية .

اقول : مشكلة جزئية وهامشية لان المصطلح هنا محض اصطلاح

(مـا تواضع عليه الناس) فهـو حيادي . وبتعبيـر ادق هو رمز لا يحيـل الا الى ذاته،وبهذا يمتص الدلالة ويتلاشاها ، فسيان استخدمنا لادائه هذه الكلمـة او تلك . وبوسعنـا بالتالي ان نقتفي اثراجدادنا عندمـا شرعوا في الترجمة فقد استعملوا ،في مرحلة اولى الكلمـة الاجنبيـة بمنطوقهـا الحرفي تقريبا . وفي المراحل التاليـة نحتوا او اشتقـوا الكلمـة الاقرب الى عبقرية لغتنا .

وانمـا تبدأ الصعوبات عند مواجهة النص .

القصد المكتوب (ما كتب) من حيث انه تعريف ، يؤلف كلا بجيله، سيـان كان هـذا الكل علما ام فكرا ام ادبا ام اي موجود اخر خضع لمستلزمـات الكتابـة .

اذ مـع النص تتعدد الدلالات ، فالاحالة الكلية احالات : الـى الاشياء الى الموضوعات (مـا وضع) ،الى ذاتها من حيث هي تواصـل يستدعي الاخر ، كمـا ان الرموز والكلمـات والعبارات تحيل بعضهـا الـى البعض الاخـر .

والنص على مستويات هي التي تجعلنـا نلمس مواطـن الصعوبـة عنـد النقل من لغـة الى غيرها .

اولا اللغه بحصر المعنى حيث النص بنيه ، اي لمـا يقـول تشومسكي « تيـان من البنيات الداليه » او جمله علائقيه كمـا يقول اربـاب علم اللغـه المحدثون ، او تنتقل مجموعـة رموز اصطلاحيـه وبالتالـي حياديه ، فاذا رد النص الى هذا القاسم الصوتي المشترك بين كافـه لغات العالم ، كان بالامكـان تطبيق قواعد الترجمة الاليه عليه ، او بقول اعم ، وضع ترجمـة تحاذي الاصل وتكافئه فهـي ترجمة موضوعيه او علميه ، وهي التي دفعت بعض علمـاء اللغـه في عصرنا اذ اصبح التواصل بيـن الثقافات والوحدات الثقافية امرا ضروريـا، الى وضع علم للترجمـة ، له من الدقة ما لبقية العلوم (١) .

ودفع بالمقابل غيرهم الى اناطـة امـر ترجمـه الشعر بالشعـراء والمسرح بالمسرحيين الخ . وبهذا المعنى يقول ادمون كاري : « الترجمة الادبيـة ليست عمليـة لغويـة وانما ادبية » (٢) .

والمستوى الثاني هـو حيث اللغـة جملة قواعدية ، والنص بنيان وظائفي ومعه يبدأ صراع فعل الترجمة ومفعوله .

ذلك ان قواعد التصريف التي تعين حركية الكلمة وحركتها فـي النص وقواعد الاعراب التي تعيـن درجـة فعاليتها ونوعها ، تشيـر بتموضعهـا على هذا المحور او ذاك الـى نمط انفتاح لغـة ما علـى الموجودات . وهذا المنحى هو الذي عناه همبولت عندمـا قال عن القواعد اللغويـة انهـا « منظومـات لا يمكـن ان ينفذ بعضهـا الى البعض الاخـر » (٣) .

منحى دفعه هو وبعض الكنطيين الجدد في النصف الثاني من القرن التاسـع عشر الى اقصى حدوده ، عندمـا اعتبروا اللغات ،كل منهـا بمثابة رؤيـا للعالم مستقلـة كليـا عـن الاخرى ، ولا يمكـن بالتالي ان تؤدي رؤيـا في لغـة اخرى فالترجمة ممتنعة . (٤) .

ومع ذلك فهذا امر واقع في كافة الازمنة والامكنة .

ولكنها تصبح ، عمليا ، في هذا المستوى والذي يليه ، نقـلا موضوعيا وفي الوقت ذاته ، استعادة او قراءة وتفسيرا ، والقراءة ـ والترجمـة من فصيلتهـا لحد بعيد ـ مهمـا كانت دقيقة وموضوعية ، تبديل في المنظور ، حتى لكـأن القاريء يكتب نصا هـو غيـر الاصل وايـاه .

مثال ذلك والمثال صارخ وان كنا لم نتنبه اليه وهو ،

ان علم الوجود (انطولوجيا) الذي يلخص الفلسفة كلها ، قـد انبثق ـ اكاد اقول برمته ـ من تأملات افلاطون وارسطو ـ هذا اكثـر من ذلك ـ في الفعل الذي يربط بيـن الموضوع والمحمول وهو فعـل الوجود في اللغتيـن الاغريقية واللاتينية وفي كافة اللغات الغربيـة الحديثـة (٥) .

فاذا لاحظنا ان هذا الرابط في العربية ليس فعلا بل في ضمير الغائب (هو) ندرك الجهد الشاق الذي بذله مترجمونا ، والارباك الذي وقعـوا فيه ، عندمـا نقلوا (ميتافيزيقا) ارسطـو الى لغتنا. وندرك في الوقت ذاته واحدة من نقاط الخلاف الاساسية بين الفلسفة الاغريقيـه والفلسفة العربية . فهذه وان كانت قـد وضعت في اطـار تلك (ارسطـو وافلوطين في الواقع) فانهـا غيرها . وربمـا ـ وهذا هو الارجح ـ ان ما وراء ـ الطبيعه بالمعنى الحديث للكلمة قـد نشـأ يـومهـا . (٦)

المستـوى الثالث

والتواصل ، هو ايضـا كالترجمة امر واقع .

فالرؤيـا ليست صورة عـن العالم وحسب ، بل هي ايضا دلالة ـ دلالات في دلالة ـ وهذه ، حيث يتعرف الانسان الـى الانسان ، يسأله يستمع اليه ، يجيبه ، يتحدثان ويتجاوبان .

بقول ادق : اللغة منظور وموقف وموقع .فالمنظور (مـن نظـر) هـو كيف يمفصل الانسان الموجودات ، ويقطعهـا تبعـا لمفاصلها ، والموقف هو نمط تفاعله معها ،والموقع حيث يقع منها ويراها ويستدعيها اليـه وتستدعيه اليها .

تلك هي ، بقول اخر الامة : فسحة حضور ولقاء .

وهذا معنى ربطنا ، نحن العرب، بين اللغة والامة ، اذ في اللغة ينفـرد الانسان وفي الوقت ذاته يتانسن . وكلمـا ترسخت جذورنـا في موقعنـا كلمـا تعرفنا الى انسانية الانسان فينا وفي كافة البشر .

وهذا مـا عناه اسبينوزا ، في جملة ما عناه ، عندما قال عبارته المعروفـة : اذ يزداد الانســـان علمـا بالفرديات ، يزداد علمـا بالكليـات .(٧)

ان لغة علمـاء اللغـة هي القاعدة التحتيـة للغـة بمعناها الاشمل والاوسـع فهذه بالدرجـة الاولى ، لسان ، واللسان هـو حيث يفجر القول الجملة العلائقيـة المغلقـة لتنفتح فتصبح صلة وتواصلا .

والعبارة هي حيث تبلـغ اللغـة كمالها ، فهي ـ كمـا في الايات والحكم العربية قول ، اقصد ما يفصل بيـن الخطأ والصواب ،وبيان، اقصد حيث يحاذي الكلم معنـاه .

والقول ،في لغـة المحدثين ،نص : ما نص عليه اذ يشف عن كافة ابعـاده وبالتالي يحفظ في الذاكرة او يسجل على الورق . وعندهـا يصبح فسحـة انسانية ، في الوقت ذاته خاصة وكلية : خاصـة لانها تنتمي الى وحدة ثقافية ـ تاريخية محددة هي الفسحة الاوسع او الامة، من موقعها ينطلق القول واليهـا يرتد ، كليـه لانهـا رسـالـة : مـا يرسله انسان الى انسان ، فالقول قابل للنقل الى كافه لغـات الانسان.

والنص هو الحدث الكلامي الاساسي .

جائز ككافه الاحداث ، يمكن ان يكون او لا يكون ،

وفي الوقت ذاته ضروري ، اذ عندمـا يوضع ، يصبح ملزما ـ يلزمك فـي حالتي الرفض والقبول ، الزامه بنسبـة ابداعيتـــه او شعريته او قدرته على الابانة .

ان مفارقة النص الاولى هذه توضحها الثانية ، وهي كونه يجمع بين الحرية والعقل ، كل منهمـا لا ينفصل عن الاخر ، فهو يحـرر الانسان من الاطر الجاهزة والبنى المستهلكـة وبوصفه عملا معقولا يشده الى الاخر . اذ العقل هـو الذي يعـد البنى الاوسع حيث تنتظـم الجماعـة وتنفتح على غيرها من الجماعات الانسانيـة .

تلي الثالثة وهي الاشمل . فالنص يستدعي الماضي يجعل منـه حضورا يستحيل باستمرار مستقبلا ، وهكذا تتوالى اجيال الامـــة متضامنة في المصير . فعندمـا نقول : « العرب امه واحدة » نستعيد الوحدة الاولى ، نجعل منهـا افق المستقبل ،ونلزم ابناءنا بها .وكذلك عندما جعل اجدادنـا من البيـان السمة المميزة للقول العربي فقـد الزمونـا بخط القول العربي في الادب كمـا في السياسة ،في الفكر

كما في اية ممارسة اخرى : فالابيان ليس في دنيا العرب .

وتلك قدرة القول : انه مبدع توجود غير الاول واياه ، وبهذه القدرة بها وحدها سحقق وحده الوجود التاريخي الذي هو الامة.

وتتبدى قدرة القول هذه ، اكثر ما تتبدى في الكلم العظيم ، كلم الشاعر والمفكر كما شدد عليه هيدجر (٨) ، كل منهما يستجيب للاخر ، فالشعر يستحيل فكرا والفكر شعرا ، وكلاهما ابداع للوجود .

والكلمة بعد ايا كانت ، كما يلاحظ بول ريكور (٩) موقعها من العبارات موقع المبادل اذ هي حيث يحصل الانتقال من المنظومه المغلقه الى الفعل الذي يشق الطريق من البنية الى الحدث ، واضيف في الخط ذاته : من الصرف الذي هو اقرب لطبيعة المنظومة الى النحو الذي هو الطريق الى اللسان ، او « نحو .. اللغة » كما يكتب الفيروزابادي (١٠) .

اضف ـ وهذا من خصائص لغتنا ـ ان الكلمة العربية ، بحكم اشتقاقها في اغلب الحالات من المصدر ، فعالة اكثر مما هي عليه في بقية اللغات ، تركز النص حول محاور ، كل منها تستقطبه تشده اليها ، فيبدو وكانه منظومة من الوظائف اللامركزية ان صح التعبير ، وظائف ناظمها يتباعد عنها كلما اقتربت منه (١١) .

وتتكشف هذه المحاور في عدد قليل من الكلم ، كل منها قمه من قمم فكرنا ودنيا من الدلالات تشير الى حيث ينجه لساننا من الاصل والى ما لا نهاية له . انها ايضا حيث تبلغ ابداعية اللسان ذروتها ، فهي امكانات الكلام الذي يلي ، امكانات هي لا ـ مقول التراث ، يتعين يصبح قولا فيكل مرحلة تاريخيه يشقها الانسان العربي اذ يقول مصيره فيحدده .

في هذا المستوى تستحيل الترجمة تعريبا .

ترجمة هي تعريب :

فعندما ترجم اجدادنا (اوسيا) الاغريقية بجوهر وموجود و (نيس) بطبيعة (ونوس) بعقل (وايدوس) بمثال (وارخة) بمبدأ وغيرها بما اعتقدوا انه يقابلها ، ونحتوا كلمات اخرى مقاربة لهذه مثل هوية وماهية ، لا مقابل لها في لغة الاغريق ، اقله في المرحلة الافلاطونية ـ الارسطاطالية لم ينقلوا ، لم يترجموا ، بل عربوا اي شقوا الطريق الى خط فكري غير الاغريقي ، وان كان ينطلق منه (١٢) .

فالترجمة بعد من ابعاد التعريب .

او هي بقول ادق ، وجه من اوجه فعل اشمل هو الذي يكون التراثات .

الواقع ان هذه الكلمات وغيرها مما يشبهها ـ وقد حاولت ايرادها بمنطوقها لا تؤدى بأي من اللغات الاغريقية . اذ انها بوصفها كلمات الاصل ، اقصد انبثاق الوجود تعبيرا ـ متعددة الدلالات ، متنوعة الافاق ، فالتعريب (او النقل الى اية لغة)اقتطاع وقطيعة بمعنى انه يأخذ واحدة من الدلالات (او عددا محدودا منها) ويسقط الباقي . ولكنه بالمقابل ، اذ ينقل الكلمة من منظور الى اخر . يجعل منها فسحة جديدة قابلة لان تتلقى دلالات مبتكرة .

الكلمة ـ اقول ايضا ـ اللهم اذا كانت اساسية ـ مكثف لتاريخ. فاذا نقلت استحالت تاريخا ثالثا قدرته الاجرائية متناسبة مع اصالة التأليف .

مثال ذلك

كلمة (ارخه)، فهيدجر يرى ان لها في لسان تلك المرحلة مدلولين: الاول ، من حيثان شيئا ما ينطلق وينبثق ، الثاني ، الينبوع من حيث انه يهيمن على كل ما يصدر عنه (١٣) . فاقرب كلمة عربية اليها هي كلمة (اصل) . فلم آثر المترجم العربي اداها بكلمة (مبدأ) التي تعني ما يبدأ به حيث يصبح ما بلي معقولا ، سواء كانت نقطة الابتداء موجودا متحققا او مبدأ مجردا كالسبب والمقولة فيما يرى ابن رشد؟(١٤)

ومن الجدير بالتشديد عليه ان المترجم اللاتيني حذا حذو المترجم العربي ، واقتفى اثرهما ، لا المترجم الى اللغات وحسب ، بل المعلق والشارح والناقد الادبي بحيث اصبحت كلمة مبدأ من مكونات كافة الكتابات الفكرية .(١٥) .

ليس الجواب على السؤال بالامر السهل . فالكلمات المستحدثة في العربية وفي اللاتينية ، واستنادا اليهما في كافة اللغات الحديثة ،هي بدورها ، ذات دلالات متعددة .

على سبيل المثال في العربية :

كلمة (نوس) الاغريقية التي كان يجب ان تؤدى بكلمة(بصيرة). اذ انها تشير عندهم الى الابصار والبصر ، في حين ان المترجم العربي اداها بكلمة عقل وفي عدة مدلولات تتأرجح بين حدين اقصيين: العقل بوصفه ربطا منطقيا بين المفاهيم ، والعقل بوصفه جوهرا مفارقا ، كما ورد في تعريفات الجرجاني ولدى غيره .

وايضا الطبيعة ،

فهي ، في المفهوم الاغريقي كما يرى هيدجر ، مرادفة ـ او تكاد لكلمة وجود تشير الى التفتح الذاتي والاحتواء (١٦) وهي بالتالي توحي وتدل اكثر مما تعين وتحدد ، اما في المفهوم العربي فتتعدد المعاني وتتداخل مؤذنه بانفعال الطبيعة واستقلالها كما لدى ابن رشد مثلا الذي ،اذ حاول ضبط معانيها بما امكن من الدقه ردها الى ما يلي :

١ ـ اضافه التغيرات الاربعة : الكون والفساد ، والنقلة ، والنمو والاستحالة .

٢ ـ صور مبدأ هذه الحركات .

٣ ـ الطبيعه الصانعه بمعنى القوة المدبرة .

٤ ـ الطبيعيمقابل النطقي (بوادر التمييزبين الطبيعة والثقافة).

٥ ـ اصناف الهيولي ، والاسطقسات التي يتركب منهاالشيء(١٧).

والامثلة لا نهاية لها ...

اخلص الى هذه النتيجة الهامه ، وهي اننا ، مع الترجمة العربية والترجمة اللاتينية التي افادت منها، ومع ما تلاهما منترجمات اخرى ، في مرحلة انتقالية تتوسط بين ما اسميه مرحلة الاصل ومرحلة العقل . في الاولى المفردات الاساسية شعرية زاخرة بالمعاني تستدعي الانسان اكثر مما تسعف عقله ، بينما تتحدد اكثر فاكثر في الثانية لتصبح نقدية ،اذ يعين العقل مدى صلاحية كل منها لمفصلة الواقع وفهمه .

كما يعلمنا مؤلف نقد العقل النظري .

اجل ، مرحلة انتقالية .

فالعلوم ـ الرياضية منها بخاصة ـ قد حققت تقدما كبيرا مع الخوارزمي والبيروني وغيرهما ، ومهدت التسبيل مع منهج ابن الهيثم وضوئياته لقيام الفيزياء الرياضية (غاليله) ونظرية المعرفة التي ستتكون في القرنين السابع عشر والثامن عشر(ديكارت ـ كنط).

ولكن من جهة ثانية فان الفكر لا يزال متارجحا بين نظرية المعرفة ذات المعالم الواضحة والانشاءات الميتافيزيقية الارسطاطالية ـ والافلوطينية وهذا بين في الوجز السريع الذي قدمته عن معاني كلمة واحدة ـ واحدة وحسب ـ عند ابن رشد . وبوسع القارىء ان يتأكد منه بمراجعة سريعة لخلاصة متأخرة ومحكمة كتعريفات الجرجاني مثلا .

فالعرب لم يقتصروا على حفظ التراث الاغريقي ونقله ـ سليما معافى الى اصحابه كما يزعم هؤلاء ، بل القوا بين الخطين الكبيرين فيتاريخ الفكر الانساني وهما الخط السامي ـ العربي من جهة والخط الاغريقي من جهة اخرى . وهذا التأليف هو الذي قامت عليه الثقافة منذ عصر النهضة الى المنعطف الذي يتكون اليوم مع الحداثة .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٤٩ ـ

محمد رشاد الحمزاوي

توحيد المصطلحات او وحدة الثقافة

ان وضع هذه القضيـة على بساط البحث يفترض اولا شعـور الاختصاصيين العرب من لغويـين وعلميين بأزمـة تتلخص فـي ان المصطلحات العربيـة الحديثة في شتى العلوم متنوعة متخالفة ، فيهـا من الاضطراب والتناقض ما يؤول الى الفوضى المعجمية التي يمكـن ان يكـون لهـا اثر على تنظيم علومنـا الناشئة وعلى بيداغوجيتنا المتعثرة ومنهـا على تفكيرنـا العلمي ان اخذنـا برأي فيه نظر يقول : « ان العلم لغـة محكمـة البنـاء » (١) .

والملاحظ ان شعورنا بالفوضى كثيرا مـا ينحصر في احساس عام بتلـك الفوضى استنادا الى تناقض بعض المصطلحات التي تأتي شاردة في مقالـة او اخرى . لا شك أن الدعوة الى التوحيد تبدو في ظاهرها وفي باطنهـا نزعـة علميـة مستحسنة هدفهـا الدقة العلمية وفصاحة التعبيـر وسحـر البيـان ووحدة التفكير والثقافـة في الامة الواحدة. ولا غرابـة ايضا فـي ان تكـون الدعوة الى التوحيـد مـوذة من الموذات الشكلية التي ترمي مـن دون ان تشعـر الى وضع قضايا خاطئـة اساسا فيهـا من البلبلة ما لا يمت الى قضية التوحيد بسبب.

انـا نعتبـر ان احسن وسيلة لمعالجـة المشكلـة تنحصر في وضع القضيـة في محيطهـا التاريخي واللغوي لنتمكـن من تحليل مظاهرها واسبابهـا ولندرك اهميتهـا كيفـا وكمـا ، وذلك مـا يساعدنـا على اقـرار وجود قضيـة تسمى قضيـة المصطلحات ، اذ انه لا يكفي ان تختلف المصطلحات عـن بعضهـا بعضا لنثبت ان الفوضى منفشيـة في معاجمنـا واستعمـالاتنا الحديثة فالتوحيـد ليس دائمـا ضروريـا ان كـان الهدف منه تجميـد اللغـة والعلوم بترجمة معينـة او بتسمية مفردة دون غيرهـا . فـان كـان ضرورة لاسبابـ يجب اقرارها فما عسى ان يكون التوحيد ؟ وما هي مناهجه ؟ وما هي غاياته ؟

وجوابا على ذلك رأينا من المفيـد ان نعالج القضية مـن خـلال عينة واضحـة تضبط رأينـا وتجنبنا الاحكام الاعتباطية لصالح التوحيد او ضده ، فلقـد استحسبنا ان نطبق منهجنا على كل ما كتب فـي مجمع اللغة العربيـة في هذا الشأن ، معتبريـن في ذلك العامـل الزمني الذي يساعدنـا على تتبـع تطورهـا عند المجمعيين . ولا شك أن هذه الطريقـة لا تدعـو الى الحصر والاستقصاء بقدر مـا تؤكـد على

(١) لقد قال ذلك الفيلسوف الفرنسي Condillac وهـو من الفلاسفـة العقلانيين الذين كانوا يقولون بانطباق المنطق على اللغة .

ارسـاء مبدأ مفاده ان الحكم في القضايا الهامة من هذا النوع مستحيل ما لـم يعتمـد النصوص وانـــه يصبح ضربا مـن ضروب التعسف الايديولوجيـة مـا لم يستند الى امثلة تطبيقية واضحة .

المحاولات الداعية الى التوحيد : وصف وتقييم

ان القضيـة قد طرحت بمجمع اللغـة منذ نشأته وطرقت فـي مقالات وبحوث عدة لن تهتم الا بمـا وضع منها المسألة وضعا صريحا. ولذلك فاننـا نعتبر ان البحوث التي عالجت قضيـة توحيد المصطلحات لا تتجاوز العشرة ، ان استثنينا مقالات الامير مصطفى الشهابـي المنشورة في كتبه المختلفـة ، فلقـد اشتـد الاهتمـام بـهـا خاصة من ١٩٥٥ الـى ١٩٦١ فيكـون المجمع قد خصص معدل مقالتيـن سنويـا للموضـوع . ولقد سبق له أن اهتم بالقضيـة في دورته الاولى . فهل يعني هذا ان حرصه الجديد على اثارتهـا دليل على ان القضيـة قـد تشعبت حتى اصبحت تنبيء بالخطر ؟ ذلك مـا لا يبدو بعيدا عن الواقع.

ان اول من نبه الى هذه القضيـة فـي المجمـع هـو المستشرق الايطالي نلينـو وذلـك في الجلسـة الحاديـة عشرة من الدورة الاولى للمجمع (٢) ولقد ايده في ذلك علي الجارم (٣) ممـا ادى بالمجمع الى اتخـاذ قراريـن في الموضوع (٤) .

١ ـ الاصطلاحات العلميـة والفنية يجب أن يقتصر فيهـا على اسم واحد خاص لكـل معنـى .

٢ ـ في شؤون الحياة العامة يختار اللفظ الخاص للمعنى الخاص، فاذا لـم يكـن هناك لفظ خاص اتـى بالعـام ويخصص بالـوصف او الاضافـة .

ولقد اردف المجمع القرارين السابقين بقرار ثالث يتعلق بالتعريب صدر فـي الجلسـة الثالثـة والثلاثيـن من الدورة الاولـى وهو ينص:

« ينطق بالاسم المعرب على الصورة التي نطق بها العرب »(٥).

ان هذه القرارات الثـلاثة الاولـى والاخيرة من نوعهـا تدل على ان المجمع قد تنبه الى القضيـة ، كما تدل على انهـا غير كافية لان القضيـة قد وضعت من جديد واعتنى بهـا مجمعيون مختلفـو الثقافة

(٢) مجمع اللغة : مجموعة القرارات العلمية

(٣) مجمع اللغة العربية : مجموعـة القرارات العلمية ، القاهرة ١٩٦٣ ص : ١٤١ .

(٤) مجمع اللغـة العربية : مجموعـة القرارات العلمية ص :١٤٢.

(٥) نفس المرجـع ص : ٨٥ .

يهمنا ان نعرف اراءهم فيها ولو ملخصه ، لعلنا نستخلص منها ملاحظات عامة للانطلاق بالقضية من جديد . فلقد رأى الشيخ رضا الشبيبي (٦) ان تعدد المصطلحات ناشىء عن المنافسة القائمة بين التركية والفارسية والعربية لا سيما في المصطلحات العسكرية ، ومصطلحات الاشغال والفنون والمدارس والمالية الخ ..

من ذلك ان مصر تستعمل« اليمباشي،والاومباشي ، وحكيمباشي، وباش مهندس وباش كاتب يقابلها في العراق الرئيس والملازم والعريف وكبير المهندسين وكبير الاطباء ورئيس الكتاب (٧) ويكتفي الشبيبي بالدعوة الى التوحيد تجنبا للاشتباه والالتباس .

اما الشيخ محمد الخضر حسين (٨) فانه اهتم بتوحيد المصطلحات الطبية معتمدا في ذلك مناهج العرب . فهو يدعو الى تجنب المصطلحات المشتركة ، منبها الى وجود ذلك بكثرة في المعاجم القديمة فيلاحظ « قالوا « الذرب » فساد الجرح وفساد المعدة والمرض الذي لا يبرأ » (٩) ويتجاوز المجمعي هذا المظهر الى اختلاف مؤلفين قديمين في مصطلحاتهما من ذلك ان ابن سينا يعتبر البرسامة والشوصة لفظين مترادفين وغيره يطلق الاسمين على مرضين مختلفين (١٠) .

ولقد كان توحيد مصطلحات الرتب العسكرية موضوع بحث الشيخ عبدالقادر المغربي (١١) منبها تقريبا الى ما نبه اليه رضا الشبيبي مؤكدا على معارضة الدوائر الرسمية المصرية لتعريب المصطلحات العسكرية على اساس ان المصطلحات العسكرية المختلفة رمز الى الادوار التاريخية التي مر بهاالجيش المصري (١٢) .

ولقد كان مصطفى الشهابي (١٣) اول من وضع القضية في اطار اوسع فارخ لكل المحاولات العربية الرسمية والفردية من١٩١٩ الى ١٩٥٣ ملاحظا ان الشعور بضرورة توحيد المصطلحات العلمية اصبح في البلاد العربية شعورا عاما . والاراء متضاربة في الوسائل التي يجب التوصل اليها لبلوغ هذه الغاية (١٤) ويعود الاضطراب حسبه الى الخلاف القائم في شأن الطرق العلمية من ذلك ان كلمة (Amibe) التي سماها النفاضة والمتمورة ، قد سميت المتمورة في معجم الكرملي واميبة عند غيره لان الاسم العربي لا يوافق الذوق اللغوي الذي يصبح في حد ذاته محلا للخلاف (١٥) . مما دعا المجمعي العربي الى المطالبة بتكوين لجنة تشرف عليها الجامعة العربية وتمولها الدول العربية لوضع « معجم المصطلحات العلمية » او « المعجم العربي الاعجمي » الذي يجب ان تنسق مفرداته حتى تكون موحدة .

ولا يفوتنا ان نذكر اننا نجد صدى لهذه الاراء نفسها في مؤلفات

(٦) محمد رضا الشبيبي ، توحيد المصطلحات ، مجلة مجمع اللغة ٨ : ١٣١ ــ ١٣٥ .

(٧) نفس المرجع ص : ١٣٣ .

(٨) محمد الخضر حسين :طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها، مجلة مجمع اللغة ٨ : ٣٦٦ ــ ٣٧٣ .

(٩) نفس المرجع ص : ٣٧٠ .

(١٠) نفس المرجع ، ص : ٣٧٣ .

(١١) عبدالقادر المغربي : حول المصطلحات العسكرية مجلة مجمع اللغة ٩ : ١٦٧ ــ ١٧٠ .

(١٢) نفس المرجع ص : ١٦٧ .

(١٣) مصطفى الشهابي : توحيد المصطلحات في البلاد العربية مجلة مجمع اللغة ١١ : ١٥٧ ــ ١٦١ .

(١٤) نفس المرجع ص ١٥٩ .

(١٥) نفس المرجع .

(١٦) الشهابي الاخرى التي تزودنا بعينات جديدة ومتنوعة من ذلك مصطلحات النفط التي اختلف فيها مجمعا القاهرة وبغداد فلقد اورد مثلا :

Catalyst	فهي الاز في المجمع الاول والحفاز في الثاني
Structure	فهي التراكب في الاول المبنية والبناء في الثاني
Anticline	الحفيرة في الاول والقبوة في الثاني ..» (١٧)

ويشتد الخلاف في المصطلحات الطبية والحرفية والعسكرية والعلمية والفنية والهندسية وفي مصطلحات الحشرات والنبات والجيولوجيا والديبلوماسية والسياسة الدولية (١٨) الخ ..

وينسب الشهابي تلك الخلافات الى عوامل نفسانية ومادية متنوعة المظاهر . من ذلك ان « هذا يعمل تلبية لهوى في نفسه وتعشقا لهذه اللغة ، وثان يعمل مدفوعا بالغرور وحب الظهور ، وثالث للتجارة وما فيها من كسب المال ، ورابع تلبية لرغبات دول اجنبية تريد بث نفوذها بطريق الثقافة وهلم جرا (١٩) .

عولجت القضية حسب منهج مبدئي جديد اعتمده محمد كامل حسين (٢٠) يدعو فيه الى ان يقف المجمع قليلا ليعيد النظر في القواعد التي سبق ان وضعها والقرارات التي اتخذها لنتبين: هل هذه القواعد كفيلة بتحقيق ما اردناه من خلق لغة قابلة للحياة ؟ (٢١) .

ولقد قاده موقفه هذا الى اعتبار لغة السلف غير صالحة لتأدية العلوم الحديثة والى القول بان مصطلحات لغوية وليست علمية مما يدعو اعتماد التعريب في المصطلحات العلمية الكلاسيكية الدالة على الاعيان ، كذلك كل ما يدل على مصطلح يكون جزءا من تصنيف عام وكل مصطلح عام اصبح خاصا . اما النحت فيجب تجنبه وتجنب كلماته مثل « شبغروي » واحلال « كلويد » محلها لانها ليست غروية ولا شبه غروية في الواقع فنكون قد اخترنا بالنحت كلمة ثقيلة ظنا انها اسهل فهما وفي سبيل الوضوح اصبحت خطأ . والكلويد من اسماء التصورات العلمية الخاصة التي يصح ان تعرب حتما (٢٢) ان دعوة المجمعي العربي الى التعريب تفرض اعادة النظر في قرار المجمع في هذه الطريقة لان طرق العرب في التعريب التي اعتمدها لا تتصل بعوائدنا الصوتية التي تطورت .

ولقد واصل محمد كامل حسين بحثه في محاولة ثانية تركيبية وضع فيها قضية صلة اللغة بالعلوم (٢٣) فهو يقسم اللغة الى قسمين : لغة التفاهم ، وهي لغة غير محددة ، لها صلة وثيقة بلغة الادب ، ولغة الفهم وهي واضحة لها صلة متينة بلغة العلم التي تعتبر اصطلاحا يصطلح عليه ولا يفترض فيها اطلاقا ان تكون مطابقة لمعاني الكلمات الاولى ، فالاوكسجين الذي يفيد مكون الصدأ يمكن ان يسمى بيوجين لو علم في اول الامر انه مكون الحياة.

واعتبارا لما سبق فانه يفترض في اللفظ العلمي ان يكون لفظا لا عبارة وان يستخرج من مفردات اللغات الميتة من دون اعتبار دلالاتها الاصلية والا يستقى من الكتب القديمة التي لا نفع فيها بل يجب

(١٦) مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ــ الطبعةالثانية ــ دمشق١٣٨٣ (١٩٦٥) لا سيما في الصفحات ١٤١ ــ ١٤٧ .

(١٧) نفس المرجع ص : ١٧٨ .

(١٨) نفس المرجع ص : ١٨٠ ــ ١٨٨ .

(١٩) نفس المرجع ص : ١٨٨ .

(٢٠) محمد كامل حسين : القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية ، مجلة مجمع اللغة ١١ ــ ١٣٧ ــ ١٤٢ .

(٢١) نفس المرجع ص : ١٣٧ .

(٢٢) نفس المرجع ص : ١٤١ ــ ١٤٢ .

اعتماد التعريب والاكثار من التأليف لخلق الاسلوب العربي الحديث.

ولقد نهج أحمد عمار (٢٤) منهجا مختلفا في مظهره العام فاعتبر ان قضية التوحيد مربوطة بوضع مناهج منظمة مصنفه تضمن للعلم بالعربيه وحدته العضويه والتفاهميه التي تعتبر اهم من التوحيد الذي يمكن أن يكون مضرا أحيانا ولقد وضع خمسة عشر مبدأ نذكرها بشواهدها .

١ ـ مضاهاة الافراد اللفظي بمثله (٢٥)

Aphasia ترجمت باحتباس الكلام ، وامتناع النطق ، وتعذر النطق ، ويحسن أن نترجمها « الصمات » .

٢ ـ افراد المصطلح الواحد بترجمة واحدة وقصرها عليه :

Therapie ترجمت بالمداواة والتطبيب والمعالجة والعلاج ويحسن ترجمتها « طباب » .

٣ ـ مقابلة المترادفات بامثالها :

يعبر عن مرض السل Phtisis , Consumtion , Tuberculosis

ويمكن أن نقابلها بالدرن والسل والسحاف .

٤ ـ مقابلة التعدد اللفظي :

يجب اعتبار الترجمتين العامية والعلمية ـ تترجم Blackeye بالعين السوداء وبالقضاء .

٥ ـ تجنب الاغراب وكذا الابتذال في غير ضرورة ملجئة :

Sabre Shine ترجمت ترجمة غريبة بالظنبوب الطالع ويستحسن ان نترجم بالقصبة الحسامية .

Plain musle ترجمت ترجمة مبتذلة بالعضلة السادلة ويستحسن أن نترجم بالعضلة الغفل .

٦ ـ توخي وضوح الدلالة وتجنب ابهامها :

Sporadiccases ترجمت بالحالات المنتشرة وهي تعني الاصابة بالمرض على نحو فردي لا جماعي وفي اماكن متباعدة ويحسن انتترجم « بالحالات المتفرقة » .

٧ ـ توحيد ترجمة المصطلحات المشتركة بين مختلف العلوم :

Crisi ترجمت بالبحران في علم الامراض وبالازمة في الطب الباطني .

٨ ـ مراعاة صلات الترابط الاشتقاقي والتصريفي والمعنوي بين المصطلحات :

Trophy الواردة في Trophic nerve و Trophic disturbance و Dystrophy و Atrophy و Hypertrophy قد اتت مختلفةالترجمة وهي عصب الاغتذاء ، حثل ، سغل ، ضمور ، ضخم

٩ ـ الترخيص في التحلل من القديم اذا لم تتوافر صلاحيته للاستعمال الاصطلاحي الحديث :

مثال ترجمة Nulli Para ترجمت بالمنجات المبرة (لان المبرة كثيرة الولد) .

١٠ ـ التزام التخصيص في الاصطلاح العلمي بايثار الالفاظ النادرة التداول او المحورة الصيغ :

Peripheral Nerves ترجمت بالاعصاب المحيطة ويستحسن ان تترجم بالاعصاب الحتارية .

١١ ـ التوسع الى اقصى المدى في تطويع اللغة للاشتقاق ما انتفى ضرره بكيانها :

تطبيق مبدأ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب .

١٢ ـ زيادة تطويع الاشتقاق لصوغ المصطلحات العلمية :

تخصيص صيغة فعال للامراض المبداة Subjective Symptomes مثل صداع ودوار وزحار

تخصيص صيغة فعل للامراض البادية Objective Symptomes مثل برص مرح وحدب

١٣ ـ توخي ما تسميه المحسنات اللفظية ـ ما تسنت ـ في صوغ المصطلحات العلمية :

اعتبار التجانس من ذلك ان تترجم Typical بطبيق و Humid بوميد و Technique بتقنية .

١٤ ـ قصر التعريب على مقتضيات الضرورة وتوخي الخفة لا الثقل فيه :

تخصيص التعريب في المصطلحات الكيميائية والمخترعات الحديثة

١٥ ـ النحت :

استعماله عند الضرورة بعد صدوره ولواحقه كما وكيفا ووضع قواعد منتظمة له .

واعتبارا لما سبق من المحاولات فاننا نستطيع ان نستشف في مواقف الداعين الى التوحيد باعتبار ادراكهم لاسباب الترادف ولطرق معالجته نزعتين تعكسان تصورين لقضية التوحيد التي كثيرا ما تبدو مربوطة بثقافتكم ومؤهلاتهم العلمية ، ولذلك فان اصحاب النزعة الاولى يتميزون بما يلي :

ـ اعتبار الترادف والبلبلة في المصطلحات ناتجين عن الازدواجية اللغوية او عن تضارب ـ المصطلحات القديمة . انهم لا يعيرون اهتماما للاسباب اللغوية والاجتماعية والثقافية التي كانت اساسا لوجود تلك المترادفات مهما كان نوعها .

ـ معالجة القضية عن طريق الترجمة المحضة كانهم يرون فيها احسن طريقة لتوحيد المصطلحات العلمية .

ـ الاقتناع بان ترجماتهم من احسن الترجمات دون اعتبار ترجمات غيرهم (٢٦) ودون النظر في فنيات الترجمة العلمية وشروطها .

ـ اعتماد الاصول العربية القديمة دون اعتبار ما فيها مننقائص الامر الذي يؤول بهم احيانا الى سلفية لغوية فيها من الخطر على المصطلحات ما يساوي او يفوق خطر مترادفاتها الحديثة .

والملاحظ ان هذا المنزع ناشيء عن كون اصحابه من احادياللغات ومن الباحثين في القديم الذين ليس لهم صلة وثيقة بمعرفة اللغات ولا بالعلوم الحديثة ومشاكلها المنوعة فالدعوة تكاد تنحصر عندهم في نوع من البحث الشكلي الذي لا يتعمق في القضايا تعمقا كافيا، ولذلك فانهم يكتفون باقرار القديم ولا يخوضون في قواعد المجمع مثلا في هذا الميدان وذلك على ضوء المقارنة بين القاعدة النظرية وتطبيقاتها العملية . فيبدو أن قواعد العربية الكلاسيكية عندهم صالحة ضمنيا لكل زمان ومكان .

اما اصحاب النزعة الثانية فانهم قد عزوا المشكلة لما يلي :

ـ البون الشاسع بين العلم في اللغات الاوروبية وفي اللغة العربية .

ـ الخلط بين لغة الاداب والانسانيات ولغة العلوم .

ـ دور العوامل الثقافية والنفسانية الشخصية من ذلك معنى الذوق والغرور والتجارة والاستعمار الثقافي الخ ..

ولقد رأوا من المفيد ان تعالج القضية كما يلي :

ـ الاتفاق على منهجية عامة ولو كانت اجبارية تصبح معيارا يحتذى لمواجهة البلبلة في المصطلحات العلمية .

---

(٢٤) احمد عمار : دعوة الى التزام منهجية في صوغ المصطلحات الطبية ، البحوث والمحاضرات ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ص : ٤٥ ـ ٥٦ .

(٢٥) ان جميع المبادىء المطردة من وضع احمد عمار كذلك اغلب الامثلة التي تعتبر تطبيقا لها .

(٢٦) انظر الشهابي : المصطلحات العلمية ص ١٥٣ ـ ١٥٤ والخلاف القائم بين الشهابي والكواكبي في الصيغ التي يجب استعمالها لترجمة Diaphoretique التي يعبران عنها بمعرفة ومعرفة ، كذلك Stupefiant التي ترجماها بمخدر ومخدرة .

ـ اعتماد الترجمة او التعريب اطلاقا او تخصيص ميدان كل واحد منهما بحسب العلوم .

ـ الاعراض عن النحت عامة الا عند الضرورة الملحة .

ـ ترك الكتب القديمة تماما او الاخذ منها بحذر .

ـ التوحيد لا ينشأ عن الترجمة وغيرها بل عن وجود نظريات علمية عربية تؤيد التاليف وتؤازر الانتاج وتنسق المعارف في نظام عام موحد مثلما هو الشان في العلوم الاوروبية وغيرها .

والملاحظ عندهم ان المترادفات يمكن ان تكون احيانا ضرورية في وصف بعض الامراض مثلا . ان هذا المنزع مهم لانه زودنا بمعلومات جديدة تدل على تطور التفكير العربي تفكيرا ايجابيا في شان مسألة العلم عامة ، لان قضية توحيد المصطلحات جزء منها . وهو يفيد ايضا ان المنهجية اصبحت عند الباحثين العرب اساسا جوهريا. فلقد وصلوا الى ارساء طرق مفيدة في جميع الميادين هي على قدر ما توفر للاختصاصيين من جمع بين معرفة لغات كثيرة منها لغتهم وبين العلوم الحديثة المختصة . ان تبلور القضيه نسبيا ناشىء عن حل جزئي من الازمة التي ما زالت قائمة باعتبار مناهجهم الوصفية البحتة والجزئية اذ انها كثيرا ما تضع معايير لا يمكن ان تطبق على جميع العلوم وفي جميع الحالات . وهذا راجع الى انه لم تتوفر لدينا اكثر معطيات القضية المطروحة وان كان يصعب اطلاقا ان نصل الى الطريقة المثلى التي تساعدنا على حل مسالة المصطلحات حلا حسابيا .

فما هي المعطيات المطلوبة للوصول الى مناهج نسبية مفيدة تقلل من المترادفات وتوحد الثقافة التي نريدها عالمية فيها من التفتح على نفسها اولا ما يضمن لها التفتح على غيرها والدوام في الخلق والابتكار ؟

معطيات القضية العامة :

لا بد لنا ان نعالج القضية حسب مواقف نظرية اجماعية عامة وذلك ما يحتم علينا الا ننظر الى توحيد المصطلحات كغاية في حد ذاتها والا استحالت الدعوة الى التوحيد الى تجميد واصبحت ايديولوجية طاغية تطلق الاحكام الاعتباطية وتقوم عرقلة في وجه كل تجديد . فنظل نجتهد في المذهب دون ان نجدد في العلم ولذلك وجب علينا ان نضع القضية في محيطها العام وما له من صلة بالحالة الاجتماعية اللغوية وبنشر المعرفة على جماهيرنا الشعبية ولذلك لا بد لنا ان نعتمد ما يلي :

١ ـ الوصف والتقييم :

لقد كثرت المجامع وتعددت المؤتمرات في العالم العربي وتنازعت المؤلفات والاراء . وهو امر ايجابي يدل على يقظة ساهمت فيها المؤسسة والافراد مساهمة هامة في تطوير العلم باللغة العربية لكننا لا نعرف الى يومنا هذا ما هي وشيجة العلم بالعربية وما هي فروعه ؟ فاننا نلاحظ في غالب الاحيان انالكثير منا يكرر دون تجديد اعمالا سبق ان ساهمت بنجاح في اداء قسط وافر في نشر المعرفة الحديثة الصحيحة كما نلاحظ ان كثيرا من العلوم الاساسية لم تطرق في العربية ولم تدخل في حسابنا العلمي فضلا عنالعلوم التي ننقلها ونؤلف فيها بعد مدة طويلة تجعلها لا تصلح في العلم ولا في البيداغوجيا . اننا نجهل مثلا ما هي المؤلفات العربية التي وضعت في علم الطب او في علم الالسنية وما يتعلق بهما من معاجم مختصة (٢٧) واعتمادا على هذا لا يمكن لنا ان نطلق الحكم في قضيتنا ما دمنا لا نعلم قيمة رصيدنا العلمي . فنحن نحتاج في سبيل الوصول الى غايتنا الى وصف نقدي مفهرس يضبط مصادر العلم في العربية ومراجعه في مختلف العلوم وفي صلتها ببعضها ببعض كما اننا نحتاج الى وضع ايستمولوجية عربية لتقييم المعرفة في العربية قديما وحديثا وتربط تلك المعرفة بالظروفالاجتماعية والنظريات العلمية التي كانت اساسا لها .

ان الوصف والتقييم يوحيان لنا ملاحظتين اولهما ان قضية المترادفات في العربية ناتجة حسب نسب معينة عن نزاع القديم والحديث اللذين لا يمكن لنا ان نفصل منهما الواحد على الاخر دون ان نقارن مقارنة موضوعية واحصائية رصيدنا العلميين الكاملين في القديم والحديث.لا شك ان هذا عمل جبار لكنه واجبعلى مؤسساتنا وجامعاتنا وعلمائنا اذ ان العلم على قدر ما تعد له من نظم تضبط صلاته وتفصانه حتى يكون التواصل والوضوح في فروعه ومصطلحاته . ان المواصلة على وضعنا القديم يجعلنا نشعر اننا لسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء لا سيما في مستوى المصطلحات وتلك ذبذبة واهية . اما الملاحظة الثانية فانها فرع من الاولى وتفيد ان علمنا ومصطلحاتنا يتأثران تأثرا كبيرا بما يحيط بهما من ظروف وملابسات ؟ ذلك ان الفقه ـ وهو علم مختص اذا قسنا ذلك بمصطلحاته ـ قد قضى بمنطقه وقياسه على تصورنا لوظيفة اللغة وللعلوم عامة وخلط علينا مصطلحات اللغة التي ظلت متصلة به اتصالا مجحفا (٢٨) ولا شك ان الكثير من مصطلحاتنا وليد هذه النزعة التي تطغى فيها مذهبية معينة على تفكيرنا فتقف عرقلة في وجه الدقة والوضوح . ولقد تنبه الاوروبيون الى ذلك معتبرين ان الحاجة تدعو الى الاعتراف لداروين مثلا في وضع مبدأ التطور في العلوم لكنهم اسرعوا الى التخلص من مبدأه عندما اصبح مذهبية مطلقة تريد ان تكون حلا لكل شيء .وخلاصة القول اننا فيحاجة ملحة الى الوصف والتقييم على غرار ما فعلنا هنا مثلا في شان المحاولات المجمعية المتعلقة بتوحيد المصطلحات حتى لا نتيه في مغبة نقد النقد الذي لن نسلم منه الا اذا وكلنا الى اختصاصيين قارينفي مؤسسات قارة مهمة تتبع سير العلم في العربية وضع مؤلفات تاريخية اجمالية تجنبنا التكرار والاهمال والاسقاط .(٢٩)

ان هذا المنهج يفرض علينا ملاحظة المعطيات الثانية وهي :

٢ ـ الاخذ والعطاء اللغويان

ان النظر في قضيتنا يفرض علينا ان نقر ان اضطرابالمصطلحات وغموضها وتكاثرها ليس خاصية من خصائص العربية . فهيقضية موضوعية في كل اللغات وذلك حسب نصيب كل لغة من تراثها ومن العلم الحديث باعتبار انه توجد لغة تعطي ولغة تاخذ ،فالعربية

---

(٢٧) وضعنا معجما عربيا اعجميا يحوي اهم المصطلحات اللغوية الحديثة لعلم اللغة العام مساهمة منا في وصف وتقييم العلوم الحديثة في العربية وسيصدر هذا المعجم عما قريببالكراريس اللغوية لمعهد الدراسات الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية .

(٢٨) يعود الفضل الى ابن عطاء الاندلسي صاحب « الرد على النحاة » في تخليص اللغة من المنطق الكلامي وان كان قد تعسفبدوره بان وضعها في بوتقة النظرة الظاهرية .

(٢٩) يمكن مثلا لمعهد اللسانيات في الجزائر المجهز باحدث الالات ان يبرمج اعماله فيحصي لنا جميع مصطلحات الطب في العربية قديما وحديثا فيكون بذلك مثالا يمكن ان ينسج عليه لحل قضية معركة القديم والحديث ولو نسبيا .

اليوم تاخذ ولا تعطي ، كما ان الفرنسية تاخذ الكثير من الانكليزية والروسية مثلا . فالعربية تواجه قضية صعبة لا تنحصر في طرق الاخذ فحسب بل في اختلاف اللغات التي يترجم عنها العرب اذ ان الاختلاف لا ينتهي عند لغتيين من اصل مختلف بل يتجاوز ذلك الى التنافر في لغتين من اصل واحد مثل الانجليزية البريطانية والانكليزية الامريكية مما تدل عليه الامثلة التالية : (٣٠)

المصطلحات الامريكية : Tube Muffler Manifole
المصطلحات البريطانية المرادفة Valve Silencer Exhaustippe

ويهمنا من هذين المبدأين انهما سببان في الخلاف الموجود بين مصطلحات اللغة الواحدة وفي العلم الواحد كما رأينا سابقا . وتزداد اهميتهما بقدر ما نجدهما اصلا لما نسميه الحلول المرحلية في وضع المصطلحات التي كثيرا ما تكون على قدر الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تقل فيها اصحاب اللغة الاخذة . فالتعريب قد يفرض نفسه احيانا قبل الترجمة لظروف معينة كما ان الترجمة تمر بانواع منها المنحط والركيك والمتوسط والراقي (٣١) ان لهذه المرحلية اثرا في مصطلحاتنا وتضاربها من ذلك ديوان رسل العمالات ، وهذه ترجمة رفاعة للاصطلاح الفرنسي Chambre des Deputés ولهذا الاصطلاح عندنا في مصر منذ عهد محمد علي حتى اليوم تاريخ طويل. فقد سمي هذه التسمية ، ثم اطلق عليه « مجلس شورى القوانين » ثم « الجمعية العمومية » ثم « الجمعية التشريعية » الخ .. الى ان سميناه اخيرا بمجلس النواب كما سميناه « الشمبردوبير » بمجلس الشيوخ (٣٢) ومن هذا كثير في العلوم المختلفة التي استشهد لها احمد عمار كما ذكرنا ذلك سابقا ولا فائدة في تكرارها .

وفي المسرح نجد ان مصطلح Amateur ترجمت حسب السنوات ب : غاوي (١٨٢١) وهاوي (١٩٤٧) ومحب ومولع ومغرم (١٩٦٥) (٣٣) ومصطلح Drame ترجمت بقصيدة (١٨٢١) وتمثيل (١٩٣٠) وماساة (١٩٤٥) ودراما (١٩٤٨) وفاجعة (١٩٥٦ م) ومسرحية وماساة عصرية (١٩٥٩) ودرام (١٩٦٥) (٣٤) .

ان هذه النظرية التاريخية تبين ان اللغة العربية آخذة ،لكن اخلها المرحلي لم يستقر ولم يثبت ولا يمكن ان يكون ذلك ما لم توضع فيه دراسات تصفه قبل ان تاخذ قرارات موحدة في شانه. ومعنى هذا ان التوحيد لن يكون ناجحا اذا كان غاية في حد ذاته ، اي اذا لم ياخذ بعين الاعتبار هذا التراث المرحلي لان من الاخطاء الكبرى ان نتجاهل هذا التراث الحديث ونضرب به عرض الحائط فنظل نجتهد في المذهب بوضع مصطلحات اخرى دون ان يكون ذلك تجديدا في العلم ومصطلحاته .

وفي هذا الصدد ليس لنا ان نغفل عن تاخر اخذنا وقلته، اذ لا بد ان نتساءل عن فائدة توحيد الالاف من المصطلحات الماخوذة اذا قارناها بالالاف المؤلفة من المصطلحات العلمية الحديثة في اللغات المتقدمة . ان مجمع اللغة العربية قد وضع منذ نشانه ما يقرب من ٥٠ الف مصطلح وهو ما يعادل وضع خمس كلمات في اليوم الواحد لمدة ثلاثين سنة (٣٥) .

لا شك انه يوجد منا من يدعو الى التعريب المحض باعتبار ان اخذنا قليل ومتاخر ، وان الترجمة عائقة مهما كان اجتهادنا ، فليكن الاخذ معربا لان العلم كوني في مصطلحاته ومفاهيمه فيحسن ان نستوعب العلم عوض ان نتيه في ترجمته . فلا يكفي ان نعالج الموقف بلعن المنادين بهذا المبدأ وذلك باسم مذهبية التوحيد ولو كانت شكلية ، لان حجتهم في سبيل العلم تساوي حجة من يدعو الى التوحيد بالترجمة دون حصول المعرفة العلمية . ولعل احسن طريقة في هذا الشان تتمثل في وجود قوانين تنمي الاخذ كما وتجود معطاه كيفا معتبرة مبدا هاما مفاده ان توحيد المصطلحات لا يكون الا بتنمية الاخذ وبتكامله وبمقارنة طرق اخذه ، وهذا ما يدعونا الى المعطاة الثالثة المربوطة بتنمية الاخذ .

٣ ـ معنى التقدم العلمي :

ان اضطراب مصطلحاتنا يعكس في الحقيقة موقفنا من تحديد معنى التقدم العلمي . اننا نلاحظ مثلا ان المعرفة بصفة عامة والمصطلحات بصفة خاصة لا تزال محل نزاع بين اصحاب القديم واصحاب الحديث واصحاب الحل الوسط . من ذلك ترجمة كلمة Biscuit التي وضعت لها ثلاث كلمات وهي : الخشكناك والبسكويت والملة . اما Pancreas فلقد وضعت لها ثلاث كلمات أيضا وهي : الحلوة والبنقرياس والمعقدة . ان هذا الخلاف ليس ناشئا عن الترادف بقدر ما هو ناتج عن نزعات علمية متنازعة : النزعة الموسوعية التي تنظر الى الحديث من خلال القديم ، والنزعة الوطنية الانليمية التي ترضى بالغموض على حساب القديم والحديث. فالنزعة الانشائية تكاد تكون معدومة ، فنحن لا ننظر للعلم الا من خلال ما عرف خوفا من هاوية الفراغ . فلن توجد النزعة الانشائية الا اذا عبرت المصطلحات العربية عن مفهوم التقدم العلمي وتعلقت بحدوده، ومن طبيعة ذلك التقدم الا يخضع لمنطق عقلي يفرض تواصل المعرفة وترابط تقاليدها لان العلم يتقدم بطريقة غير متصلة كثيرا ما تتميز بنقض المعارف السابقة (٣٦) فالتقدم العلمي لا يكون الا بالثورة على العلم القديم في مفاهيمه ومصطلحاته المترابطة بعضها ببعض .

ان النقد التاريخي يبين ان المعرفة لم تتقدم في اوروبا الا عندما حل اهل التقنيات محل اهل الدين والموسوعيين وقامت الطباعة مقام الخطاطة . ان مصطلحاتنا ستكون رائدة متناسقة ، ولا اقول موحدة ، ان عبرت عن مفهوم العلم الذي يعني ترك القديم في جله على جلالة قدره ، فنتجنب التيه في المعارك الثانوية والثلاثية والرباعية المتمثلة في المترادفين او الثلاثة او الاربعة بالنسبة للمصطلح الاعجمي الواحد وذلك ما يقودنا الى المعطاة الرابعة وهي :

٤ ـ البحث العلمي :

ان وحدة الثقافة ووحدة المصطلحات رهينة مساهمة ابناء الامة الواحدة في البحث العلمي وتقدمه . والملاحظ ان وسائل العلم مخذولة في بلادنا واهل العلم مغبونون بها حتى كادت تطلق عليهم لعنة

---

(٣٠) حسن حسين فهمي : المرجع في تعريب المصطلحات العلمية والفنية والهندسية ـ القاهرة ١٩٥٨ ص : ٣٧ .

(٣١) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ـ القاهرة ١٩٥١ ص ٢٠٣ ـ ٢٢٨ .

(٣٢) نفس المرجع ص : ٢١٤ .

(٣٣) عطيه ابو النجا : بحث في مصطلحات المسرح وترجمتها في العربية الحديثة ـ الجزائر ـ ١٩٧٣ ص : ٥٦
Recherche sur les termes de Theatre el ,leur traduction en Arabe moderne)

(٣٤) نفس المرجع ص : ١١٨ .

(٣٥) رشاد الحمزاوي : مجلة Arabica الجزء ١٥ (فيفري ١٩٦٨) ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٣٦) انظر Pierre LASZLO : Conflits en Revolutions , Critique . Bruxelles 1974 .

ميتافيزيقية عنصرية مفادها ان عقولهم لم تخلق لتخلق فما هي وسائلهم من العلم ؟ ان مجموع الاقطار العربية تهتم قليلا بالبحث العلمي وتخصص اقل من واحد في المائة من مداخيلها له (٣٧) والحال انه يعتبر الركن الاساسي لمصطلحاتها ولمناعتها السياسية والاجتماعية والثقافية .

ان هذا البحث لن يثمر ولن يزدهر ما لم يعتمد مبدأي التنظيم والتصنيف اللذين يقودان الى وضع النظريات الانشائية المتناسقة والى انشاء المدارس العلمية المتنافسة والمتسابقة من اجل تنمية المعرفة التي ينبثق عنها القطب المولد الذي تتولد عنه المخترعات وتكثر حتى يصبح انتاجه العلمي يساوي او يكاد تصوراته النظرية . ويتجسم ذلك في تقارب تواريخ المخترعات كما تدل على ذلك الامثلة التالية :« وقد اقتضى العقل ١١٢ عاما ما بين سنة (١٧٢٧ ـ ١٨٣٩) للتوصل للتصوير الفوتوغرافي ،٥٦ عاما ما بين سنة (١٨٢٠ ـ ١٨٧٦) للتوصل للتلفون ، وخمسة وثلاثين عاما ما بين سنة (١٨٦٧ ـ ١٩٠٢) للتوصل للراديو ، وخمسة عشر عاما بين (١٩٢٥ ـ ١٩٤٠) للتوصل للرادار واثني عشر عاما ما بين سنة (١٩٣٩ ـ ١٩٥١) للتوصل للقنبلة الذرية وخمسة اعوام ما بين سنة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٣) للتوصل للترانزستور وعامين لا غير ما بين سنة (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) للتوصل للنقل الكهربائي اللاسلكي الملتحم » (٣٨) .

ولا شك ان العقيدة العلمية وحرية الفكر في جميع ابعادها وفي جميع الميادين ونشر المعرفة الصحيحة بين جميع افراد الامة تجعل من العلم مقسوما مشتركا نساهم في تنميته مساهمة جماعية حتى يصبح تجربة من تجاربنا عملا بالقول المشهور :« اذا اعطيت المرء سمكة تغذى بها مرة واحدة واذا علمته الصيد تغذى كل حياته »(٣٩) وفي انتظار بروز العقلية العلمية لا بد ان نطرق المطاة الخامسة .

٥ ـ الترجمة :

يجب ان نقر ان علمنا علم ترجمة وهي صنعة نبيلة يكون توحيد مصطلحاتنا على قدر تصورنا لها ولشروطها . ان الترجمة تقنية من التقنيات الحديثة (٤٠) وليست ضربا من ضروب الادب اذ انها تطورت حتى عوضت الترجمة الاوتوماتيكية (٤١) المترجمين . اما نحن فما زلنا ننظر لترجماتنا من خلال ترجمة مثالية نتصورها توهما ولا ندركها عملا . اذ ان معظم ترجماتنا سليقية حدسية تؤول فيها الترجمة الى رجم لاننا نجد لها معايير علمية قارة تفصل بين مترجمين خصمين كثيرا ما ينقلبان في خصامهما الى سفسطائيين او الى موسوعيين هما اقرب الى اصمين منهما الى متحاورين في العلم . فالترجمة تفرض ان تضع لها في العربية نظما تضبط جل

قواعدها (٤٢) اذ لا توجد ترجمة مثالية بل توجد ترجمة ضرورية لا بد منها بحثا عن الدقة والوضوح، فمن الترجمة ما يكون التعريب قطعا ، ومنها ما يكون النسخ ويسميه بعضهم المسخ لتادية صور واشكال ذهنية خلقتها عبقرية اللغة المترجم عنها لاسباباجتماعية وثقافية خاصة بها دون غيرها ، ومنها ما يكون ترجمة حرفية وبها تلحق الترجمة الجانبية او التقريبية ، ومنها ما يكون قياسا او مكافاة او مؤلفة فلا يكفي ان نقر مسبقا ان التعريب لا يستعمل الا عند الضرورة .

فما هي تلك الضرورة وما هي حدودها ما لم نصفها انطلاقا من الاستعمال والمقارنة والتجربة ؟

ان هذه المعطيات المذكورة على سبيل الاختصاص تبدو بديهية ، ذلك صحيح ، لكنها تحتاج الى بيداغوجية تؤديها وتطبقها . ولا يمكن ان نغير تجاربنا ما لم نربط هذه المعطيات بتجربتنا في ميدانين هامين يتعلقان باختياراتنا وطرائقنا اللغوية التي سرنا عليها الى يومنا هذا في المجامع والجامعات وفي مستوى الافراد .

الاختيارات اللغوية الاساسية :

ان النزعة الى توحيد المصطلحات وبالاحرى الى توحيد الثقافة كثيرا ما تلجأ الى وضع اسس احكام مسبقة نعتبرها مقدمات بديهية يظن اصحابها انها كافية لتكون منهجا مفيدا . ومن تلك المقدمات .

أ ـ التمذهب اللغوي الذي يربط اللغة بالعقل والمنطق ويميز مثلا بين لغة الانسانيات ولغة العلوم . فيكفي ان ننظم لغتنا كي تنظم عقولنا وتتحد مصطلحاتنا . وهذا ما يقودنا الى ان نفترض مثلا ان لغة الادب تتميز بالمشترك ولغة العلوم بالافراد . ذلك ما يستلزم اقامة الحجة عليه لان اقرار هذا المبدأ يستوجب استقراءمظاهر اللغتين واحصاء مصطلحاتهما الفنية حتى نجزم بهذا الراي الذي لم يوجد له تطبيق الى الان في العربية .

ان هذا المنزع كثيرا ما يقود الى البلبلة والى تاييد مبدا اقرار المترادفات في الاداب والانسانيات مثلا . لكنه يتجاهل ان لكل لغة من اللغتين مظهرا عاما ومظهرا خاصا فيه من الابتذال والغرابة والدقة والوضوح نسب تكاد تكون متساوية فضلا عن ان تكاثر الالفاظ في المصطلحات الفنية الادبية العربية يعود جوهريا الى شيخوخة الادب العربي الذي لم تتجدد نظرياته ولم تتطور او الى الترجمة وما وراءها من فوضى ، فيكفي ان تلقي نظرة علىمصطلحات المدرسة الادبية الشكلية لندرك ما اتت به من مفاهيم جديدة مضبوطة .

ولنا ان نلحق بهذا التمذهب ما مفاده ان لغة العلم تحتاج الى غرابة لطيفة ـ ولعلها من نوع اللغة الماورائية metalangue تميزها عن الكلمات العامة عملا بمبدأ الاوروبيين الذين لجاوا الى اللاتينية واليونانية لاستسقاء كلماتهم العلمية منها . لكن يجب ان ندرك ان ذلك الغريب اصل في اللغات الاوروبية وان علوم الطب الحديثة مثلا قد اخذت تتخلص شيئا فشيئا من اليونانية واللاتينية اللتين حذفتا من برامج الطب في اكثر الاقطار الاوروبية . ان لغة العلوم بما في ذلك الاداب والانسانيات تستدعي نوعا من الاختصاص

---

(٣٧) حسن صعب : تحديث العقل العربي ـ بيروت ١٩٦٩ ص : ١٦٥ ـ ٢٠١ .

(٣٨) نفس المرجع : ١٦٨ .

(٣٩) نفس المرجع : ص ١٧٠ .

(٤٠) J . A . Vinay et J . Darbelnet : Stylistique comparee du Francais et de l' Anglais - Paris 1958

(٤١) Anthony G . Oettinger ; Automatic Language translation lexical and technical aspect , With Particular reference to Russian , Cambridge Massachusetts , 1960 .

(٤٢) نفس المرجع الوارد في حاشية (٤٠) ص ٤٦ ـ ٥٤ .

لا على اساس الغرابة بل باعتبار انعدام وجود العلاقة المنطقية بين الكلمات ومعانيها ، فالاسم لا ينطبق على المسمى ، والاسماء لا تعبر عن الاشياء بقدر ما تعبر عن اصطلاح نصطلح عليه. فالتصاق الكلمات بالاسماء ناشيء عن التكرار والعوائد لها عن صلة وثيقة بين الاسم والمسمى . فلو كان كل ما يدعي بصالح صالحا لساد الصلاح الدنيا . ولذلك قال بعضهم ان كلمة كلب لا تعض .

فلو اخذنا بهذا الراي الجديد لاستطعنا ان نثري معجمنا بالمصطلح المتجدد ، عوضا ان نحمل اللفظ الواحد عبئين :عبء المعنى الحديث وعبء المعنى الجديد . وهذا ما يجعلنا نعتقد ان للمترادفات في هذه الحالة سببا . فهي ليست عبثا في حد ذاتها . فلا يكفي ان نخلص اللغة من مترادفاتها واضدادها حتى نامن الاضطراب . فالمهم في هذه الحالة ان ندرس الاسباب الموضوعية (٤٣) التي خلقتها حتى تساعدنا على تجنبها حسب الامكان اذا لم تكن تصورا مهما عن تطور استعمالاتها وادواتها .

ب ـ الاستعمال او العدالة اللغوية :

ان اهم مبدأ يمكن الاعتماد عليه في هذا الصدد يتصل اتصالا وثيقا بموقفنا من الاستعمال في مظهره العام . اننا نلاحظ اننا غير متفقين على وجوه الاستعمال في العربية الفصحى مثلا . اننا نقر ضمنيا بوجود استعمال مثالي ازلي كثيرا ما يكون اسطوريا نريد ان نقيس عليه دون ان نعرف حدوده ومناهجه . اما في الواقع فان لنا استعمالات في الاختصاص الواحد يستوجب وضع نظام عام نسير عليه . ومن اهم قواعد ذلك النظام ان نقر ان الاستعمال المطرد اساس القاعدة .

ولا يمكن الفوز بذلك الاستعمال الا بالاعتماد على الوصف الذي يقر الاستعمال الغالب في زمان معين ومكان معين . ولا بد ان يكون الوصف متواصلا حتى نجدد الاستعمال والقواعد ونخلصهما من جمود القياس المنطقي . فلا يكفي ان تبدد العمر في تاليف الكتب في عثرات اللسان عند العامة وعند الخاصة كما فعل الشيخ عبدالقادر المغربي دون ان يكون لها نفع لاننا لم نبحث عن السبب الذي جعلنا نقول الجراة لا الجرأة ،والنسر لا النسر،والخطة لا الخطة ،فهل اللغة لقلة مستعمليها او لغلبتهم ؟ من يمثل الصواب ومن يمثل الذوق؟ هل لنا حق فيهما وفي تطويرهما ؟

ان المعجمية الاجتماعية (lexicologie) تقر ان كل استعمال مطرد يشهد على ضرورة ، وكل ضرورة تعبر عن حاجات فئة او طبقة من المجتمع ، فالكلمات والمصطلحات شاهدات على مجتمعنا تستوجب من المعجمي ان يقرها لتكون مصطلحات في ميادينها . ولذلك فان المعجم المثالي هو المعجم الذي يقر عددا من اللغات من اكاديمية وعلمية وادبية وعادية وشعبية وحتى بذيئة وما لها من صلة بعلم النفس والاجتماع وهذا يعني انه توجد في اللغة الواحدة مستويات لغوية لها وظيفتها الفنية والاجتماعية . لا شك انه يستحيل عقلا وتطبيقا ان نضع للحدادين لغتهم لاننا لسنا موكلين على حرفهم وخصائصها . ويؤسفنا ان نظل مستبدين بتلك اللغة من دون خبرة فيها ودون معرفة لمشاكلها .

ان القضاء على احد هذه المستويات يعني اننا نحكم بالاعدام على حق اصحابها في التعبير عن حاجاتهم ومشاكلهم . فيكون ذلك النوع من الظلم اللغوي مثل الظلم الاجتماعي ولعلهما ناتجان عن بعضهما

(٤٣) التضاد في اللغة العربية .

بعضا . ولذلك فاننا نعتبر ان ازمة مصطلحاتنا ناشئة عن ضيق حدود استعمالنا وان هذا التضييق سبب من اسباب الغموض والاضطراب والفوضى في معاجمنا المصرية .

ان تطوير مفهوم الاستعمال مربوط بتصورنا لمعنى الفصاحة .لكن ما هي الفصاحة عند اللغويين ؟ ان تعريفاتهم النظرية والتطبيقية لها تفيد انهم اتفقوا على ان لا يتفقوا عليها ان اعتبرنا اختلافاتهم الواردة في مزهر السيوطي (٤٤) اما المعجميون فلقد اختلفوا فيها اختلافا تاريخيا تدل عليه عناوين معاجمهم ومحتوياتها . فهم لم يسلموا من الوقوع في نفس الخطأ الذي يقر وجود فصاحة مثالية لا يدرك احد معناها ومميزاتها ، كما انهم ربطوها ايضا بمعنى البداوة والسذاجة ، ولا تزال هذه النظرة مسيطرة علينا ، اذ اننا لا نجد نصوصا من الجاحظ او العلميين العرب او من الكتاب والصحافيين المشاهير المعاصرين في معاجمنا قديما وحديثا . ان تناقضنا واضح بين ما ندعو اليه من وضع مصطلحات تنتسب الى الحداثة وبين ما نقره من مصطلحات متصلة بالبداوة باكثر من سبب . ويبدو ذلك واضحا بقدر ما نستغرب لو لاحظنا ان المعجم الفرنسي يعتمد في جمع مادته على فلاحي مناطق البروفانس او الالب وفصاحتهم . ان الخروج من هذا المازق يستدعي ان نقر ان الفصاحة فصاحات : من ذلك فصاحة القصيدة ، وفصاحة القرآن، وفصاحة كبار الكتاب والعلماء القروسطيين ، وفصاحة الصحافة، عوضا ان نقضي العمر في التاليف في كتب لحن العامة ولحن الخاصة وقل ولا تقل . ان حالة العربية تدعونا ان نعتبر تلك الملاحن تطورات في اللغة وفي فصاحتها . وهي تشمل المستوى الصرفي والنحوي والبلاغي والمعجمي . فان كان ذلك التطور مطردا ودل عليه الوصف اللغوي وايده الاحصاء في اغلب الاقطار العربية وجب علينا ان نقر اسس فصاحة جديدة تاخذ بعين الاعتبار ما طرأ على الفصاحة السابقة من تطور وتغيير ولو كان عن القياس الخاطيء . وفي العربية الكلاسيكية من وجوهه ما يدل على انها قد استعملته باطراد . ان هذا التصور للفصاحة يربطها ربطا وثيقا بالاستعمال فتكون الفصاحة الحية هي الاستعمال ذاته . فلو توفرت كل المعطيات السابقة لوجدنا فيها ما يعيننا على استدراك امر طرائقنا اللغوية التي استقرت وبلغت من الاشباع ما لا يمكن تجاوزه من دون ان يكون ذلك لحساب الدقة والوضوح . فيجنح الى طريقة التركيم التي تحشو اللفظ الواحد معاني كثيرة . ولعل ذلك سبب من اسباب وجوه المترادفات والاضداد وان كانت ترجع احيانا الى احوال تطور اللغة وبيئاتها المختلفة .

الطرق اللغوية :

ان هذه الطرق معروفة وهي تنحصر في المجاز ، وكثيرا ما يعني احياء القديم ، وفي الاشتقاق والتعريب والنحت واحيانا اللغة العامية. ولقد قيدت هذه الطرق بقيود القياس الشكلي . ولقد بينا في هذا الصدد ان اغلب قرارات مجمع اللغة مقيدة مكبلة لاعتمادها القياس المجحف الذي يسترجع باليسرى ما جادت به اليمنى . لقد خصصنا دراسة شاملة لهذه الطرق من خلال تجربة مجمع اللغة العربية (٤٥) لمدة ثلاثين سنة (١٩٣٤ ـ ١٩٦٤) فوجدناها تحتاج الى تحسين عميق ان لم تكن تحتاج الى اعادة نظر .

(٤٤) السيوطي : المزهر ، القاهرة (بدون تاريخ) (ج ١ ـ ٢١١)

(٤٥) محمد رشاد الحمزاوي : مجمع اللغة العربية : تاريخه اعماله ـ تونس ١٩٧٢ م (تحت الطبع) .

ان طريقة المجاز لا تفيد نفعا ان كانت ترمي الى احياء القديم من اللغة ، وذلك ان علوم القدماء على شرفها لا تعبر في جلها عن علوم عصرنا . فهي تمثل مرحلة مفيدة من علوم الانسان العربي ومعرفته لكنها ليست العلم في ماضيه وحاضره ومستقبله . ان تطابق المعارف يدل على اشتراك ذهني فيه من اعراض الالتباس الفكري ما لا يبشر بخير . لقد بين مصطفى الشهابي بدقة الفرق الشاسع بين محتوى معاجمنا القديمة ومحتوى العلم الحديث (٤٦) ولقد اهتممنا بالقضية ايضا فدرسنا مساهمة مخصص ابن سيده في تطوير العربية (٤٧) لقد لاحظنا في هذا الصدد نوعا من الديماغوجية العلمية التي تتغنى بالقديم للتغني أو للتفنن دون ان تدرك كنهه ودون ان تستعمله . ان دراستنا التي ركزناها على استعمال مصطلحات ابن سيده في معجم النبات ـ لاحمد عيسى ومعجم الحيوان لامين المعلوف ومعجم الالفاظ الزراعية لمصطفى الشهابي بينت ان الاول استعمل من المخصص (٩) مصطلحات من (٥٨٨٥٢) مصطلحا واستعمل الثاني (٣٥) مصطلحا من (١٤٢٨) مصطلحا واستعمل الثالث (١٩) مصطلحا من (٩٩٩٦) مصطلحا ، ولا حاجة بنا الى التنبيه الى عديد خلافاتهم فيهذا الصدد ، اذ اننا قد شرحناه في محله الذي يمكن الرجوع اليه .

ان هذه الدراسة تبين ان الاعتماد على المعاجم القديمة لا يفيد في العلوم . فلا يمكن لنا ان نستغلها استغلالا محدودا الا اذا اعتمدنا منهجين متلازمين . ينحصر اولهما في استقرائها استقراء عميقا يجنبنا الحكم لها او عليها بالتخمين وبالنية الحسنة او السيئة . فيمكن اذاك ان نضمن ترتيبها وتصنيفها حسب مناهج علمية تربطها باصول العلم الحديث . اما المنهج الثاني فانه يحتم الاتفاق على ميادين استعمالها الدقيق حتى لا يبقى عرضة للتاويل الذي يؤول بنا غالبا الى الاضطراب والفوضى .

اما الاشتقاق الذي يتمثل في الاشتقاق الصغير فانه يكون الطريقة المثلى لوضع المصطلحات الحديثة ان اتفقنا على نظام يقيد صيغه ويخصصها . ان الصيغ الدالة على الالة والاداة متداخلة متناقضة والصيغ الدالة على الامراض المبداة والامراض البادية لا تتميز عن بعضها بعضا .من ذلك اننا نستعمل صيغتي فعل وفعال لنفس المرض (٤٨) .

دمل دمال	:	Furonculose
شحم وشحام	:	Graisse
فيل وفيال	:	Eliphiantes
ادم وادام	:	Dermatite

ويمكن لنا ان نجد امثلة كثيرة من هذا النوع في جميع مصادر المجرد والمزيد ، من ذلك ان مصطفى الشهابي والكواكبي ، وهما من سوريا ، يختلفان في الصيغ التي يجب استعمالها ـ واليك امثلة (٤٩) :

معرق ومعرقه	:	Diaphoretique
مخدر ومخدرة	:	Stupefiant
مقيء ومقياة	:	Emetique

ان سبل التوحيد تكاد تكون مستحيلة ما لم تثبت اختصاصات الصيغ. وتزداد القضية تعقدا عندما نلاحظ اعراض المجامع والبحاثين عن بعض الصيغ مثل : مفعل التي يمكن ان تعتمد للتعبير عن مصطلحات علم الحساب مثل :

مسدس	:	Hexagone
مسبع	:	Heptagone

كذلك صيغة فعول التي يمكن ان تستغل استغلالا كبيرا في الكيمياء :

خلول	:	Dialysable
خثور	:	Coagulable
لهوب	:	Inflammable

وما دمنا في ميدان التخصص فانه يحسن بنا ان نعتني بالاشتقاق الكبير الذي كثيرا ما استعمل للتسلي والتفنن ، اذ يمكن ان يدرس دراسة علمية بغية استعماله في مستوى او ما يعبر عنه بالغريب العلمي عند بعضهم . ان لغة الحنفشار تعتبر رد فعل عنيف على قياس النحويين ودعوة الى اعتبار الارتجال طريقة منطرق الوضع . ويمكن لهذا الرأي ان يطبق على الاشتقاق الاكبر باعتباره طريقه من طرق التنمية اللغوية التي تساعد على تخصيص المصطلحات بقدر ما تقلل من طغيان التراكم الذي يعتبر سببا من اسباب الاشتراك في الصيغ والمعاني .

في التعريب نواجه نفس الاضطراب . فنلاحظ اننا لم نوفق الى يومنا هذا الى وضع خطة موحدة لتعريب الاصوات الاعجمية(٥٠) فلقد وضعنا بعض القواعد المعقدة لنقل الاصوات الحديثة باعتماد طرق السلف دون ان ناخذ بعين الاعتبار تطور عوائدنا الصوتية لا بالنسبة للعرب فحسب بل بالنسبة للذين نقلنا عنهم قديما والذين ننقل عنهم حديثا . ولقد اشتد الخلاف في العلوم التي تستوجب الترجمة والعلوم التي تستوجب التعريب .

ولا شك ان الحل ينحصر في دراسة مقارنة تقوم حكما فصلا من طرقنا القديمة وطرقنا الحديثة وتنير لنا السبيل في هذا الميدان . فيمكن لنا ان نستخرج منها قاعدة عامة نسبية زمنيا تقر الميادين التي يجلب فيها التعريب اطلاقا مثلما هو الشان في علوم الكيمياء .

اما النحت فيكفي ان اشير اني قمت بدراسة مقارنة (٥١) للمنحوتات الواردة في معجمي الكيمياء والفيزياء اللذين جمعهما المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط . فلاحظت مما لاحظت

---

(٤٦) مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية ص : ٢٣ ـ ٤٠ .

(٤٧) محمد رشاد الحمزاوي : مكانة مخصص ابن سيده من المعجمية العربية المعاصرة او مساهمة التراث العلمي العربي في تطوير العربية ، حوليات الجامعة التونسية ج ٩ / ٧ ـ ٣١ .

(٤٨) مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية ص : ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٤٩) نفس المرجع ص : ١٠٧ .

(٥٠) مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية ص : ١٦٦ .

(٥١) محمد رشاد الحمزاوي : السوابق واللواحق وصلتها بتعريب العلوم ونقلها الى العربية الحديثة ،سيصدر بحوليات الجامعة التونسية واللسان العربي التابع لمكتب التنسيق والتعريب بالرباط .

ان « لا » العربية تستعمل لتادية السوابق التالية :

لا ـ A	اتحاد لا لوني	Combniaison
لا ـ An	لا توافقي	Anharmonique
لا ـ Assy	تحليق لا تماثلي	Synthese assymetique
لا ـ In	لا عضوي	Inorganique
لا ـ Non	لا فلز	non metal

وان ذوو وذاتالعربيتين تعبران عن	uni , Penta - mono -iso - bi
مرحل ذو معدنين ـ ذو فلزين	Relai bimetal
ذو لون واحد	isochromatique
ذات الوتر الواحد	monochororde
ذو الخمس	corps pentavalent

اما السابقة Anti فلقد ترجمت ولم تعرب لكن صيغتها مضطربة ، فهي تترجم احيانا بالمضاد والضديد في ضديد النيتوترينو (Anti neutrino) ومضاد الكلور (Anti chlore) فلقد تبدلت الصيغة من الكيمياء الى الفيزياء فما هو معيار هذا الاختلاف ؟ لا نعلم عن ذلك شيئا سوى الاضطراب القائم امامنا .

ويعود هذا الاضطراب الى اننا لم ننتبه الى وضع القضية على اسس منهجية قويمة وذلك حسب ما يلي : ـ

أ ـ وضع قائمة في جميع السوابق واللواحق اللاتينية المستعملة في اللغات الاوروبية الحديثة التي ننقل عنها اليوم .

ب ـ استقراء جميع الطرق العربية القديمة والحديثة التي استعملت لنقل البعض منها .

ج ـ استنتاج قاعدة عامة توحد بين متناقضها وتستكمل ناقصها تمهيدا الى نظام محكم يشملها جميعا .

ويمكن لنا ان نتتبع نفس المنهج فيما يتعلق بمدى استعمال العامية في بعض العلوم لا سيما ما يعبر منها عن الالبسة والاطعمة والثياب والعوائد التي تختلف من قطر عربي الى اخر . فضلا عما يمكن استعماله من العامي المشترك بين الاقطار العربية مثل اداة النفي واللاحقة الدالة على الحرفة كقهواجي ، وموسيقار الخ ..

وخلاصة القول ان قضية التوحيد تحتاج الى برنامج يكون موضوع مخطط لتنمية اللغة مثله مثل المخططات الاقتصادية والاجتماعية التي تعتبر اللغة جزءا منها . ويمكن ان يكون ذلك على النمط التالي :

ـ رصد ما يزيد على واحد في المائة من مدخول كل قطر عربي الى البحث العلمي والى مكافاة الباحثين مكافاة مفيدة حتى يتفرغوا لذلك البحث .

ـ ربط قضايا اللغة بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والادارية في الاقطار العربية .

ـ تكوين هيئة علمية عربية عامة تنسق برنامج البحوث وذلك حسب سنوات معينة . ولا باس ان يشترك في تلك الهيئة الاختصاصيون في علم الاقتصاد والاجتماع والنفس وخبراء انمائيون .

ـ وضع مراجع نقدية مفهرسة تعرف بالانتاج العربي حسب الاختصاصات المختلفة .

ـ تكليف لجان مختصة لوصف التراث القديم والحديث وتقييمهما علميا .

ـ تخصيص كل قطر عربي بعلم من العلوم وقضاياه لتطبيق هذا البرنامج حسب اعوام معينة .

ـ عقد مؤتمرات متوالية في البلدان المسؤولة عن اختصاصها لتقييم الاعمال المنجزة واتخاذ القرارات الجماعية .

فوحدة الثقافة تفترض وحدة المنهج وتوزيع الاعمال والمسؤوليات وتنظيمية القواعد Systemah sation والا آل التوحيد الى تمذهب شكلي لا هدف له الا الاستبداد الفردي بعلمنا المشترك وذلك لغايات فيها من الخطر على وحدة الثقافة ما يفوق اختلافاتنا الموضوعية الحالية .

د . مجيد حلاوي
مجيد الماشطه

الترجمة والتعريب بين الفصحى والعامية

يضع هذا العنوان امام القارىء مصطلحات قد لا تكون ذات دلالات واضحة . فقد اختلف الباحثون مثلا في معنى الترجمة فكان البعض يرى انها عملية تحويل نص مكتوب او منطوق من لغة الى اخرى في حين ان البعض الاخر يرى بانها عملية نقل للافكار بين لغتين معينتين (١) ومن غير الدخول في تفصيلات هذه النظريات نريد بالترجمة هنا عملية ايجاد مقابل عربي لما يجد من المصطلحات والكلمات الحديثة في العلوم التطبيقية والانسانية ، وذلك اما باعادة احياء كلمات عربية مثلا او بابتداع كلمات جديدة . وليس من الضروري في كلتا الحالتين ان يكون المصطلح المختار مطابقا تماما « لمفهوم المصطلح الاجنبي » اذ لا علاقة عموما بين شكل الكلمة وما تدل عليه من معان . حيث ان اكتساب الكلمة لمعان معينة هو مسالة تعارف اجتماعي محض . وحيث ان المصطلح كما يقول المرحوم الدكتور مصطفى جواد (لا يعني تسمية جامعة مانعة للمسمى) (٢) . كما وان تغير معاني الكلمات بتغير المكان والزمان قد اصبح من اول بديهيات علم اللغة الحديث .

اما التعريب فنعني به او « ما كان العرب قديما » يفهمون من هذا المصطلح « اللفظ الاعجمي الذي ادخلته العرب في لغتها وصقلته على منهاجها واوزانها او تركته بغير صقل وربما تناولته بالاشتقاق » (٣) وما اخذت به المجامع العلمية العربية كالذي ورد عن مجمع اللغة العربية في القاهرة الذي « اجاز استعمال بعض الالفاظ الاعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم »(٤) . ونفهم من ذلك ان التعريب يتناول الكلمة الاجنبية التي تستعمل في العربية من غير تحوير وهي ما اصطلح على تسميته بالدخيل مثل الراديو والبايسكل او الكلمات الاجنبية التي حورت الفاظها مثل ماطور (في العامية motor وتلفزيون Television وباتري من Battery واشتقاق فعل يتلفن من تلفون) .

اما العامية والفصحى فامرهما اعسر ، اذ ليس هناك اتفاق على مدلولهما بين الدارسين واللغويين . لقد استنكر العقاد مثلا « التمييز بين العامية والفصحى على اساس الوضع الاجتماعي للفرد . فتكون العامية لغة (الضعفاء والفقراء ... والفصحى لغة العلمية والنبلاء .... وانما التمييز بينهما تمييز بين الجاهل وان كان ذا مال وجاه وبين المتعلم وان لم يكن له من المال والجاه نصيب » (٥) . يتضح من هذا ان العامية عند العقاد ارتبطت بالجهل والفصحى بالتعليم .

اما محمود تيمور فقد ربط العامية بالكلام والفصحى بالكتابة . وعرض لمن يقول ان العربية لغة كتابة ولو كانت لغة كلام لعاشت في السوق والبيت ولنمت من تلقاء نفسها .. ثم وصف تيمور العامية بانها لغة لا ضبط لها ولا نظام .. اما لغة الكتابة فقد انصقلت على ترادف الايام واحكمت ضوابطها في الالفاظ والاساليب (٦) ويتفق في مسالة الضوابط وخلو العامية منها دارسون كثيرون (٧) وفي راينا انه من السذاجة تماما « اتهام العامية بكونها لغة » لا ضابط لها ولا نظام ، ان نظرة النحاة العرب الى اللهجات العامية على انها من لغات الدرجة الثانية - مقارنة بالفصحى - قد جعلتهم يهملون دراستها واستنباط ضوابطها وجعلت بعض الدارسين يتصورون خلوها من القوانين التي تحدد نظامها . وليس القصد هنا مناقشة مدى احقية النحاة في اهمال دراسة اللهجات العامية ، المهم ان الاهتمام المتزايد حديثا في سائر انحاء العالم ، باللهجات المحلية اثبت ، وهذه حقيقة لا تقبل الحالات الاستثنائية في اية لهجة من لغات العالم ، ان لا لهجة فصحى او عامية بدون ضوابط او قوانين .

ويضيف هؤلاء بان العامية غير قادرة على ان تكون اداة طيعة للادب الرفيع ولا ترجمانا صادقا للفن والحضارة السامية والوان المشاعر ويربطون العامية بالاستغناء عن الاعراب الذي هو خصيصة من خصائص الفصحى (٨) ومرة اخرى فاننا نختلف في مسالة عدم قدرة اللهجات العامية على ان تكون « ترجمانا » « صادقا » للفن والحضارة السامية » ، اذ لا علاقة في الواقع بين رفعة الادب ونوع اللهجة التي يكتب فيها .. لقد اثبت الشعر الشعبي وخصوصا « الغنائي انه احيانا اصدق تعبيرا من الشعر الفصيح. كما ان من الخطا ان نعيب على العامية خلوها من الاعراب ،وكل ما يمكننا قوله - ان كنا موضوعيين فعلا - ان الاعراب ظاهرة تتباين فيها الفصحى والعامية ، وان هذه الظاهرة لا تصلح ان تؤخذ مقياسا « لجودة اللهجة او رداءتها » ... لقد اشار المستشرق الالماني يوهان فك الى كون الاعراب علامة فارقة بين الفصحى والعامية ولكنه فارق سطحي . ان جوهر القالب اللغوي وحقيقته هو الذي يميز الطابع الصحيح للعربية الفصحى (٩) . وسواء اتفقنا مع هذه

الاراء او اختلفنا معها ، فان الذي يهمنا في موضوع الترجمة والتعريب هو فيما اذا كانت ثمة حدود فاصلة بين العامية والفصحى او بين لغة الكلام ولغة الكتابة .

واذ يتصور البعض ان من السهل وضع هذه الحدود فهم واهمون ... هناك بلا شك لغة عامية (مفردات وتراكيب) لها ما يقابلها بالفصحى .. ولكن هناك منطقة تلتقي فيها الفصحى بالعامية بحيث يصعب ان ننسب مصطلحا ما الى العامية او الفصحى . وفي حالتنا هذه نطرح هذه الاسئلة .. هل يكون المعرب من فئة العامي دائما والمترجم من فئة الصحيح ؟

هل تكون كلمة (باليه) عامية لانها معربة و (رقص ايقاعي) فصيحة لانها مترجمة ؟ او (بالرينا) عامية و(الراقصة الاولى) فصيحة ؟ لو صح هذا ماذا نقول في قرار المجامع اللغوية فيتعريب هاتين الكلمتين وجواز استعمالها في لغة الكتابة ومثلها عشرات ؟

اذن هل يكون قرار المجامع هو الحد الفاصل؟ فيدخل في العامية ما يشاء ويخرج ما يشاء ؟ لقد بدأت المجامع تتساهل في التعريب احيانا كما نلاحظ في هذين المثالين ، وفي بعض الكلمات التي تتعارض مع قواعد اللغة كما في جواز ادخال (ال) على (غير) رغم أنها كما يقول النحويون (موغلة في التنكير ولا يجوز دخول « ال » عليها) او في جواز استعمال « مَتحف » بدلا من « مُتحف » كما فعل مجمع اللغة العربية في القاهرة (١) او عند بعض دارسي اللغة الذين جوزوا الخطأالشائع (تقييم) على الصواب المهجور (تقويم) مثلا (١١) ثم هل يكون استعمال الكلمة عينها في الكلام والكتابة دليلا على فصاحتها او على عاميتها ؟ قد لا تكون الاجابة على هذه الاسئلة مقنعة ، ولكن لها دلالة واحدة وهي انه لا توجد حدود فاصلة بين العامية والفصحى دائما . ذلك ان بعض ما كان عاميا « اصبح فصيحا » وبعض ما كان فصيحا اصبح ميتا او مهجورا ..*

ان مسالة الترجمة والتعريب والعامية والفصحى تتداخل فيما بينها وكلها تشير الى ازمة اللغة العربية الامر الذي يستدعي دراسة فاحصة واتفاقا على اسس ينبغي الاخذ بها في الاقطار العربية كافة وكل ذلك يرتبط بالمشكلة الاكبر وهي موقف العربية من الحضارة المعاصرة والتطور التقني الحديث . ان مسايرة اللغة العربية للتطورات العلمية في العالم امر هام للبقاء على اللغة حية ، وهذا يثير مسالة قدرة العربية على الاستيعاب وتشكيك البعض بها : هل يقصد بالاستيعاب بقدرة اللغة على تطويع الكلمات الاجنبية لاصولها وقواعدها ؟ ام هل يقصد بها استعداد اللغة لتقبل المصطلح الاجنبي؟ قد يكون هذا او ذاك ، على ان الذي لا يختلف عليهاثنان ان الاستيعاب يدل على قدرة الاستجابة لمتطلبات ابنائها في التعبير عن الحاجات المادية والمعنوية التي تفرضها الحياة . رغم أن علم اللغة الحديث قد اثبت ان قدرة اي لغة على الاستيعاب تخضع لاعتبارات حضارية وليست لغوية ، وان لا لغة في العالم اقدر من غيرها على استيعاب الكلمات من لغة اخرى ..

ان مقارنة اللغة الانكليزية مثلا التي يربو عدد كلماتها اليوم على نصف المليون (١٢) بلغة الاسكيمو التي لا يجاوز عدد كلماتها عشرات الالوف لا تعني ان الانكليزية اقدر لغويا من الاسكيمو قدر ما تعني أن الناطقين بالانكليزية هم اعقد واعلى حضاريا من شعب الاسكيمو ، حيث ان لغة الاسكيمو ـ انسب لاهلها في وضعهمالحالي من الانكليزية التي تمتلك مئات الالوف من الكلمات التي لا يحتاجونها حاليا . ولن يكون عسيرا على لغتهم استيعابها في حالةاحتياجهم حضاريا لها (١٣) . ولنفرض جدلا ان شعب الاسكيمو بوضعه الحضاري الحالي استبدل فجاة ودون تدرج ـ وهذا ضرب من المستحيل طبعا ـ لغته باللغة الانكليزية فان مفردات انكليزية سوف تكون مقاربة لمفردات لغته الحالية في عددها . والدليل على ذلك ان لغة الاسكيمو على قلة عدد كلماتها ، اغنى من الانكليزية في الاسماء التي تدل على انواع الجليد واصناف جلود الدببة وانواع الخيام مثلا .. نستنتج من ذلك ان مشكلة العربية لا تكمن في قدرتها او عدم قدرتها على الاستيعاب وانما في مدى كفاءة الجهود التي تبذل لوضع الاسس الصحيحة لملاحقة التطور العلمي الحديث ولاستغلال كل امكانيات اللغة مما يمكنها من التطور *

ان مهمة سامية وشاقة في ان واحد كهذه تتطلب جهود كل المخلصين افرادا وجماعات ومؤسسات .. علما ان اهم ما ينبغي الاخذ به هو العمل الجماعي الموحد المنسق اولا والاتفاق على مبادىء سليمة يعمل بموجبها ثانيا ، لان غياب التنسيق والاعتماد على الجهود الفردية وغياب المبادىء العامة تضيع جهودا كثيرة ، ونود في هذا البحث ان نركز على النقطة الثانية ، اي مسالة المبادىء والقواعد التي يجب الاخذ بها في العمل ..

ان اية لغة تواجه التحدي الحضاري والعلمي باسلوبيناثنين: الترجمة والتعريب ، وفشل اللغة في استخدام هذين الاسلوبين يؤدي بها الى الجمود وبالتالي الموت البطيء .. لقد واجهت العربية قديما التحدي بالامرين معا فترجموا وعربوا ، وموقف اللغة الان لا يختلف عن موقف اللغة قديما في النوع وانما في الدرجة ،اذ ان العلم يقفز قفزات بعد ان كان يسير الهوينا ، وبالتالي فانالمصطلح الجديد يطل علينا بوجهه صباح مساء ، اضافة الى ان الاختلاط الحضاري اليوم اعنف منه في اي وقت مضى ، ومن شان هذا الاختلاط ان يطلع كل شعب على ما عند الشعوب الاخرى من فنون وعادات مع ما لهذه الفنون والعادات من تعابير ومصطلحات . والسؤال الذي يشغل بال اللغويين اليوم هو اي الطريقتين اسلم : الترجمة ام التعريب ؟ وهل يجري اختيار اي من هاتين الطريقتين بمحض ارادة الناطقين بالعربية ام ان ثمة تيارا خفيا يعمل على الترجمة احيانا والتعريب احيانا اخرى ؟ اننا مع الترجمة بادىء ذي بدء . ففي مقابل التحدي الذي تواجهه اللغة يبرز سلاح الترجمة كوسيلة دفاع ..... انه الحل الامثل لانه يحفظ للغة نقاوتها رغم ان النقاوة في اللغة مسالة نسبية طبعا ويمكن اللغة من مسايرة التطورات الحضارية الحديثة . ومع هذا فان الواقع قد اثبت ان تيار الترجمة يلاقي العديد من المشاكل والصعوبات التي تعترض طريقه وتجعلهيتعثر ويتباطأ في فاعليته . ما الحل اذن ؟

قد يتبادر الى الذهن ان نلجا الى الاسلوب الثاني وهو التعريب لكننا لا نرى ذلك ، ان اخر الدواء الكي .. ففي حالة فشل الترجمة في موقع ما نلجا الى التعريب اي اننا نقر مبدأ الضرورة ،ان فشل الترجمة في كثير من المواقع يحفزنا اولا الى اعادة النظر في اسلوب الترجمة المتبع حاليا والى فحص المصطلح المترجم ودراسته لمعرفة السبب في عدم ذيوعه وانتشاره . ولعل من اهم اسباب فشل الترجمة ما يلي :

١ ـ طلب الدقة في التعبير من غير ملاحظة قدرة المصطلح على الشيوع او مدى تقبل الجمهور له . الواقع ان مسالة الالفاظ مسالة اصطلاحية وانه اذا اتفق على اعطاء المصطلح المترجم المعنى الذي له في اللغة المترجم عنها حتى لو لم يكن المصطلح المترجم دقيقا فان ذلك لا يهم كثيرا (ان الاصطلاح عند وضعه مقابل النص الاجنبي كفيل باكسابه الدقة المطلوبة . فالترجمة العربية (الشاطر والمشطور وما

بينهما) قد تكون دقيقة كمقابل للمصطلح الاجنبي (ساندويج) ولكنها لم تنل ذلك الذيوع المطلوب . ويكفي هنا ان نتذكر ان اللفظة الاجنبية نفسها (ساندويج) ليست لها اية دلالة على طبيعتها ، فالكلمة في الاساس اسم علم لشخص الا انه اصطلح على اطلاق هذا الاسم على نوع من المأكولات وهكذا كان ..

٢ ــ ان هذا الحرص على الدقة يقود المترجم العربي احيانا الى التركيب ، مما يكون غالبا سببا في فشل المصطلح المترجم . ان التركيب عموما يضعف قدرة المصطلح على الانتشار والقبول ، ولعل مرد ذلك ان المصطلح المركب اصعب على اللسان من المصطلح المفرد. وقد يكون هذا هو السبب في فشل ذيوع ((ما فوق الواقعية امام نظيرتها المعربة)) سريالزم في حين ذاعت الفاظ ((الرمزية والانطباعية)) وكذلك في فشل ذيوع (في العامية على الاقل) الفاظ الطائرة الاحامية او الطائرة المروحية للهيليكوبتر والدراجة الهوائية للبايسكل مقارنة بنجاح ذيوع الفاظ ((الطائرة)) و ((القطار)) و ((البارجة)) و ((السيارة)).

٣ ــ التضحية بالجرس الموسيقي للمصطلح المترجم من اجل دقة التعبير . ان مراعاة الذوق العام في ايجاد المقابل العربي يساعد كثيرا على ازالة الفجوة بين ما يجري في اروقة المجامع العلمية والاستعمال اليومي للغة ، كما و ((ان الذوق في اختيار اللفظة للترجمة عنصر هام وفعال في المعاونة على اتساع نشرها وسرعة تداولها والانس بها)) . (١٤)

ان عدم مراعاة هذا الذوق ربما كان السبب في عدم شيوع اختيار المرحوم الشيخ احمد رضا للفظة (بزيغ) (gentieman) (١٥)، ولفظة ((نجاش)) (chauffeur) ولفظة (لبوس البحر) للمايوه وكذلك (مذياعات) للراديوات و(الابزن) للبانيو ، علما بأن لفظة (الابزن) نفسها ليست عربية وانما فارسية اصلها (الاب زن) اي الحوض الذي يغتسل فيه . (١٦) .

٤ ــ ان تيار الترجمة سوف يوفر كثيرا من العناء اذا ما اعتمد الى حد ما على اسلوب النحت بدل الاعتماد كليا على الاشتقاق . ويسهل النحت كثيرا اذا استخدمنا ظاهرة من المؤسف انها تعاني من الاهمال طيلة هذه القرون .. وهي ظاهرة استخدام البوادي واللواحق في توليد الكلمات . والحق ان بعض اللغات كالانكليزية والفرنسية قد استفادت كثيرا في اغناء مفرداتها باستخدام هذا الاسلوب الذي يمكن للغة العربية الاستفادة منه في انجاح تيار الترجمة .
نلاحظ مثلا ان الالفاظ الاجنبية telephone , teléscope , telegraph قد ترجمت الى هاتف ومجهر وبرق على التوالي ، وليس القصد هنا تقييم اختيار هذه الالفاظ . المهم ان عدم اعتمادنا على اسلوب البوادىء واللواحق قد اخل بالترابط القائم بين هذه الالفاظ الثلاثة بصيغها الانكليزية .

ان اداة (لا) قد مكنتنا من نحت الكثير من التعابير الحديثة ووفرت علينا جهد اشتقاق الفاظ جديدة ، والامثلة هنا كثيرة :
لا شعوري ، لا ارادي ، لا مركزي ، لا متناهي ..

ولكن ماذا عن البوادىء الاخرى ؟ لقد طرح المرحوم الدكتور مصطفى جواد مجموعة مقترحات جريئة وجديرة بالتبني والرعاية . اقترح مثلا كلمة ((غب)) كبادىء بمعنى ((بعد)) او ((ما بعد)) : غبمدرسي وغبجليدي وبادىء ((قب)) من قبل قبتاريخ وقبلوغ . كذلك اقترح نحت الكلمات ((خارج)) و((فوق)) و ((تحت)) على صيغ المقاطع : خا ــ فو ــ تح، مثل خامدرسي Extraschool فوسوي Surnormal وتحشعوري Sulconscious على التوالي (١٧) .

٥ ــ ان وتيرة العمل الترجمي ابطأ من وتيرة التعريب ، فالمصطلحات في استحداث دائم والترجمة تحتاج الى جهد ووقت لعملها ، اما التعريب فلا يبذل فيه اي جهد ، انه يسمع الكلمة فيستعملها بنفس اللفظة مع بعض التحوير احيانا وهذا ينطبق على ما يستجد في المجالات العلمية وغير العامية . اضافة الى هذا ، فان اسلوب التعريب يسبق دائما اسلوب الترجمة ، ذلك ان ما يجري عمليا هو ان الكلمة الوافدة تلج باب التعريب اولا ، وان اسلوب الترجمة لا يبدأ بالتصدي لها الا بعد ان يحتل شكلها المعرب موطيء قدم له في العربية .. وسهولة التعريب هذه تلعب دورها عادة في اغراء الذين تدخل اللفظة الوافدة في مجالات اختصاصاتهم في الاكتفاء بالشكل المعرب وعدم التحمس لصيغتها المترجمة ، خاصة اذا تاخرت عملية ترجمتها وتأصل شكلها المعرب في الاستعمال . ويستوجب كل هذا من اسلوب الترجمة ان يضرب بسرعة وفي الوقت المناسب ، وان لا يسمح للمعرب بالتأصل والاستقرار . فلو تتبعنا تاريخ دخول المصطلح الاجنبي المترجم في الاستعمال اليومي وتاريخ ظهور المصطلح المعرب لوجدنا ان الاخير دائما اسبق من الاول . فكلمة (سينما) مثلا وجدت طريقها الى الاستعمال اليومي قبل ان تجد الكلمة المترجمة (دار الخيالة) طريقها . وقل مثل ذلك عن مصطلحات اجزاء السيارة مثلا . لقد وضعت المجامع العلمية مقابلات مترجمة لهذه الاجزاء الا انها لم تستعمل . فالمسألة هنا اذن ليست مسألة قدرة على الاستيعاب وانما مسألة تقبل الجمهور او عدم تقبله . ان دوائر المرور والشرطة في العراق مثلا تستعمل المصطلحات المترجمة لاجزاء السيارة في نشرياتها ودورياتها وما زال الجمهور بطيئا جدا في قبولها . نحن في اعتقادنا امام مشكلتين لم نفكر في الفصل بينهما :

الاولى ان هناك مصطلحات لها ما يقابلها في العربية ولكنها لم تنل الذيوع الكافي وهي مشكلة اجتماعية نفسية . والاخرى ان هناك مصطلحات لم تجد مقابلا عربيا لها وهي مسألة لغوية في الجوهر ..

وفي كلتا الحالتين نعتقد ان من الافضل للمجامع العلمية ان تؤلف لجانا مختصة تتلقف ما يستجد في الاستعمال اليومي والتطبيق العلمي من مفردات وافدة قبل شيوعها باشكالها الاجنبية . وبمحاولة التنبوء ما امكن بما قد يشيع من كلمات وافدة بدافع الضرورة الحضارية . من الممكن ان نلاحظ مثلا ان المفردات التالية بدأت حديثا في التغلغل في العربية ، على صعيد العامية بصورة خاصة، ولا يزال في الوقت متسع لايجاد المقابلات العربية لها . من قبل ان يتأصل استعمالها :

highway , minicar , boyfriend , beetle , one - way

٦ ــ ان العبء في الترجمة ملقى عمليا برمته على كاهل المجامع العلمية فقط ، دون معاضدة جدية من وسائل الاعلام كالاذاعة والصحافة والسينما والمؤسسات الثقافية الاخرى ، ان المجامع العلمية اشبه بالسلطات التشريعية التي تحتاج الى سلطات تنفيذية تحول مقرراتها الى وقائع ، وانها بدون معاونة هذه السلطات التنفيذية لا يمكن ان نصفق . ان العاملين في حقول الاعلام خاصة يستطيعون ان يلعبوا دورا فعالا في انجاح اسلوب الترجمة وذلك بالاسراع في اشاعة الصيغ المترجمة وتشجيع استعمالها . اما بالنسبة الى فئة العلماء المتخصصين في سائر المعارف والذين تشكل مصطلحاتهم الكثرة الكاثرة فهم بشكل عام لا يبذلون اي جهد في الترجمة لان تعاملهم في ثقافتهم العلمية هو في الاساس تعامل مع اللغة الاجنبية ، ولذلك فهم لا يشعرون او قل لا يتحسسون الحاجة الى ترجمة المصطلح وقد اخذت

هذه المشكلة سبيلها الى الحل بالتزام سبيل تعريب العلوم الجاري الان في بعض الاقطار العربية .. على ان هؤلاء العلماء لا يستطيعون ان يعملوا ـ بحكم عدم تخصصهم في اللغة العربية ـ بمعزل عن المجامع والمؤسسات اللغوية ، ومن هنا لا بد ان يكون هناك تعاون تام وتنسيق كامل لاشاعة المقابلات العربية واستعمالها في الممارسات اليومية كالابحاث والتدريس .

لقد لاحظنا لحد الان كيف ينصدى الاسلوب الاول (الترجمة) للمصطلح الوافد والصعوبات التي تعترض سبيله . اما الاسلوب الثاني (التعريب) فيبدو ان امره ايسر .. حيث انه لا يكاد يحتاج فيه الى جهد لا في اختيار المصطلح ولا في فرضه على الناس . في حين ان اسلوب الترجمة يتطلب اقصى الجهود لانجاحه .

ان الحديث عن الترجمة والتعريب لا بد ان يذكرنا بمؤتمر القاهرة الذي عقد عام ١٩٠٨ بين انصار التعريب وخصومه (١٨) يوم رفع انصار التعريب شعار الواقعية وطالبوا باقرار مبدأ التعريب لما يوفره هذا المبدأ من وقت وجهود اخرى بها ان تصرف في الميادين العلمية النافعة ، ولما يؤدي هذا المبدأ الى اغناء العربية بالفاظ وتعابير جديدة بصورة دائمة . ان حجة انصار التعريب هو ان طريق الترجمة لا يمكن ان يلاحق التطور العلمي السريع . لقد سمعنا من يقول ان العلم يقذف يوميا بمائة مصطلح جديد (١٩) ومن غير المعقول ان تستطيع الترجمة اللحاق بكل ذلك، وهذا صحيح.

ان معجم المصطلحات العسكرية للجيوش العربية مثلا يضم ٨٠،٠٠٠ مصطلح عسكري ، فاذا كان معجم واحد يضم كل هذه الكثرة من المصطلحات فكيف اذا جمعت معه مصطلحات الفيزياء والكمياء والزراعة والفنون والطب وغيرها ؟ وهناك مبرر اخر للتعريب وهو ان المصطلح العلمي يقتصر استعماله عادة على ذوي الاختصاص ولا يضير اللغة ان تدخل فيها هذه المصطلحات طالما ان استعمالها يقتصر على فئات محدودة من المجتمع . زد على ذلك ان بعض المصطلحات قد اكتسبت صيغة عالمية ، وخصوصا في لغات الامم التي تساهم اكثر من غيرها في تطوير التقنية والعلوم كالانكليزية والروسية والفرنسية والالمانية .. رغم ان هذا المبدأ ـ عالمية اللفظة ـ لم يمنع الالمانية مثلا من ايجاد كلمتين المانيتين للفظة « اوكسجين وهيدروجين » .

وينصدى المرحوم حفني ناصف لانصار التعريب معلنا ان « سياسة الباب المفتوح » (٢٠) سوف تؤدي حتما الى شل العربية وعدم تمكينها من مسايرة الركب الحضاري الحديث . كذلك لا يقر زميله « العربي اصلح من العربي » (٢١) واذا كان دعاة اباحة التعريب يتذرعون بان التعريب ليس بدعة في العربية ، فان الدكتور مصطفى جواد يذكرهم بان عربية العرب منذ ايام الجاهلية حتى القرن السادس للهجرة كان حوالي ٩٠٠ كلمة اي بمعدل ثلاثة معربات لكل سنتين (٢٢) ،وهذا العدد ضئيل جدا اذا ما قورن بالاف الالفاظ التي استجدت في العربية ايام كانت لغة العلوم والفنون للعرب ولغير العرب .

ولعل الدكتور مصطفى جواد يقصد بذلك ان العرب قديما لم يلجأوا الى التعريب الا عند الضرورة بدليل قلة المعربات طيلة هذه الفترة الزمنية الطويلة ، غير انه غابت عليه حقيقة اساسية وهي ان العرب قديما لم يواجهوا هذه الكثرة من المصطلحات التي اوجدها التطور العلمي الحديث ، وبالتالي فان الحاجة الى التعريب في عصرنا الحاضر اشد ضرورة مما كانت عليه في الماضي . ان القياس على الماضي يصبح دليلا على سلامة اسلوب التعريب كوسيلة لتطوير اللغة وتنميتها ولكنه لا يصح دليلا على قلة المعربات او كثرتها .

ويستدل الدكتور جميل صليبا على عدم ضرورة الافراط في التعريب اذ انه يمكن الرجوع الى كتب ابن سينا والرازي والخوارزمي للاستفادة من المصطلحات الموجودة فيها غير المتداولة حاليا في التعبير عن المعاني العلمية المستحدثة . (٢٣) .

ولقد تعددت وجهات النظر في مسألة التعريب .. ما الذي نعربه وما الذي نتركه ؟ تلك هي المسألة كما يقول شكسبير .. ان موقف اللغويين والمجامع العلمية في الاخذ بمبدأ التعريب وقت الضرورة .. او عندما نرى ان المصطلح غير المعرب اصلح من العربي هو موقف غامض لانه لا يطرح حلولا واضحة يمكن الالتزام بها . فما اسهل ما يعترض فيقول .. متى الضرورة ؟ وما هو مقياس صلاحية الاعجمي على العربي ؟ فنقف عندئذ صامتين . لقد طرح البعض ان نترجم الاسماء الطويلة مثل بيولوجي وجيولوجي وان نختار لها اسماء عربية خفيفة الوقع على اللسان والاذان فرارا من الثقل ، اما ما كان قليل الحرف قصير الرنين ومقابله العربي بعيدا عن التناول مثل كلمة فلم ، لنش ، قنصل ، متر ، جاكت فالخير في تعريبه (٢٤) وهذا الرأي مردود لانه يعقد المسألة بدلا من ان يحلها . ذلك ان بعضا من الكلمات الطويلة مثل الكلمتين اللتين استشهدنا بهما لهما ما يقابلهما في العربية وهما شائعتان فلماذا نهملهما ؟ ونفس الشيء ينطبق على النموذج الثاني من الكلمات . وفي هذا الامر ينبغي ان نتحلى بالواقعية فنوفر جهدا عظيما ونحل بعضا من المشكلة .. لقد طرحنا في بداية حديثنا مبدأ التنسيق بين العاملين في التعريب على امتداد الوطن العربي . دفعنا الى ذلك ما نلاحظه من تبعثر الجهود فيما لا جدوى منه .. لقد تعددت الاراء والمصطلحات العربية بعض الاحيان ـ مقابل المصطلح الاجنبي . وهذا يدعو الى الارتباك . فاذا كان هناك مصطلح واحد مألوف كالتابع مثلا مقابل Satellite فلا نرى ضرورة لان نبتكر مصطلحا جديدا يزعم انه اكثر دقة مثل « المواكب » لان المصطلح الاول اكتسب المعنى المراد له بالاستعمال ، وقل مثل ذلك بالنسبة للمصطلحات التالية :

المطير بدلا من المطار .

الثالوجة بدلا من الثلاجة .

المجماد بدلا من المجمدة .

الجاهور بدلا من مكبرة الصوت .

المسجال بدلا من المُسجِّل .

المُسمعة بدلا من سماعة التليفون . (٢٥) .

الحيسوب بدلا من المحاسب .

المداد بدلا من قلم الحبر .

المنصة بدلا من خشبة المسرح . (٢٦) .

لان مثل هذا العمل يواجه عقبة ازاحة المصطلح الاول المترجم . وكان اولى ان توجه الجهود الى ترجمة المصطلح المعرب على الاقل في الوقت الحاضر .

لقد اشرنا في بداية حديثنا الى ضرورة وضع مبادىء عامة نلتزم بها في هذه المسألة ، اننا نتقدم الى المؤتمر بالمبادىء التالية لمناقشتها واقرار ما هو نافع منها :

١ ـ ان نتجنب تعدد الترجمات للمصطلح الواحد ونكتفي بترجمة واحدة .

٢ ـ ان نتجنب التركيب في المصطلح المترجم .

٣ ـ ان نتوجه الى ترجمة الجديد في المصطلحات قبل ان تشيع.

٤ ـ ان نترك المعربات ذات الصفة العالمية .

٥ ـ ان نصرف النظر الان عن ترجمة ما هـو مترجم حاليا بزعم عـدم دقتـه .

٦ ـ ان نركز الجهود لترجمـة المصطلحات في العلوم الانسانية.

الهوامش

(١) الصافي : الترجمـة بين النظرية والتطبيق (البصرة ١٩٧٤) ص ٤ .

(٢) مصطفى جواد : المباحث اللغويه في العراق ومشكلة العربية العصريـة بغداد ١٩٦٥ ص ١١٥ .

(٣) عباس حسن : اللغـة والنحو بين القديم والحديث (القاهرة ١٩٠٦) ، ص ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٥) عباس العقاد: بحوث في اللغة والادب (القاهرة ١٩٧٠)ص٤٥.

(٦) محمود تيمور : مشكلات اللغـة العربيـة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٩ ـ ١٠ .

(٧) اللغة والنحـو بين القديم والحديث ص ٢٥٥ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٥٦ ـ ٢٥٤ .

(٩) العربية (القاهرة ١٩٥١) ص ٢ ـ ٣ .

(١٠) اللسان العربي ـ مجلد ٩ ج ١ ص ٤٦٥ .

(١١) المصدر السابق ٤٦٤ .

(١٢) Pit Corder , « Introducing Applied Linguistics» P . 214

(١٣) Robert Hall « Linguistics & your Language »P.3

(١٤) محمد عبدالغني حسن : فن الترجمـة في الادب العربـي (القاهرة ١٩٦٦) ١٩١ .

(١٥) البزيغ في اللغة : اللبق الظريف .

(١٦) فـن الترجمة في الادب العربي ١٩٣ .

(١٧) المباحث اللغويـة في العراق ص ٩٩ .

(١٨) فـن الترجمـة : ص ١٢ .

(١٩) اللسان العربي : مجلد ٩ ج ١٠ ، ص ١٢ .

(٢٠) فـن الترجمـة : ص ١٢ .

(٢١) المصدر السابق : ص ١٦ .

(٢٢) المباحث اللغوية في العراق .

(٢٣) مجلة العربي العدد ١٨٢ ص ١٢١ .

(٢٤) اللغـة والنحـو بين القديم والحديث : ص ٢٣٤ .

(٢٥) مجلة اللسان العربي (١٩٧٠) : المجلد ٧ : الجزء٢ ص ٥٢.

(٢٦) مشكلات اللغـة العربية : ص ١٧٣ ،١٢٨ .

د . ابراهيم السامرائي

العربية والمصطلح العلمي

العربية احدى اللغات الحية . وهذا يقتضينا ان نفهم فنسلم بانها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة . وهي احدى لغات سامية درست معالمها وامحت اصولها فلم تبق الا هذه اللغة القويمة . ولا بد من الاستطراد قليلا فاقول انها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور . سيقول قائل ان العبرانية لغة قائمة وانا اقول ان هذه العبرانية الجديدة ليست الا مادة جديدة اعيد بناؤها بصورة جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم . ومن اجل هذا فان علم اللغة الحديث يرفض أن تكون هذه الاداة اللغة الطبيعية لهذه الاشتات المتنافرة .

ولا بد لي ان ادع هذا الاستطراد الموجز فاعود الى العربية لاقرر انها اللغة الحية وانها ثبتت ازاء العصور ، وانها كانت خير وسيلة للاعراب عن حضارات مزدهرة . وآية ذلك ان العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر الوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة، ولا اراني منساقا انسياقا عاطفيا حين اقرر انها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي ، ومن اجل هذا فقد كتب المفكرون من غير العرب ونسوا لغاتهم وقرروا ان لا سبيل الى الاعراب عن الفكر الفلسفي مثلا الا بهذه العربية . ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من اسباب الحياة ما اعان على استمرارها بهيئة معلومة . ذلك اننا معاشر العرب قد ورثنا تراثا ضخما هو مادة هذه اللغة . ولولا هذا التراث وعلى رأسه كتاب الله ــ جل وعلا ــ لآل امر هذه اللغة الى لغات عدة كما هي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت الى الرومانية والايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية .

لم يكن شيء من هذا في العربية ، وذلك ان العربية ما زالت لغة امة باسرها في بقاع فسيحة من العالم هي البلاد العربية . ولو عمل اهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم ان يوسعوا من هذه الرقعة فتعم لغتهم في بقاع افريقية وغير افريقية ممن فطروا على الاسلام دينا وآمنوا به فكرا وسلوكا . ومع كل هذا اننا نواجه مشكلات في هذه العربية بسبب اننا لا نملكها كما كان اسلافنا يتملكون منها . واننا نتعلمها تعلما ونواجه في تعلمها الصعاب ، واننا قد نعزف عنها شاعرين ام غير شاعرين انسياقا مع مفهوم خاطىء ضال هو ان هذه اللغة قاصرة عن مواجهة الفكر الحديث . ثم اننا مقصرون في تعلمها وهذا التقصير يعني ان وسائل تعلمها متخلفة عن العلم الصحيح في وسائل التربية الحديثة . ثم ان مادتها لا بد ان تكون شيئا اخر ليس ما درج عليه المعنيون بتدريبها .

ومن هنا كان علي ان اقول : اننا لا بد ان نسلم ان العربية لغة متطورة وان عربية عصرنا الحاضر غير العربية القديمة . ولعلي استطيع ان اقول ان عربية هذه الايام غيرها منذ عشرين او ثلاثين سنة . ثم اننا لا نملك هذه العربية بسبب ان سلوكنا اللغوي بعيد عنها ، فاننا نباشر طرائق في الكلام والخطاب مستمدة من مواد تتصل بما يسمى اللهجات الحديثة وهذه اللهجات الحديثة مختلفة في مستواها بين جهة واخرى، ثم هي مختلفة في مستوياتها ومادتها بين الطبقات المختلفة في البيئة الواحدة .

كل هذا يعني ان علينا ان نتدبر امر اللغة الفصيحة ايمانا منا بانها الوسيلة الوحيدة التي تصلح لحياة جديدة ذات حضارة جديدة هي الحضارة العالمية المعاصرة . ثم علينا ان نقرر ان هذه العربية الفصيحة قادرة على ان تكون احدى اللغات العالمية للاعراب عن الحضارة الحديثة . قلت اننا لا نملك هذه اللغة فلا نستطيع ان نعبر بها تعبيرا يبلغ القصد كما لا نستطيع ان نؤدي بها كتابة ما يدور في افكارنا . ومن اجل هذا فلا بد من التفكير في المشكلة اللغوية .

أقول ان العربية ليست بدعا بين اللغات وانها ليست عربية معقدة كما يدعي جمهرة من المثقفين العرب . وانها تملك من وسائل الحياة ما يقرر انها لغة عالية المستوى كما يؤيد ذلك علم اللغة الحديث .

اخلص من كل هذا الى اننا نتعلمها خطا ومادة ومنهجا . ومن هنا تكون المشكلات على ضربين : الاول يتصل بالمادة والثاني يتصل بالمنهج .

الضرب الاول

لم يرد المختصون من علماء العربية والمعنيين بتعليمها من الاساتذة والمدرسين والمعلمين ان يقرروا ان العربية لغة حديثة وانها بسبب من ذلك ذات مادة حديثة ينبغي ان تعلم . وهذه المادة الحديثة تختلف عن المادة القديمة اختلافا بينا . وينبني على هذا ان لا بد لنا من ادب حديث وفكر حديث ونحو حديث واسلوب حديث ومعجم حديث . هذا لا يعني اننا نقتصر على هذه الالوان الحديثة وذلك ان النهج التاريخي يقتضينا ان نلم بالاصول فنسلم ان المادة اللغوية تخضع للتطور التاريخي . وان النظر الى اللغات الحديثة المتطورة يهدينا الى ان مادة تلك اللغات التي تقدم للدارسين هي شيء حديث متصل من ناحية المسيرة التاريخية بالمواد القديمة .

ان هذا يفرض علينا ان نقرر ان النحو العربي مثلا لا بد ان يكون نحوا جديدا ، فهل نملك شيئا من ذلك ؟ الجواب : لا ، بسبب من ان

العاملين في عملية التعليم التربويه لم يعانوا التفكير في هذه المشكلة الخطيرة .

اننا ورثنا النحو القديم وكان قد سلخ من عمره اثني عشر قرنا . وكان السلف الاوائل قد وضعوا البداية النحوية لتكون مادة تدفع غائلة اللحن الذي تفشى في لغه المعربين من العرب بسبب مخالطتهم للاعاجم المتعربين الذين انضموا في المجتمع الاسلامي . ومن غير شك ان نحوا وضع ليفي بهذا الغرض لا بد أن يكون مادة تعليمية موضوعية كما نقول في عصرنا . غير انه ما لبث ان كان أحد فروع المعرفة ابتداء من اوائل القرن الثالث الهجري . وهذا يعني انه صار مادة للدرس والاجتهاد وصار له اصحابه ممن عرفوا بالنحاة . ثم كان من اولئك ان صاروا طبقات على ممر العصور ثم كان ان تحول من مواد يسيرة يراد من تعليمها عصمة اللسان من غائلة اللحن الى مواد جديدة لا يراد لها ان تكون ضوابط يسيرة لغرض تعليمي معروف . ولقد ادى هذا الى ان اصبح النحو مادة معقدة عسيرة المنال تبعد عن تناول المشكلة اللغوية ، ذلك انها اقتبست من المنطق الارسطي واساليبه مما احال المادة اللغوية الى شيء اخر . لقد تحول النحو الى الخط الذي يستند على العلة والمعلول . ومن هنا كان النحو علم الاعراب ، والى هذا اشار الزمخشري في مقدمة كتابه « المفصل » الى ان علم النحو هو الاعراب وادى هذا الى ان صار النحو العربي يبحث في حركة اخر الكلمة : ولم يكتف النحاة بهذا بل بحثوا في علة الاعراب ، ومن هنا قرروا ان الاسم معرب لانه كيت وكيت وان كل ما اشبهه كان معرباً . ومن اجل هذا شابه الفعل المستقبل الاسم فكان مضارعا له .

رب سائل يسأل وما ضير هذه النظرة على الحقيقة اللغويه ، والجواب عن هذا ان شيئا كثيرا يتصل بمادة الفعل قد اهمل . الا ترى انهم جعلوا حد الفعل الحدث المقرن بزمن ! ولكننا لا نعرف وجه الزمن في باب الفعل في اي من كتب النحو القديم . ثم لم يكتفوا بالعلة الاولى حتى توصلوا الى ما اسموه بالعلل الثواني والثوالث . ثم كانهم لمحوا ان الكلمة العربية معرفة اصالة ولذلك اهتموا بالاعراب فنظروا اليه على انه اثر يجلبه العامل ولا بد من الوقوف عند هذه النظرة لنتبين اثر المنطق فيها . اقول : كان الاعراب النتيجة التي ادى اليها العامل وهو السبب ، فاذا لم يروا هذا الاثر قدروه فكان الاعراب التقديري وهو شيء متخيل متوهم . ثم ان كانت الكلمة مما لا يقبل الحركة في الاخر سميت مبنية ، وهي لا بد ان تخضع لنظام جمهرة الكلمات في العربية وهي الكلمات المعربة فاعربت بنظام خاص سمي الاعراب المحلي وبذلك لا تفلت كلمة من الكلام في العربية من هذا الحكم .

الضرب الثاني

اقول : ان المتتبع لمواد النحو في كتبه القديمة ، واقصد بالكتب القديمة تلك التي درستها اجيالنا السابقة في باب « علوم الجادة » وهي التي تدخل في آلات المتعلمين حتى جيلنا السابق ، ان المتتبع لهذه الكتب يجد مواد وطرائق بعيدة كل البعد عن النهج السليم في تحرير النحو في عصرنا . ولا ارى حاجة لضرب الامثلة على ذلك .

ان هذه الكتب القديمة وجلها شروح للالفية وتعليق على شواهدها تختلف عن نظرات النحويين المتقدمين من طبقات النحاة الاوائل . فاين هذه من آراء الخليل بن احمد وسيبويه في « الكتاب » ؟

ومما حمل الضيم على الدراسات النحوية في عصرنا انها اتخذت الالفية وشروحها الكتب الجامعية التي يدرسها الطلاب فضاقوا بها ذرعا والشكوى مريرة .

ومن نتائج هذه الدراسة ان الكتب المدرسية في المدارس الثانوية والاعدادية وحتى الابتدائية اتبعت شيئا مما جاء في تلك الكتب التي يقرأها الدارسون في الدراسات العليا .

اريد ان اخلص من هذه المقدمة التاريخية الى ان العربية في اوائل تطورها وذلك في مطلع العصور الاسلامية قد حفلت بالثروة العلمية.وهذه الثروة العلمية كان لها مصطلح يكاد يكون مكتملا ناضجا. لقد توفرت في علوم العربية مادة اصطلاحية ضخمة ودقيقة .

لقد كان للنحاة الاوائل مصطلحهم الدقيق الذي عبر عن نضج كبير وادراك تام لسمو هذه اللغة بحيث لم تستطع القرون المتلاحقة ان تضيف الى المعجم النحوي شيئا . ومثل هذا ينطبق على سائر علوم اللغه العربية فهناك مصطلح للبلاغة في علومها المختلفة ، وهناك مصطلح لغوي يشتمل على الالفاظ اللغوية الصرفية والعروضية . ثم بدا بنشوء العلوم الاسلامية في ازدهار الحضارة الاسلامية ابتداء بعصر النبوة ، مصطلح اسلامي يتناول مختلف العلوم الاسلامية ، فلدينا مصطلح في الحديث بلغ الذروة في التدقيق والضبط ، ولدينا مصطلح لعلوم القرآن .

ثم كتب للعلوم الاسلامية ان تتسع دائرتها باتصالها بالجانب الفلسفي فنشأ علم الكلام وهو نواة الفلسفة الاسلامية . ومن هنا كانت استجابة العربيه للعلوم الجديدة استجابة كاملة . فكان المصطلح الفلسفي الذي تناول المادة الفلسفيه في الوانها المختلفة .

ومن هنا انطلق اللغويون الاقدمون واصحاب المعارف المختلفة لتنفيذ هذه الالوان الاصطلاحيه فظهرت المصنفات التي تناولت الالفاظ الاسلامية وهي كثيرة ، وما زال في المكتبة العربية شيء من ذلك . وما كتاب التعريفات للشريف الجرجاني الا من هذا الباب .

اقول : أن العربية الفصيحة استطاعت ان تكون لغة العلم خلال قرون عدة وقد كتب بها المخصون من عرب وغير عرب مسلمين وغير مسلمين ، ولقد وجد غير العرب ومن غير المسلمين انها امثل لغة للتعبير عن الفكر الفلسفي وان فيها مكتبة لتمد الباحث المتخصص بطائفة من الالفاظ الاصطلاحية . ومن اجل ذلك نقل اليها التراجمة النصارى فلسفه الاغريق وعلومهم ، ذلك انهم وجدوا ان سريانيتهم لا تؤدي هذه الاغراض الجديدة .

ولكن المجتمع العربي بعد ان دهته الدواهي وتفرق ايما تفرق واستولى عليه الاعاجم ، انقطع عن حضارته فاصاب لغته الهرم واصبحت شيئا بعيدا لا يتهيأ له ان يناله بيسر فعم الجهل وانقطع معين الحضارة الزاخر وساد ما سمي في التاريخ حقبة « الفترة المظلمة » .

اقول هي « المظلمة » بالقياس الى الجماهير الواسعة بحيث صارت العربية اهتمام الطبقة التي تسعى اليها متلقية متعلمة .

ثم جاء العصر الحديث وجاءت النهضة الغربية بحضارتها ومدنيتها ووجد العرب انفسهم متخلفين عنها . ذلك ان مصادر العلم الحديث مصادر اجنبية ، وانهم لم يحذقوا لغتهم بل فقدوها ابان قرون عدة خلال الحكم العثماني فكيف يتاح لهم ان ينهضوا وان يواكبوا الحضارة الجديدة ؟

لا بد لهم من اداة لغوية تتعرب بها العلوم الحديثة . ومن هنا نشأت مشكلة المصطلح الفني le Terme Technique لقد نهض المختصون من الافراد والهيئات بهذا الواجب الثقيل ونظروا في لغتهم نظر العالم الحاذق فوجدوا ان في العربية كل ما يعين على حل هذه المشكلة .

لقد اتبع الاقدمون طريقين لتوفير المصطلح الاول : انهم فتشوا في العربية عن اللفظ السهل الذي لا ينصرف الى معان كثيرة فتواضعوا عليه مقابلا للكلمة الاعجمية الاصطلاحية وبذلك انتقلت الكلمة العربية

الى شيء من « مصطلح » .

والثاني : انهم لجأوا الى التعريب وقصدوا به ان تؤخذ الكلمة الاعجمية باصواتها او بتغيير شيء من ذلك ووضعها في العربية بحيث لا تنأى كثيرا عن الابنية المعروفة في اللغة العربية .

وبهذه الطريقة الثانية نشأت الفلسفة والموسيقى والهيولي والجغرافيا ثم سار على هذه السنة المتاخرون فقالوا الفلسفة والديمقراطية والارستقراطية ومثل هذا كثير .

وقد جرى نفر من المحدثين على هذه الطريقة فحلا لهم ان يقولوا « التلفزة » للتلفزيون .

ان مواد العلم الحديث كثيرة ، ومن اجل ذلك فلا بد ان تتهيأ مادة كبيرة في المصطلحات لتسد مسدها . وقد بذل المعنيون في هذا السبيل جهودا كبيرة في هذا الباب .

ولولا ان هذه الجهود مفتقرة الى التوحيد فيما بينها لامكن ان تحل هذه المشكلة . ومن هنا فلا بد من توحيد هذه الجهود المختلفة .

وما اراني الا مكررا الكلام على غنى العربية ووسائلها الخاصة في توفير المصطلح فلقد كثر القول في هذا وكثرت الدراسات فاشير مثلا الى قدرة العربية الاشتقاقية وان لها من ابنيتها ما يعين على توفير مسائل كثيرة كالمصدر الصناعي الذي صنعت به النسبية والمادية والكهربائية والحيوية والديموقراطية والوجودية ومثل هذا كثير ، وان لها من ابنية اسماء الالة وسائر المشتقات ما هو كفيل بتوفير مادة اصطلاحية كبيرة .

ولقد دل الاستقراء على ان في العربية ابنية لم يلتفت اليها الصرفيون ولم يقيدوها في مصنفاتهم وهي تصلح ان تؤدي اغراضا علمية .

من ذلك مادة « فعال » بكسر الفاء وهي من ابنية اسماء الالة في اللغة القديمة وهي اسهل واولى من المشتقات القياسية .

وقد ورد مما جاء على هذه الصيغة مئات من الالفاظ التي تستعمل ادوات والات ومن ذلك :

العيار والصمام والمقاص والخياط والرباط والوكاء والنقاب والقناع واللجام ومثل هذا كثير لا ياتي عليه الا الاستقراء الوافي في امهات كتب العربية .

ومثل هذه الابنية التي لم يفطن اليها المحدثون ما جاء على «فُعلة» بضم العين مرادا به اسم المفعول القديم قبل ان تكون له قاعدة «مفعول» ومنه اللمزة اي الملموز واللقمة اي الملقوم والضحكة اي المضحوك منه وكان اهل الاقتصاد مصيبين كل الاصابة حين قالوا « العملة » بالمعنى المعروف .

ونستطيع ان نوصي توصيات عامة بشان المصطلح الفني وهي :

١) ان يكون المصطلح من الالفاظ التي لا تنصرف معانيها الى مدلولات كثيرة .

٢) ان يكون المصطلح من الالفاظ السهلة اليسيرة في عدة بنائها من حيث الاصوات .

٣) ان تكون بسيطة لا مركبة قدر الامكان وبذلك يستغنى ما امكن عن الالفاظ المنحوتة والالفاظ المضافة .

٤) ان يكون المصطلح من الالفاظ المعروفة فلا يلجأ الى الغريب الا عند الضرورة او في حالة ان اللفظ الغريب كان مصطلحا قديما معروفا .

٥) ان يكون المصطلح قائما على المادة المرادة فلا يشترك فيه موضوع اخر .

٦) يتجنب المعرب عند اختيار المصطلح ويفضل عليه الكلام العربي .

اخلص الى ان مشكلة المصطلح مشكلة خطيرة ينبغي ان ننظر اليها نظرا جادا وذلك لاننا في حقبة حرجة نقف فيها من الحضارة الحديثة موقفا خاصا يفرض علينا ان نكون واعين اشد الوعي .

د . وجيه السمان

التعريب في العلوم الطبيعية

نظرات في مشاكل هـذا التعريب

لقد اخترت الكلام في موضوع التعريب في العلوم الطبيعيـــة لاشتمالهـا على كل من علمي الفيزياء والكيمياء ، وهما أساس جميـع العلوم التقنيـة التـي هي دعامة الحضارة الحديثة فوضع مصطلحات كاملـة واسعـة في هذيـن العلميـن ، يؤدي الى تعريب جميع العلوم التقنيـة اي الهندسـة بمختلف انواعهـا ، فمـا اعظم الخدمة التـي تتم تاديتها حينئذ الى اللغـة العربية .

يدرس هذان العلمـان بالعربية منذ زمن بعيد في المدارس الثانوية في كثير من الاقطار العربية ، في جملة مـا يدرس من العلوم الاخـرى كالرياضيات والجيولوجية والنبات والحيوان ، وقد اعتمد بتدريسها على طائفة من المصطلحات كانت قليلة في البدايـة ثم اغتنت وتقدمت بتقدم الزمـن وعمل الاساتذة المكبيـن على وضع ما يقتضيه التقدم العلمي من مصطلحات ، وخاصة في القطر السوري ، حيث كانت هذه العلوم تدرس الى مـا بعـد المرحلـة الثانوية ،في السنـة الاعدادية لكليـه الطب . وهي تدرس فيها بالعربية منذ عام ١٩٢٠ اي منـذ نصف قرن او يزيد . وقـد اتسع حقـلا هذيـن العلميـن بفضل ما اكتشف فيهما مـن مكتشفات جديدة خلال نصف القرن الماضي ، فتجمع في كل واحد منهما قرابة ستة الاف مصطلح . وهي تكفي الان لسد حاجات التعليم الثانوي جميعهـا ولقسم من حاجات التعليم العالـي ولنشر البحوث العلمية . وتجدر الاشارة هنـا الى آن تدريس الفيزياء والكيمياء فـي الجامعات السوريـة يجري باللغـة العربيـة على مقياس واسع ومستوى عال منذ نهايـة عام ١٩٤٦ .

ان هذه النهضة التعليمية المعتمدة على المصطلحات العلمية العربية كانت ستصبح ذات آثار طيبة جدا لولا مسير كل قطـر عربي منذالبداية في طريقه الخاص ووضع مصطلحاته بنفسه ، الا مـا كان مـن امر بعض المصطلحات المصريـة التي اقتبستها الاقطار العربيـة من كتب التعليم الثانوي المصرية ، أيام كانت هذه الكتب هي الوحيدة المطبوعـة فـي العالـم العربي، او المصطلحات التي حملهـا الاساتذة المصريون عندمـا اوفدوا لتدريس العلوم في بعض البلاد العربية الاخرى . وقد اعـان ايضا على انتشار بعض هذه المصطلحات المصريـة سبق مصر الى نشرها بواسطـة الصحف والمجلات والاذاعة .

ونحب ان نذكر منذ الان ان من اهم العقبات القائمة في طريـق وضع المصطلحات الجيدة المحكمـة كون اكثر العلميين شديدي الضعف في اللغـة العربيـة وكـون اللغويـين شديدي البعد عن شئون العلم، خلافـا لما نراه في كثير من البلاد المتقدمة .

واذا كانت مصطلحات التعليم الثانوي في هذيـن العلمين تحددها وتقرهـا الكتب المقررة من وزارات التربيـة في البلاد العربية ،فليس الامر كذلك في التعليم العالـي بجميع درجاته ،حيث انفـرد كلاستاذ تقريبـا بمصطلحاته الشخصيـة ، بسبب الافتقار الى وجـود معجـم علمي متفق عليه . فنرى هذه المصطلحات تختلف في القسم الواحـدمن الكليـة بيـن استاذ وزميله ،كمـا تختلف بيـن قسمين من الكليـة نفسهـا ، ثم تختلف بالنتيجـة بين كليـة وكلية في الجامعـة الواحدة وبين جامعة وجامعة ، ثم بيـن الاقطار العربية . ولهـذا ترى فـي الكتب والنشرات العلمية المطبوعـة باللغـة العربيـة اختلافات بيّنة تؤدي فـي كثير من الاحيـان الى تعسر فهم النصوص التي فيها .

وقد بذلت مساع كثيرة لتوحيد المصطلحات ، منهـا ما كان داخل القطر الواحـد ومنهـا مـا هدف الى التوحيد بين الاقطار العربيـة كلهـا . فمـن النوع الاول المصطلحات التي يدرسهـا مجمع اللغـة العربية في القاهرة وينشرها بعـد اقرارها في نشراته الخاصة .

ومن النوع الثاني الندوات التي تعقد لمناقشة المصطلحات اثناء اجتمـاع المؤتمر العلمي العربي ، الذي يقيمه الاتحاد العلمي العربي مرة في كل ثلاث سنـوات تقريبا ، وندوات المصطلحات العلميـة التي تعقد خلال اسبوع العلم فـي دمشق كل سنة ومؤتمرات التعريب التي تقيمها المنظمة العربيـة للتربية والثقافة والعلوم والندوات التي يقيمها اتحاد المجامع العربية.اضف الى ذلك الندوات التي يقيمها الاطباءوالمهندسون والحقوقيون ، الخ.. لكل من هذه الندوات مزايا وعيوب ، ولم يتناول احد بالنقـد هذه الامور ليفصل مشاكلهـا ويبرز محاسنهـا ومساويها بقصـد التركيـز على المحاسن وتجنب تكرار العيوب حتى تكونالفائدة منهـا فـي المستقبل اكبر . ولا يتسع المجال في كلمتي هذه لتناولهـا بالبحث والتمحيص ولكنني اكتفي بالاشارة اليهـا والـدعوة الـى مناقشتها ، واحب ان اشير الى الاهم منهـا :

اشـد ما أعيبه على هذه الندوات والمؤتمرات هو قلة استعداد بعض المشتركيـنفي المناقشات لما سيناقشونه، لانهم في اكثر الاحيـان لا يراجعـون المصطلحات ولو كانت موجودة بين ايديهم قبل المؤتمر ،او انهم احيانـا لا يتلقونهـا في الوقت المناسب . والامر الثاني هو قصر المدة التـي تخصص لمناقشة هذه المصطلحات قصرا يجعل كل نتيجـة حسنة فيهـا امرا شبه مستحيل . فتضطـر اللجـان احيانا الى المضي في المراجعة بدون مناقشة تقريبا ، وفي ذلك اخلال كلي بالغايـة التي جمعت هذه اللجـان من اجلها ، وهذه الغايـة هي ان يعرض اعضاؤها

ـ الذين اتقنوا المراجعة ـ وجهات النظر المختلفة التي وفدوا الى الندوة من اجل تقديمها والتذاكر فيها لاختيار الاحسن منها .

لقد قدم الى مؤتمر التعريب الثاني الذي عقد في مدينة الجزائر في شهر كانون الاول (ديسمبر) من عام ١٩٧٣ قرابة ٥٠٠٠ مصطلح في الفيزياء و ٤٠٠٠ مصطلح في الكيمياء لكي تتم مراجعتها خلال ٨ جلسات فقط . ولو كان ذلك ممكنا لوجب مراجعة قرابة ٦٥٠ مصطلحا في الجلسة الواحدة وذلك من رابع المستحيلات . ولما تبين بالعمل استحالة ذلك ، اتخذت التدابير الاتية :

تطويل امد الجلسات وتقسيم اللجنة الواحدة الى لجنتين اوثلاثا، واقتصر على النظر في المصطلحات العائدة للتعليم الثانوي فقط ، ورؤي عدم النظر في المصطلحات المركبة من كلمتين فاكثر ، طالما ان الكلمات الداخلة فيها سينظر في كل واحدة منها على حدة . وحولت بعض الجلسات التي كانت مخصصة للمحاضرات العامة ، الى جلسات مصطلحات ، حتى كفلت هذه التدابير بانهاء العمل ولكن بأي سرعة وبأي ثمن . وكان من جراء تقسيم اللجان أن فقد التجانس فيها وضاعت وحدة التفكير بين اقسام اللجنة الواحدة .

لقد كشفت لي تجربة السنوات التي مرت عليّ في متابعة مناقشة المصطلحات العلمية ان هنالك ضربا من التناقض في السير الذي تتبعه . فاقرار المصطلحات اقرارا نهائيا ينبغي ان يوكل الى المجامع اللغوية في كل بلاد العالم . ولكن المجامع في الواقع مسبوقة على امرها بسبب التقدم السريع للعلم وللسير العاجل لموكب الحضارة .

مع ذلك فهذا لا يعني أن المجامع اللغوية لا تقدر على القيام بهذه المهمة اذا هي اعينت عليها الاعانة الكافية .

فلما قام المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الرباط بجمع المصطلحات العلمية ، استقى عددا كبيرا منها من نشرات مجمع اللغة العربية في القاهرة ، واضاف اليها ما ورد اليه من سائر الهيئات العلميه والوزارات في البلاد العربية . فكانت هذه القوائم المواد الخامية التي اهتمت بدراستها اللجان القطرية اولا ،ثم اللجان التي تشكلت اثناء انعقاد مؤتمر التعريب . فهذا المزج غير المتجانس للمصطلحات لا بد وان يكون مجمع القاهرة قد نظر اليه بعدم الرضى .

وبعد فلا اريد المضي في هذه الملاحظات الى ما هو ابعد من ذلك ولو كان ذلك ضروريا غير انه قد حان الوقت لتوضع للمصطلحات وجمعها ومناقشتها قواعد منطقية فعالة منتجة .

مشاكل تعريب المصطلحات

يلاقي وضع المصطلحات العلمية العربية عامة عددا من الصعوبات تنجم عن اختلاف قواعد العربية وقواعد اللغات الاجنبية . فعندما يريد العالم العربي ان ينقل الى العربية مصطلحا اجنبيا يجد امامه خمس وسائل يستطيع ان يعتمد على واحدة منها على الاقل .

فاذا تيسرت ترجمة المصدر الاجنبي الذي اشتق منه المصطلح الى مصدر عربي ، امكن في غالب الاحيان ان يشتق من المصدر العربي او من الاسم ، المصطلح المطلوب بتطبيق قواعد الاشتقاق ،حسب ما يكون المصطلح فعلا او اسما او اسم فاعل او اسم مفعول او اسم مكان او زمان او الخ ..

مثال ذلك الفعل الاتي réfléchir أو الاسم reflexion ويعني الاول : عكس يعكس ، والثاني الانعكاس او العكس . فنشتق منه المصطلحات التالية :

عاكس	réfléchissant
منعكس	réfléchi
انعكس	se réfléchir
عاكس	réflecteur
عكوسية	réflexibilité
عكاس	réflexible
انعكاسية	réflexivité

فالاشتقاق يمكننا اذن من وضع عدد كبير من المصطلحات نستنتجها استنتاجا طبيعيا من المصدر او من الاسم ، بمنتهى السهوله . ولكن الاشتقاق على خصبه له حدود لا يستطيع ان يتعداها لان امكانات اللغة الان تقف عند ذلك .

ننتقل الان الى الباب الثاني ، وهو باب القياس ، وهو استنباط مجهول من معلوم فاذا اشتق اللغوي صيغة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة في مادة أخرى ، سمي عمله هذا قياسا . فالقياس اللغوي هو موازنة كلمات بكلمات او صيغ بصيغ ، او استعمال باستعمال ، رغبة في التوسع اللغوي .

وقد استفاد الاولون من القياس فوائد كثيرة ، ومن المتأخرين الذين طرقوا باب القياس المرحوم الدكتور صلاح الكواكبي عضو مجمع اللغه العربية بدمشق ، اذ اقترح عددا كبيرا من المصطلحات استنتجها بالقياس ، اذكر منها على سبيل المثال ما يلي ، وهي مخلوطة بمصطلحات قديمة :

جاء في كتابه : استدراك النقصان في اسماء اعضاء الانسان :
باب الامراض والادواء والافات :

١ ـ ما كان على وزن فعل ـ أرق ، وجع ، الم ، بخر ، بكم بثرب، جلح (أوجله) يعني صلع ، جنف ، حبط ، ختر ، حمص، حسر، حصر ، سعر scorbut حصب ، حول ، خدر ، خرع Rachitism خرف : radotage ،خزب ،حرز، خطر: chlorose خمج : infection خور ، خوص ، ذأب ، رقص ، رمد ، رمص ، غمص ، روح ، سمق ، سهر ، شبق erotism ، شلل ، صحل ، صلع ، صمل ، صمم ، ضبع ، ضخم hypertrophie ضجر ، فلق ، ضرز ، طحل ، طفس ، طمث ، ... واقف عند حرف الطاء ، ولكن الاسماء تستمر حتى حرف الياء .

٢ ـ ما كان على وزن فعال ـ أباب ، اكام ، اكال ، الاس ، بطان، بوال ، ثداء ، جبال ، جدام ، جفاف ، جناب ، حباج ، حباط ، (تطبل البطن) ، حثار ، Prochome حكاك : Purigo حلاق mal de gorge حماق : Varicelle ، خراج abcés خصاء ، خفات : mort subit دراق : thyroidite دغام : pharyngite دماغ ، دوار : Vertige دبال،رحام، رعاف ، رعام ، زحار ، زراق ، زرام ، زكام ، سبات Léthargie سحاف ، سداد ، (حثاء) : Infracrus سعار : Boulimie سعال ملاق ، ...

ترينا هذه الامثلة الى أي حد يمكن الاستفادة من القياس في باب الامراض والادواء والافات ، ويا ليت الفيزياء والكيمياء كان يمكنهما ان يستفيدا منه بهذا القدر .

واما الباب الثالث فهو المجاز ، ولا اريد الوقوف عنده لانه قليل الخصب في هذين العلمين ، وقد سمينا على اساسه : القطار والسيارة والهاتف والبرق وامثالها .

الباب الرابع : التركيب وهو في اللغة العربية التركيب المزجي احيانا والنحت احيانا اخرى .

ان الباحث في لغة من اللغات الحية الراقية يرى ان الكلمات البسيطة فيها محدودة وان كثرة كبيرة من كلماتها مركبة ، فهي اما ان تتركب من عدة جذور تدمج في بعضها او تلصق ببعضها بعض او ان تتركب من جذر او جذرين مع سوابق ولواحق . فنرى في اللغة الفرنسية مثلا تركيب جذرين مع بعضهما في المثالين الاتيين : électromagnétisme piézo - électricité والاولى نسميها الكهربائية المغناطيسية التي نحتوا منها الان كلمة : كهرطيسية والثانية تعني الكهربائية الضغطية او الكهرضغطية ، وكذلك مثال تركيب ثلاثة جذور في كلمة magneto hydro dynamique وليس لها في

العربية مقابل ، وهي تعني علم ديناميك الموائع الناقلة الحارة جدا والمعرضة لحقل مغناطيسي .

ومن امثلة الكلمات المحتوية على المصدر او سابقه monometa او احادي المعدن ، Bimetal ثنائي المعدن ، triatomique جزئي ثلاثي الذرة ، Quadri latère رباعي الاضلاع ، Pentagone مخمس ، Hexagone مسدس ، heptane , Octane وهما من مركبات الكربون والهيدروجين ، في الاول سبع ذرات من الكربون وفي الثاني ثماني ذرات ... الخ وقد ادخلت على هذه الكلمات الصدور Tri , Bi , mono , octa , Hepta , Hexa , Penta , Quadri الخ ...

ومن امثلة الكلمات الحاوية على كواسع او لواحق Spectographe , Photometre , electroscope ادخلت عليها الكواسع scope , graphe , métre وهي تفيد على الترتيب : القياس ، تسجيل او الرسم او التصوير ، والكشف .

عدد السوابق والكواسع في اللغتين : الفرنسية والانجليزية عظيم جدا وينجم عن ذلك ان الكلمات المركبة التي يمكن استنباطها بهذه الوسائل عديدة جدا .

تستعمل اللغة الفرنسية١١٦ صدرا من اصل يوناني و٤٢ صدرا من اصل لاتيني كما تستعمل ١٤٤ كاسعا من اصل يوناني و ١١ كاسعة من اصل لاتيني .

بفضل هذه الصدور والكواسع او السوابق واللواحق، استطاعت اللغة الفرنسية واضرابها من اللغات الاوروبية الاخرى ان تستنبط مئات الالوف من الكلمات والمصطلحات العلمية ، كما استطاعت ان تضع قواعد ثابتة واضحة تضمن امكان وضع المصطلحات لكل ما يظهر في المستقبل من مكتشفات ومخترعات ومصنوعات ، ومن افكار واحاسيس.

وتاتي اكثرية مصطلحات الفيزياء والكيمياء في جملة هذه الاسماء المركبة ، فمنها مثلا اجهزة القياس والكشف والتسجيل والرسم والتصوير . كما ان اكثر الظواهر والبحوث الفيزيائية يدل عليها باسماء . وقد قدمت في مؤتمر التعريب الثاني الذي عقد في مدينة الجزائر في نهاية عام ١٩٧٣ ، اقتراحا بالقواعد الاتية المتبعة في القطر السوري :

كلمة مقياس لـ métre ، فيكون اسم جهاز Voltmetre مقياس الفولت،كلمة كاشف لـscope فيكون اسم جهاز Spectroscope كاشف الطيف . كلمة مسجل او راسم لـ graphe فيكون اسم جهاز : Barographe مسجل الضغط . كما نسمي الظواهر بالاسماء المركبة الاتية :

Biréfringence الانكسار المضاعف électromagnétisme الكهربائية المغناطيسية ، Ferromagnétisme المغناطيسية الحديدية ، الخ ...

غير ان هذه الطريقة البسيطة التي تقوم على ترجمة كل جزء من الكلمة المركبة بكلمة مستقلة في العربية ، ليست الطريقة المثلى لما فيها من اطالة تخالف روح العربية التي هي لغة اختزال ، فعندما نترجم كلمة Spectrophtormètre بمقياس شدة الضوء الطيفي ، نترجم كلمة واحدة طويلة باربع كلمات .

وكان مجمع اللغة العربية في القاهرة قد عالج موضوع هذه الاجهزة في الجزء الخامس من مجلته معالجة جزئية ، فوضع قواعد لضبط اسماء اجهزة القياس والكشف والتسجيل ، على النهج الاتي :

١ ـ صيغة مفعال للكلمات المنتهية بالكاسعة mètre ، ومنها مطياف ، لـ Spectroscope

٢ ـ صيغة مفعل للكلمات المنتهية بالكاسعة mètre ، ومنها مطيف لكلمة Spectromètre

٣ ـ صيغة مفعلة للكلمات المنتهية بالكاسعة graphe ، ومنها مطيفة لكلمة Spectro graphe .

اتخذ المجمع هذه القرارات قبل عام ١٩٥٠ ثم عاد بعد ذلك فعدل عن اتباع هذه القواعد . والحقيقة انها تقيد واضعي المصطلحات بقيد ثقيل ويقف الانسان امامها احيانا حائرا ويكاد يعجز عن اتباعها مثلا بم نترجم Wattmètre ؟ اذا اتبعنا القاعدة ٢ ، وجب ان نقول : الموط ، ولا تستقيم الترجمة الا اذا طلت هذه الكلمة مشكلة على الدوام والا فانها ستقرأ : الموط ، و Amperemètre هل نترجمها بـ المئبر ؟ وبم نسمي عداد الطاقة الكهربائية Watt heure - mètre او الجهاز الذي يقيس في آن واحد الانبرية والفولتية ويسميه الانجليز: Arometre ؟ وكيف تسمى البحوث التي تدرس فيها الظواهر والمواضيع المنتهية بـ metrie , scopie , graphie تسمية تنسجم مع اسماء هذه الاجهزة ؟

الحق ان التقصير في هذا الباب لا يزال كبيرا وان الفوضى ضاربة فيه اطنابها وهنا يبدو الاختلاف بيننا بين الاقطار العربية،فينبغي صب الجهود المثمرة على النواحي التي كهذه واشباهها .

ترجمة المصطلحات الكيماوية

ناتي هنا الى علم انتشرت في مصطلحاته قاعدة النحت . وللكيمياء مشاكلها الخاصة فعدد المصطلحات فيها اكبر بكثير منه في الفيزياء بسبب وجود مواد مركبة كثيرة جدا يفوق عددها المليون . ولكنها تمتاز بخضوعها لقواعد يمكننا ، اذا اتفقنا عليها ان نضبط جميع المركبات والاسماء الكيماوية . ولا اجد بهذه المناسبة احسن من آن اسوق هنا بعض ما كتبه عنها المرحوم الامير مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق في كتابه المسمى : المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث . قال :

(ما اختلف قط علماؤنا على نقل الفاظ علم من العلوم الحديثة الى العربية اختلافهم على نقل الكيمياء اليها . فمن المعروف في تسمية الاجسام الكيماوية ان هناك صدورا وكواسع تضاف الى اول الاسم او اخره فتجعل مدلوله مادة جديدة اي يصبح الاصل المصدر او المذيل « اي المكسوع » اسما يدل على مادة كيماوية جديدة غير مادة الاصل .

« والتركيب النسجي والنحت والتصدير والكسع في اسماء المواد الكيماوية شيء لا حد له ولا نهاية . وكثير ما رأيت اسماء اعجمية لمركبات كيماوية يبلغ طول الاسم الواحد منها نصف سطر او اكثر، مثل الدواء الذي اراه امامي وانا اكتب هذا البحث واسمه انتيرو فيو فورم Entéro-vioforme فهذا الدواء تركيبه كيماوي هو Bodochloroxyquinoleine فكيف نترجم هذا الاسم المركب واشباهه ؟ سألت مرة عن ذلك احد كبار الاطباء الذين يعنون بالمصطلحات الطبية فاجابني بقوله : ان امثال هذه الاسماء نعربها دائما لانها تعد اسماء أعلام ، وهي شبيهة بها » .

« وبناء على الصعوبة التي نلقاها في ترجمة الاسماء الكيماوية كان الراي مجمعا تقريبا على تعريب الاسماء كلها ، سواء اكانت اسماء عناصر بسيطة ـ ما عدا العناصر التي لها اسماء عربية او معربة قديما كالحديد والذهب والنحاس والفضة والزئبق والكبريت والرصاص واشباهها ـ او اسماء اجسام مركبة ، او كانت احرفا تدل على الزوائد من صدور وكواسع . وبذلك تكون قد استعملنا الالفاظ التي تستعمل في اللغات الاوروبية من غير تبديل » .

« فمن الفريق الاول المرحوم الشيخ احمد الاسكندري ، فقد اقترح اسماء عربية للعناصر الكيماوية البسيطة ، فسمي الاوكسجين : الصدىء والهيدروجين : المميه ، والنتروجين : المخصب ، والكلور : المحور ، والفلور : الملصف ، والفسفور : المؤمض ، والكربون : المفحم، والبوتاسيوم : القلاء ، والصوديوم : الشذام ، والكلسيوم : الكلاس ،

والسيليسيوم : النقاح ، والكروم الخضاب ، الخ ... اما الفريق الثاني ومنهم اساتذة الكيمياء في الجامعة السورية وعلى رأسهم الاستاذ صلاح الكواكبي (رحمه الله) فيرى ترجمة بعض الاجسام المركبة وتعريب بعضها .

ونورد راي الجامعة السورية وراي الشيخ احمد الاسكندري في تسمية ثلاثة انواع من الاجسام المركبة :

النوع الاول : المركبات الثنائية العناصر ، الخالية من الاكسجين.
قاعدة الجامعة السورية : يضاف العنصر الاول الى العنصر الثاني،
فيقال مثلا كلور الصوديوم للجسم المسمى : chlorure de sodium

اما الاستاذ الاسكندري فقاعدته ان يقال كلوري الصوديوم ، اي الصوديوم ذو الكلور فتكون النسب في الكلور بدل الزائدة (ure) ومتى علمنا ان الاستاذ الاسكندري وضع لكل من الكلور والصوديوم اسما عربيا مشتقا ، يصبح اسم كلوري الصوديوم في رأيه : محوري الشذام

النوع الثاني : الحوامض : Acides عند الاسكندري هي الحموض في الجامعة . وهذه تضيف كلمة حمض الى اسم شبه المعدن فتقول مثلا : حمض الكبريت Acide sulfurique اما الاستاذ الاسكندري فيقول : الحامض الكبريتي .

النوع الثالث : في الاملاح عربت الجامعة الاداة . Ate ثم اضافت شبه المعدن الى المعدن فقالت مثلا : كبريتات التوتياء Sulfate de zinc اما الاسكندري فقد جعل كلمة « ملح مكان الزائدة ate فقال : ملح كبريت التوتياء وانا اقول ان هذا يسبب التباسا لان هنالك ملحا اخر هو احرى أن يسمى كبريت التوتياء وهو Sulfure de zinc وسمي كلورات البوطاسيوم ملح محور القلاء . » انتهى .

لا مجال هنا للتوسع في سرد اساليب ترجمة اسماء الاجسام المركبة على طريقة الجامعات السورية ، فليرجع اليها من شاء في كتاب المرحوم الامير مصطفى الشهابي . وكان معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة قد طبعه عام ١٩٥٥ ، ثم اعاد طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق مع اضافات جديدة عام ١٩٦٥ .

لقد ادى المرحوم الدكتور صلاح الكواكبي خدمات جلى في ترجمة مصطلحات الكيمياء يؤسفني ان اقول انها قليلة الشيوع في البلاد العربية ، وقد نشرت بحوثه كلها في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق ، ويجدر بها ان تتخذ اساسا للمناقشة في ندوات خاصة تعقد لمناقشة قواعد مصطلحات الكيمياء مناقشة عميقة هادئة . واحب ان اذكر هنا أن الكواكبي قد اعتمد على النحت كوسيلة لوضع مصطلحات الكيمياء المركبة ، فمضى في استعمال النحت الى حد لم يلحقه فيه احد ، ولا ادري هل يستسيغ الذوق الكلمات المنحوتة على هذا الشكل، ام انها لا بد من ان تكون كذلك . واورد منها ها هنا بعضا على سبيل المثال : الخلمهة ـ اي تحليل الخلي Acétolyse من خل ـ ايماهه .

الحمضئيل (حمض كحول)	Acide - alcool
الحمضليد (حامض الدهيد)	Acide - aldéhyde
الحمضميد (حامض اميد)	Acide - amide
الحمضلون (حامض خلون) ، او حامض خلوني)	acide - acétone
الحمضنول (حامض فينول)	Acide - phenol
الغوليد ـ (غول ـ آميد)	alcamide

واكتفي بهذا القليل من الموجود الكثير .

* * *

تحتاج الكيمياء في رأيي الى عناية وجهد كبيرين لشدة الخلاف في اصول وضع مصطلحاتها بين الاقطار العربية . ويمكن تركيز اوجه الخلاف في وجهي اسميهما : مدرسة القاهرة ومدرسة دمشق .

ترك المصريون الكاسعات الاجنبية في الكيمياء على حالها واقتصروا على تعريبها فيقولون مثلا :

حمض الكبريتيك باستعمال الكاسعة (ic) في Sulfuric acid
وحمض الكبريتوز باستعمال الكاسعة (ous) في Sulfurous acid
ويقول السوريون :

للاول منهما : حمض الكبريت بالاضافة ترجمة ل Acide sulfurique
وللثاني : حمض الكبريتي بالاضافة ياء النسبة ترجمة ل acide sulfureux كذلك كلوريد الصوديوم يسمى في سوريا كلور الصوديوم باضافة العنصر الاول الى الثاني بدون استعمال كاسعة. ولعل هذا الخلاف ناجم عن ان ترجمة المصريين هي عن الانجليزية وترجمة السوريين هي عن الفرنسية ، ويحذو القطر العراقي حذو القطر المصري تقريبا بسبب اخذه المصطلحات عن اللغة الانجليزية .

واعتقد أن الطريقة السورية مفضلة لانها تعتمد على كواسع غير اجنبية اذ ليس من المستحسن تعريب الكاسعات الاجنبية مثل اوز وايك ما دام يمكن وضع مقابل عربي لها .

هذه نظرة موجزة في بعض مشاكل التعريب في علمي الفيزياء والكيمياء ، ولما كان هذان العلمان ـ كما ذكرت في بداية كلمتي ـ هما اساس التقنيات الحديثة ، فقد وجب ان تولي مصطلحاتهما عناية خاصة ولا سيما في وضع قواعد عامة لها ثم تكميلها وتوسيعها واقرارها والالتزام بصيغتها النهائية التزاما صادقا في جميع الاقطار العربية .

وجيه السمان
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

عبد القادر حجار

سياسة التعريب في الجزائر

ايها الاخوة ، ايتها الاخوات

انه لمن دواعي الغبطة والسرور ان نجد انفسنا في ديار ليبيا الشقيقة ، سعداء بهذا اللقاء العربي الذي اقامته حكومة ليبيا لدراسة هذا المشكل الذي يهم الامة العربية جمعاء ، منتهزين هذه الفرصة لنقدم شكرنا واعتزازنا لليبيا قيادة وشعبا ، راجين لها التقدم والازدهار . كما نشكرها على توجيه هذه الدعوة الىالجزائر التي ناضلت من اجل مشاكل التعريب وما زالت تناضل ، ولعل هذا المؤتمر الهام يفيدها ويساعدها على الخروج من وضعية تاريخية معروفة ، كما نرجو لهذا المؤتمر ان يساهم اسهاما فعالا في جعل اللغة العربية التي اصبحتاحدى اللغات الست في المنظمات العالمية اداة فعالة في الانتاج الحضاري المعاصر .

ولن تكون هذه المشاركة ناجعة ومثمرة الا بما يبذلهابناء العربية من جهد متواصل وعمل علمي دائب حتى لا تبقى اعمالنا مقصورةعلى ترجمة المصطلحات الغربية بمثلية عربية بل لا نريد قناعة تدفعنا لدور الحاكي المقلد لما تنتجه افكار الاخرين ،واملنا كبير في ان يكون هذا المؤتمر والمؤتمرات السابقة واللاحقة والحلقات الدراسية التي ينظمها هذا البلد العربي او ذاك واعمال المجامع اللغوية والنشاط الذي تقوم به المنظمات العربية ، في ان يكون حثا على مواصلة الاعمال المثمرة وتكافلا ايجابيا بين هذه الجهود جميعا وطموحا نحو التنسيق البناء بين مختلف الانشطة العربية في هذا الميدان ضمانا لوحدة الفكر واللسان التي تكون بالضرورة نضمينا لتوحيد النظم والمجتمعات .

يجتمع اليوم هذا المؤتمر حول قضية التعريب التي تعيشها المجتمعات العربية بمستويات مختلفة وتشعر بها شعورا متفاوتا يتراوح بين حاجتها الى البسائط وحاجتها الى اعقد المصطلحات في مظان العلوم والتقنيات .

وضعية اللغة العربية في الجزائر في عهد الاحتلال :

ان الجزائر هي البلد العربي الوحيد الذي بلي باستعمار استيطاني حاقد هدف منذ تواجده فوق ارضنا لمقاومة شخصيتنا وتقاليدنا وثقافتنا العربية الاسلامية مستعملا لذلك كل وسائلالاذابة والاستئصال ، ولن احدثكم عن ميادين استغلاله الاخرى كنهب خيرات الارض وثرواتها وتشريد شعب من اراضيه الخصبة الى خنادقالجبال ومفاوز الصحاري ، ولا عن تحويله مساجدنا ، شعار العقيدة ، الى كنائس لرهبانه وثكنات لمرتزقته بل اقتصر على مسنوناته التشريعيةالتي جعلها قيودا على تعليم اللغة العربية في الجزائر ومنع بها المعلمين من تعاطي هذه المهنة الا برخص مشروطة بضوابط منها :

١ ـ اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير .

٢ ـ عدم التعرض لتفسير الايات التي تدعو الى التحرر من الظلم والاستعباد .

٣ ـ استبعاد دراسة التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ المحلي وجغرافية القطر الجزائري والاقطار العربية الاخرى الخ ..

٤ ـ استبعاد دراسة الادب العربي بجميع فنونه .

ولا شك انكم تتصورون ابعاد هذه العملية التي انطلق فيها الاستعمار ليحول شعبنا عن تاريخه واصالته ، ولتحقيق هذهالعملية جندت فرنسا كافة اجهزتها المتعددة من رجال القمع والارهاب من جهة ، ورجال البحث والاستشراق من جهة اخرى لتوصد بذلك الابواب امام الشعب الجزائري حتى يحرم من تعلم لغته ، وقامت في نفس الوقت بخلق الجو الملائم لذلك ففرنست الادارة والاقتصادووسائل الاعلام كما فرنست كل مستويات التعليم الذي خصت به طائفة من ابناء المعمرين وابناء الدائرين في فلكها من عملاء الاستعمار .

ولم يكن للشعب الجزائري بد من المقاومة للحفاظ على رمز شخصيته العربية الاسلامية المتمثلة في عقيدة الايمان وعروبة اللسان ، وناضل من اجل ذلك نضالا قاسيا ، فسنت لمعلمي لغة الضاد قوانين النفي والتشريد وتشريعات التغريم والتجريم ، ومع كل هذه الوسائل القهرية فان الكتاتيب القرآنية والزوايا الطرقية كانت هي الملاذ الوحيد الذي حافظ على عروبتنا واسلامنا بطرق تكاد تكون بدائية حتى فيض الله لشعبنا رجالا نهضوا للاصلاح والسياسة ، ففتحوا المدارس العربية في ارجاء البلاد لتعليم لغتنا وبعض المبادىء العلمية ، وجعلوا شعارهم (العربية لغتنا ،والاسلام ديننا ، والجزائر وطننا) وسارت السياسة التي انتهجتها الحركات الوطنية مع التعليم المستنير جنبا الى جنب ، لشحذ الهمم ، وتربية الناشئة على القواعد الوطنية الصحيحة ، واعداد الامة ليومالنهوض

الجبار ، يوم فاتح نوفمبر الذي خط في الازل ليكون يوم تحرير اقطار كبيرة كانت ترزح تحت نير الاستعمار منها قطرنا ، ولم تكن السياسة انذاك سهلة الممارسة والانتماء لحركاتها ولا التعليم العربي ميسرا لاعتناقه والانضواء تحت شعاره ، بل كلاهما السياسة والتعليم ، جحيما يتلظى هشيمه من مهج الضحايا ، وبقاؤه لهيبا قدمنا له من خيرات شبابنا الاف الشهداء .

وجاءت ثورة التحرير المباركة لتدك قلاع الظلم وتسترجع للجزائر كل مقوماتها بما فيها اللغة ، ولم تكن المعركة سهلة بل كان وقودها ضريبة دم باهظة قدمنا مليونا ونصفا من الشهداء وقرابة مليون من الارامل والايتام ، ومئات الالاف من المساجين ومعطوبي الحرب ، وزهاء مليونين من المشردين والمهاجرين .

استقلال الجزائر وقضية التعريب ضمن المشاكل الوطنية المستعجلة :

استقلت البلاد على هذه التركة الثقيلة من فقر ومرض وجهل وكان من اولويات الاستقلال ذلك العمل الجبار والجهد المضني لتوفير لقمة العيش للمواطنين وايجاد حقنة الدواء للمرضى والمعطوبين ، وبناء الدور لايواء المنكوبين والمشردين .

ولم يكن هذا بالسهل اللين على دولة بدات من الصفر وجدت دواليب الادارة انقاضا متهالكة بعدما عاثت فيها ايدي منظمات الارهاب وغلاة المعمرين بالتخريب وكان البالغون سن الدراسة لم يجدوا مقعدا في المدارس الموجودة انذاك بعد هجرة المعلمين الفرنسيين الى بلادهم .

اسمحوا لي اذا ذكرت لكم هذا فهو من الاساسيات التي لا يمكن فهم مشاكل التعريب في الجزائر الا بوضعه في هذا الاطار الذي جعل الجزائر تواجه ظروفا قاسية وتفرض عليها اولويات ملحة حصرت اهتمامها في عناصر رئيسية ثلاثة اطلق عليها فعلا وعملا لا اصطلاحا ولغة اسم الثورات الثلاث : الصناعية والزراعية والثقافية . وفي اعتقاد الجزائر ان قضية التعريب يجب الا ينظر اليها كقضية مفصولة عن القضايا الوطنية الاخرى بل هي المتفاعلة معها بالسلب او الايجاب ، وهي حلقة من حلقات السلسلة التي تركها الاستعمار في لساننا فرنسة ، وفي افكارنا جهلا ، وفي بطوننا جوعا ، وفي اجسادنا عاهات ، وفي نفوسنا عقدا وأمراضا . ولا يكون الخلاص حقيقيا الا اذا فككنا كل هذه القيود الموروثة وانطلقنا احرارا نبني ونشيد ، وبهذه النظرة المحددة للاولويات ، انطلقنا في ثورة صناعية ترسي صناعة ثقيلة في البلاد ، وتؤمم الثروات المنجمية وقطاع المحروقات وتسيطر على الوسائل المالية وتحتكر التجارة الخارجية وتخطط لكل مرافق الحياة من اجل بناء هياكل الاقتصاد الاشتراكي حتى تواكب الدول الصناعية في العلوم والتقنيات . وانطلقت بعد ذلك الثورة الزراعية لتسترجع الاراضي التي بيد المعمرين وتحدد الملكية الكبيرة وهي تهدف لتطوير الريف الجزائري وتصنيعه وتحويل المواطنين من عيشة بدو تعتمد الوسائل البدائية الى عصريين متمدنين يشاركون سكان المدينة مدنيتهم وتقدمهم تجاوزا للمقولة المعروفة : الارض لمن يفلحها ، ببناء الف قرية نموذجية مزودة بمرافق الحياة العصرية من انارة وماء وطرق ومستشفيات ومدارس وما الى ذلك ، وكللت هذه العملية بالنجاح في المرحلتين الاولى والثانية وستنطلق المرحلة الثالثة في القريب العاجل بعدما وفرت لها كل اسباب النجاح .

وموازاة لهذا كانت قيادة الثورة ترسي هياكل الدولة الحديثة بانشاء المجالس الشعبية للبلديات والولايات ومجالس العمال وسياسة التوازن الجهوي وتحقيق البرامج الخاصة والمخططات الانمائية التي حولت الجزائر الى ورشة كبيرة للعمل والبناء .

وبجانب الثورتين الصناعية والزراعية وتشييد هياكل الدولة العصرية لم تكن الثورة الثالثة وهي ثورة الفكر والسلوك اقل كلفة وعناء ومشقة من مثيلتيها وخاصة وهي تختلف عنهما من حيث طبيعة النشاط الذي يوجه الى افكار الناس وسلوكهم وطرائق حياتهم التي شبوا عليها . وهي تهدف بالدرجة الاولى الى المحافظة على اصالتنا المتفتحة بكل مقوماتها من عقيدة ولغة وتاريخ وتراث الحضارة العربية الاسلامية في كل مجالاته ، وان اللغة في الثورة الثقافية هي حجر الزاوية لانها لا تقتصر في تعابيرها عن بوارق الفكر وخوالج العواطف ، بل ينبغي ان تكون المعبر الاساسي والوحيد عن كل نشاطاتنا الوطنية بما فيها من صناعة وزراعة وثقافة ، وهي فوق ذلك رباط قوي يجمع بين افراد الشعب الجزائري ويربط بين افراد الامة العربية في كل اقطارها ويصل امجاد العرب وحضاراتهم بحاضرهم ويتوق مع تطلعاتهم لصنع امة قوية تفرض هيبتها ووقارها في هذا العالم الذي يتبنى سياسة الاحلاف والتكتلات .

التعريب احد مبادىء التعليم في الجزائر :

لم تطرح قضية التعريب علينا طرح المبدأ والخيار ، ولكن طرحت علينا من حيث الطرق والمناهج ومن حيث الامكانيات البشرية والمادية ، وهي في وضعنا ليست قضية فنية تقنية تحصر في الطريقة والمنهاج بل هي ايضا قضية سياسية وهدف استراتيجي بالنسبة الى الثورة ومطلب جماهيري تتطلع اليه كل فئات الشعب .

واكثر المجالات التي واجهنا فيها قضية التعريب بحدة هي مجالات التعليم والاعلام والادارة والاقتصاد ولعل التعليم هو الميدان الحيوي لعملية التعريب ، وقبل الحديث عن الاشواط التي قطعناها في ميدان التعريب فلا بد من ذكر بعض الصعوبات التي واجهت المدرسة الجزائرية الفتية التي اسست على مبادىء اربعة هي كالاتي :

١ ـ ديمقراطية التعليم : هدفنا من ورائه الى اعطاء فرص متكافئة لكل الاطفال مهما كانت مكانة الاسرة الاجتماعية لنقضي بذلك على الانحياز الذي كانت تباشره فرنسا بفتح أبواب المدرسة لابناء المعمرين والدائرين في فلكها من الجزائريين .

٢ جزأرة الاطارات : اذ تبين لنا بان التعاون الفني سواء مع الدول الصديقة والشقيقة او مع الدول الغربية لا يمكن ان يحقق لنا كل اهدافنا ومع اعترافنا بحسن الصنيع للذين امدونا بالكفاءات والخبرات وغالبا ما كانت على حساب شعوبهم ومجتمعاتهم وخطط التنمية لديهم فان حاجياتنا تتزايد باستمرار من معلمين ومديرين ومرشدين تربويين ومفتشين وبيدغوجيين ومتخصصين في البرامج والطرق ومؤلفين الكتب المدرسية .

٣ ـ التعريب والمحتوى العلمي والتقني للتعليم : ان الجامعات الجزائرية باعتمادها مبدأ التركيز على العلوم والتقنيات يراد من ذلك انفتاح الجامعة على المجتمع في كل تفاعلاته وتحولاته والتخلي تدريجيا عن التعليم النظري البحت وخاصة وعدد الطلاب كان لا يزيد عن الالف غداة الاستقلال وقد ارتفع هذا الرقم في افتتاح الموسم الجامعي الحالي ٧٤ ـ ٧٥ الى سبعة وثلاثين الفا وسيرتفع حسب تقديرات وزارة التعليم العالي الى مائة الف في سنة ١٩٨٠ وذلك ما يتطلب جيشا من الاساتذة والمدرسين قوامه ثمانية الاف واكثر من ثلاثة ارباعه يكون

وعمدت الجزائر الى القضاء على هذا الخطر الداهم بتاسيس معهد وطني لتاليف الكتب والمذكرات المدرسية ، وبجهد مضن وقاس استطاعت الجزائر ان تغطي كل حاجياتها في مجال الكتاب المدرسي ولمختلف المواد اللغوية والاجتماعية والعلمية .

واذا كنا وفرنا كمية الكتاب اللازمة واصبح التلميذ الجزائري يجد كتابه المدرسي في اي مادة من مواد المنهاج ، واذا تغلبنا على مشكلة الكم ، فالاعمال الان جارية على قدم وساق لادخال اصلاحات جذرية على مضمون هذا الكتاب وطريقته من حيث الكيف ليتماشى مع اصلاح التعليم الجديد الذي يعتبر ثورة جذرية في ميدان التعليم، والذي نطلق عليه اصطلاحا اسم المدرسة الاساسية لتسع سنوات ، ذات التعليم المتعدد التقنيات ، والتي تمتد لافاق « ١٩٨٥ » حيث يكون مجال تطبيقها جيلا دراسيا كاملا والتي انطلقنا فيها بدءا من هذه السنة الدراسية ٧٤ – ٧٥ وهذا مشروع ضخم لتعريب التعليم نهائيا وذو محتوى علمي وتقني .

وتدعيما لذلك انشات وزارة التعليم الابتدائي والثانوي مركزا وطنيا لمحو الامية باللغة العربية شمل قطاعات كبيرة من عمال حرفيين وزراعيين وفلاحين ، كما اسست الوزارة مركزا وطنيا لتعميم التعليم مهمته مساعدة الذين انقطعوا عن الدراسة لاسباب مختلفة حتى يواصلوا تعليمهم عن طريق المراسلة من الشهادة الابتدائية حتى البكالوريا ، تساعدهم في ذلك شاشة التلفزة والاذاعة الوطنية على تقديم دروس بالعربية في مختلف المواد العلمية والادبية التي يشملها المنهاج الدراسي .

كما انشات الوزارة وبدءا من المخطط الرباعي الاول معاهد تكنولوجية في مختلف الولايات لتخريج المعلمين باللغة العربية وحدها للمرحلة الابتدائية ،وهي قادمة على تعريب المعاهد التكنولوجية الخاصة بتخريج مدرسي المرحلة الاعدادية بدءا من الموسم الدراسي ٧٦ – ٧٧ والتي ما زالت تخرج الان مدرسين بالعربية وبالفرنسية ..

التعريب والجامعة :

اشير اشارات عابرة لخطوات التعريب في التعليم العالي دون ان ادخل في التفاصيل والصعوبات التي اعترضت الجامعة من حيث الاساتذة والبرامج والكتب العلمية .

اقول فقط بان كليات الاداب عربت تعريبا كاملا بكل فروعها من تاريخ وجغرافيا وفلسفة ولغة عربية وعلم نفس وعلم اجتماع وعلوم التربية ، هذه المواد تدرس كلها باللغة العربية ولم تبق الفرنسية الا كلغة اجنبية يتلقاها المعربون تزويدا لمعارفهم من بين اللغات الاخرى واصبحت فرعا يعطي شهادة الليسانس في الاداب الفرنسية محصورا ضمن دائرة اللغات الحية ، وعربت من جهة اخرى ليسانس حقوق وصحافة وترجمة ، كما فتحت اقسام معربة في العلوم الصحيحة والاقتصاد والعلوم السياسية .وفرض على باقي الاقسام المفرنسة في مختلف الكليات مستوى بالعربية يمتحن فيه الطالب ويحرم من اخذ الشهادة العلمية الا بعد نجاحه في امتحان العربية .

وقد اقدمت الجامعة بدءا من هذا الموسم الدراسي على تعريب وحدات من البرامج التي كانت تدرس بالفرنسية ويكون قد درس ما يقارب من ثلث المواد المقررة في الشهادة بالفرنسية .

والتعليم العالي مشروع ذو مراحل للتعريب الشامل لمختلف الكليات والمعاهد العليا بما فيها الصيدلة والطب ينتهي حسب تقديرات الوزارة في حدود ١٩٨٥ .

التعريب ووزارة التعليم الاصلي والشئون الدينية :

هناك مجهود تعليمي اخر قامت به وزارة التعليم الاصلي والشئون الدينية حيث انشات معاهد ثانوية في مختلف ولايات القطر تعتمد نفس المنهاج الدراسي الذي اقرته وزارة التعليم الابتدائي والثانوي تضاف اليه معلومات في الشريعة الاسلامية ، وشهاداتها معترف بها رسميا كشهادات التعليم العام ، وكانت اعمال هذه الوزارة رافدا قويا من روافد التعريب حيث وفرت الدراسة في معاهدها لثلاثة وعشرين الف طالب في الثانوي يتلقون دروسهم بالعربية في كل مواد البرنامج ، ويتعلمون لغات حية اخرى ، من بينها الفرنسية في فروع التعليم الثانوي الثلاثة : الادبي والعلمي والرياضي .

كما اقدمت على تجربة فريدة في الجزائر وهي تعريب المعاملات الادارية في كل مصالحها وتعاملها مع غيرها من الوزارات تعريبا كاملا ، ولم يبق الا تعاملها مع المالية ما زال باللغتين نصها الاصلي بالعربية والنص الفرنسي خلاصة وترجمة .

وزيادة على ذلك احيت سنة اصلية وهي تعليم العربية بكل مساجد الجمهورية ، وارجعت للمسجد دوره من التعليم والتثقيف مثلما كان بالامس في عهودنا الزاهرة مركز اشعاع حضاري يقوم بدور المدرسة والجامعة ، وافادت هذه التجربة فائدة عظمى بتعريبها افواجا كبيرة تعد بالالاف حصلت على الشهادة الابتدائية باللغة الوطنية .

التعريب ووسائل الاعلام الوطنية :

انتقل بكم الان الى ميدان اخر من ميادين التعريب وهو بمثابة السلاح الفتاك ذي الحدين ، يفيدنا في شن الحرب على مخلفات الاستعمار ، ويضرنا ان نحن اسأنا استعماله ادنى اساءة ، هذا السلاح هو الاعلام مقروءا ومسموعا ومنظورا ، ولابدا بالحديث عن تعريب شاشة التلفزة لما لها من قوة تاثير على الناس بالحركة والصورة والكلمة ووجودها في عصرنا الحاضر ضرورة حتمية ، ولها منافع ومآثر ولاستغلالها استغلالا نافعا انتهجنا سياسة تجعلنا متفتحين لا منفتحين ، آخذين من وسائل الحضارة ما يساعدنا على الرقي والازدهار ، متجنبين كل عوامل الهدم للقيم الانسانية والاخلاقية ، ومع ذلك وجدنا انفسنا امام مشكلة ذات شقين ، حوار الفيلم الناطق بلغة اجنبية ومحتواه الذي يخالف قيمنا واعرافنا العربية الاسلامية واتجاهنا الاشتراكي ولا ملجا لنا الا الانتاج العربي في ميدان السينما والتلفزة ، وكانت الصدمة حادة اذ وجدنا اغلب الافلام العربية ناطقا بلهجات محلية ومتفاوتا تفاوتا مخلا ومضرا في محتواه السياسي والاجتماعي وابقينا رغم مرارة هذا الواقع على المسلسلات اللبنانية الناطقة بالفصحى ، مضحين بالمحتوى من اجل نشر اللغة العربية في البيت والشارع تدعيما للزاد الذي يتلقاه اطفالنا في المدارس وما زلنا نعتمد على المسلسلات المصرية رغم طابعها المحلي ولهجتها العامية ،وكم نتمنى في الجزائر ان ينتبه المخرجون وكتاب السيناريو والمؤلفون العرب للغة الفيلم التي ينبغي ان تكون عربية فصيحة ولمحتواه الذي ينبغي ان يكون معبرا عن تطلعات الجماهير العربية .

كما قامت التلفزة الوطنية بتعريب البلاغات والتقديمات

والتحقيقات الصحفية وتعريب الرياضة بكل انواعها سواء كانت مباريات وطنية او دولية ، على اهتمام الجمهور في عصرنا الحاضر بشكل واضح ، وساعدت حصة الحديقة الساحرة المتلفزة المخصصة لاطفالنا الصغار على نشر اللغة العربية بالتمثيليات والاناشيد الوطنية والاغاني العربية ، ويقدم القسم المدرسي بالتلفزة دروسا لتعليم الكبار واخرى مساعدة لطلاب الثانويات في مختلف المواد العلمية والادبية التي يتضمنها المنهاج الدراسي باللغة العربية .

وتبث الاذاعة الوطنية مختلف برامجها بما فيها الدروس المخصصة للتعليم باللغة الوطنية .

اما الصحافة المكتوبة فلم تكن الا جريدة المجاهد التي واكبت حرب التحرير ناطقة بالعربية ، وانطلقت مع الاستقلال جريدة الشعب اليومية وعربت بعدها جريدة النصر وهناك مشروع لتعريب جريدة الجمهورية الصادرة بغرب البلاد .

اما المجلات الاسبوعية او الشهرية والتي انطلقت كلها بعد الاستقلال ما عدا المجاهد فاذكرها باسمائها دون الرجوع الى الهيئات التابعة لها ، وهي المجاهد الاسبوعية - الجيش - الشباب - الجزائرية - الثورة والعمل - اول نوفمبر - الاصالة - الثقافة - آمال - الاثير - الوان - ونشريات دورية اخرى تمس كل قطاعات الحياة الوطنية وكلها ناطقة بالعربية وهي تساوق مراحل الثورة وتعكس التحولات العميقة التي عرفتها الجزائر منذ الاستقلال حتى الان تشارك الصحف الناطقة بالفرنسية في حمية التعريب .

واعفي نفسي واعفيكم من الدخول في مشكل الكتاب العربي وسوقه وتسويقه ونوعه فتلك مشكلة اخرى تحتاج بدورها لمحاضرة كاملة .

التعريب وجهاز القضاء :

وهيا بنا لتجربة اخرى من تجارب التعريب في الجزائر وهي تعريب جهاز القضاء تعريبا كاملا حيث اصبح التقاضي بين المواطنين لا يسير الا باللغة الوطنية في كل محاكم القطر ، ولا يخفي عليكم ان قضية العدالة بالنسبة الى كل دولة مستقلة هي قضية تمس سيادة الوطن ، ولذلك وجب الا تبقى لغة القاضي هي لغة المستعمر التي استعملها بالامس لاضطهاد شعبنا وسن بها قوانين تحجير املاكه واراضيه واوامر تقتيله وتحريقه ، وعليه فان هذه الوضعية في جزائر الاستقلال مرفوضة بشقيها : مضمون قانون المستعمر ولغته ، وعشنا اياما مرغمين فيها بضرورة الظرف نرى الفلاح المتقاضي يدور حوار حول قضيته بين قاضيه ومحاميه بلغة لا يفهمها وقد استنكر هذه الوضعية الشاذة الاخ - الرئيس هواري بومدين ، رئيس مجلس الثورة ورئيس مجلس الوزراء في افتتاح السنة القضائية بتاريخ ٢٣ اكتوبر ١٩٦٩ اذ قال من كلام طويل حول التعريب ما نصه : « وبما ان القضاء في مستوى الشعب لا بد ان يكون بلغة الشعب ». وانطلقت وزارة العدل في تجربة رائدة في تعريب جهاز القضاء بصلابة وعزيمة قوية اتخذت فيها الوزارة قوانين زجر قاسية لكل من يحاول عرقلة التعريب في هذا الجهاز ، وكان النجاح من حيث لغة التقاضي . اما من حيث مضمونه فقد انشئت لجنة وطنية للتشريع مهمتها وضع تشريع جزائري يعتمد شريعتنا الاسلامية وتجربتنا النضالية وسيفرغ من اعداده قبل شهر يوليو ١٩٧٥ ، ويترأس هذه اللجنة الاخ - الرئيس هواري بومدين نفسه وينوبه فيها وزير العدل وحافظ الاختام ، وقد نجحت هذه التجربة نجاحا باهرا في مدة قصيرة .

التعريب والجهاز الاداري للدولة :

تعزيزا لهذه المجهودات المبذولة في تعريب التعليم والاعلام والعدالة صدر المرسوم الرئاسي في ٢٦ ابريل ١٩٦٨ القاضي بوجوب معرفة اللغة الوطنية من طرف كل الموظفين العاملين باجهزة الدولة وقطاعات الاقتصاد ، والهادف الى توفير الشروط الموضوعية للتعريب والمجبر كل موظف مهما كانت رتبته الادارية او السياسية على معرفة حد ادنى من اللغة العربية ، واصبح النجاح في مستويات اللغة الوطنية شرطا للترقية والتوظيف في مختلف المناصب الحكومية ، وجمدت ملفات الموظفين الذين لم ينجحوا في امتحانات اثبات المستوى ، وانطلقت هذه العملية لتعريب الموظفين على مستوى كل الوزارات والولايات، وخصصت مختلف المؤسسات حصصا من ميزانيتها لتغطية عملية التعريب بتوظيف المعلمين والاساتذة وانشاء مكاتب التعريب للمراقبة والتسيير ، ورغم صعوبة التطبيق فان النتائج الاولية تبشر بخير حيث جعلت الكثير من الموظفين والمسؤولين السياسيين الذين كانوا لا يحسنون الا الفرنسية يقرأون ويكتبون ويتعاملون باللغة العربية .

وكما ترون ان التعريب صعب لجهاز اداري كامل بكل تعقيداته الادارية والفنية ومصطلحاته العلمية والفنية ، ومع قلة الاطارات المعربة عندنا والمتخصصة في ميادين الادارة والاقتصاد ، وقلة الوسائل المادية المساعدة من كتب وصحف ومجلات متخصصة لدينا في علوم الادارة والتسيير ، وصعوبات اخرى موضوعية ترجع لطبيعة بعض الاعمال الادارية التي تجعل من تفرغ الموظفين لحصص العربية ضررا لسير المصلحة نفسها كالعاملين في البرق والهاتف والممرضين واطباء الدوريات ورجال الامن والجيش والحماية المدنية وغيرهم من المصالح ذات الصبغة الاستعجالية . هذا بالنسبة الى الموظفين ،اما بالنسبة الى المسؤولين فالسفارات والبعثات الرسمية والاجتماعات المتتالية ومقابلة الوفود تحول دون ذلك بالاضافة الى مشكلة التوقيت والكتاب المدرسي العادي ووجود المعلم وقاعات الدرس حيث تحولت كل مؤسساتنا الى مدارس لتعليم العربية . كل هذه المشاكل جعلت المسيرة التي انطلقنا فيها لم تؤت اكلها كما كنا نتوقع في الوقت الموعود .

التعريب وبعض النتائج الاولية للادارات :

ولا بأس بذكر بعض النتائج الاولية التي تحصلت عليها بعض الوزارات ، فوزارة المالية قامت بتعريب القواميس المالية والاقتصادية وتكوين مفتشين ومسؤولين ومراقبين في المالية مباشرة باللغة العربية ، بالاضافة الى تعليم اللغة لجميع الموظفين . ووزارة الدفاع مثلا عربت مديرية التدريب على مختلف الاسلحة تعريبا كاملا وعربت اغلب المدارس العسكرية التابعة لها ، وقد نال الشهادة الابتدائية بالعربية من جنود الجيش الوطني الشعبي ٣٦٨٢ جنديا في السنة الدراسية ١٩٧٢ - ١٩٧٣ ، كما زاول ثمانية وعشرون الفا في العام الدراسي ١٩٧٢ - ١٩٧٣ . دروس العربية من جنود وموظفي وزارة الدفاع في مختلف المستويات .

كما قامت وزارة البريد والمواصلات بتعريب كل الوثائق الخاصة بالحوالات والصكوك والبرق وهي مقبلة على تعريب جهاز الموظفين بتوظيف المعربين مباشرة وتخصيص علاوات مالية للمفرنسين الذين يبذلون جهدا في تعريب انفسهم حتى يتحولوا الى العمل بالعربية.

وتقوم وزارة الصناعة بجهد حثيث لتعريب الشركات الوطنية وخاصة ما توصلت اليه شركة « سوناتراك » من توفير المعلمين لتعليم

اللغـة العربيـة لخمسة واربعيـن الفا من الموظفيـن كمـا الفت كتبا خـاصة بها ومعاجم باللغتيـن تدور مصطلحاتها حول البترول ومشتقاته.

واصبحت وزارات التعليم والشبيبة والاعلام تستعمل اللغتين فـي اغلب اعمالهـا نتيجـة لهذه الحملة في تعريب الموظفيـن ، وتسير باقي الوزارات والمؤسسات فـي نفس الطريــق لتعريب مصالحها وموظفيهـا .

وبمـا ان اللغـة العربية لم تحتل كافة القطاعات الوطنية فـان النتائج التي توصلنـا اليهـا رغم انهـا مشجعـة وايجابية اذا قيست بظرفها الزمني وبالمشاكل الاخرى التي يعيشهـا المجتمع الجزائـري والتي تزاحمهـا وتنافسهـا في طلب الحلول المستعجلة فان قضيـة التعريب اصبحت تحتل مكـان الصدارة في جدول اعمالنا السياسي.

التعريب والحـزب :

ضمانا لهذه النتائج الايجابية أحدثكـم الان عـن نشاط مكثف علمي وسياسي تقوم به نخبة من المثقفيـن الثوريين الملتزمين بالدفـاع عـن القضايا الوطنيـة كلهـا معربيـن ومفرنسين ، وتحـت اشراف وسهـر حزب جبهـة التحرير الوطني ، اطار الشرعية في السياسة والتوجيه والذي يضع هذه القضية من اول اهتماماته الوطنيـة لانـه الاطار السياسي الوحيـد القادر على تنسيق هذه الجهود المبذولة في مختلف الوزارات ، ولكونه محل ثقـة الجماهير المتفاعلة في خلايـاه ومنظمـاته من عمـال وفلاحين ومثقفين ثورييـن ، وهـو طليعة الكفاح الثوري الذي قاد البلاد الى الحريـة والاستقلال ، وهو الدرع الواقي لهـا من كل المخططات الهدامة والاطماع ، وهـو الحـارس المستيقظ للدفاع عـن خيارات البلاد الاساسية التي منهـا استرجاع لغة الوطن.

التعريب وبرنامج اللجنة الوطنية للتعريب :

انطلق الحزب من هذا الفهم الواعي للقضية وضمن هذا الاطـار السياسي ، فكـون اللجنـة الوطنية للتعريب في نهايـة السنة الماضية التي تشارك في اعمالهـا كـل الوزارات والمؤسسات الوطنية والولايات بالتمثيل وتكويـن اللجان ، وانطلقت الدراسـة من شهـر مايو الماضي معتمـدة في ذلك تقاريـر الوزارات المشتملة على اجابات مضبوطـة من طرف الموظفين فرادى ، وكانت هذه العمليـة بمثابة سبر عام وجـرد شامل لكـل امكانيات البشريـة المعربة في البلاد في مختلف القطاعات الاداريـة والاقتصادية ، وحصر الصعوبات الموضوعية والمفتعلة التـي اعترضت مسيرة التعريب في كل مراحله ، وكان العمل حسب محاور رئيسيـة اربعـة شملت مختلف الوزارات حسب طبيعـة اعمالها ، وانتهت اللجنة من هذه المرحلـة في اواخـر يوليـو الماضي لتنطلق في دراسـة المرحلـة الثانيـة حسب مهام اربع هي كالاتي : كلف فريق لدراسة موضوع منهجيـة التعريب بحصر الطرق البيداغوجية وتحديد طرائق استعمال الوسائل السمعية البصرية وايجـاد الوسائل المساعدة كالمجلات والافلام وغيرهـا . وكلف فريق ثان بوضع المنهاج الدراسي للموظفيـن معتمدا في ذلك على سلالم التوظيف العمومي الرئيسيـة المحددة لهيئات الموظفيـن حسب الدرجات العامية ، ويشتمل هـذا المنهاج على مرحلتين ، مرحلة التعريب الاساسي وهو جذع مشترك بيـن مختلف الموظفين الحاملين لشهادة علميـة واحدة في مختلف الوزارات يتلقـون خلالها مجموعة من المفردات والمصطلحات المأخوذة من الحيـاة اليوميـة للمواطـن الجزائري وصيغـا وقوالب عربيـة تمكنهم مـن اساسيات اللغـة تمكينـا يقضي على مشكل القراءة والكتابـة من خلال نصوص تعـد خصيصا لذلك . والمرحلـة الثانية هي التعريب الوظيفي الذي يجـرد مصطلحات كل وزارة على حدة ثم يتم تحويلها الى نصوص تعليمية يتلقاها الموظف تكملة لمعلوماته السابقة ، بالعربية ، وبذلـك يمكـن ان يعبر عن كل معارفه بالفرنسية بلغته العربيـة في العمـل والحياة . وكلف فريق ثالث بوضع مشاريع قانونية تكفل تطبيق هذه البرامج تطبيقـا صحيحا في مدة زمنية محددة ضمانا للنجـاح ورعاية للجهـد الذي يبذله الحزب والدولة ومختلف الوزارات ، وكلف فريق رابع بالاعداد الجيـد لاستعمال سلاح الاعلام استعمـالا علميـا ومنطقيا لتجنيـد كل الطاقات البشريـة تجنيدا كامـلا وواعيا حتى تكلل هذه العمليـة بالنجـاح .

وسوف تنطلق المرحلـة الثالثة والاخيرة في شهـر ديسمبر المقبل بدراسـة تقارير الولايـات بعـد تكويـن لجان التعريب بها توازيهـا عملية ثانية تتمثل في دراسـة ميدانية على عينـات اجتماعيـة اعدت لها استبيانات خصيصا لذلك .

ومجمل نتائج هذه الاعمال الدراسية هـو المشروع الذي تتقدم به اللجنـة للندوة الوطنيـة للتعريب التي ستنعقـد فـي شهـر مارس المقبل مبدئيـا لتكتمل بهـا هذه الدراسـة اكتمالا بمشاركة المسؤولين وتحويلهـا بعـد ذلك الى اجراءات تطبيقيـة تحت مراقبة الحـــزب واشرافه في ظرف زمني محدد تجند له كل الامكانيات البشرية والمادية لانجـاح عملية التعريب واحلال العربية محلها الطبيعي في كل نشاطاتنا السياسيـة والاداريـة والاجتماعية وغيرها .

* * *

هذه تجربتنا حاولت حصرها بهذه الكلمـة المقدمـة اليكــم بايجابياتهـا وسلبياتهـا والصعوبات التي اعترضتنا والتي مـا تزال تقف في الطريق وان نجاحنا مهما اعتمدنـا فيه على الذات وكلفنـا انفسنـا المشاق فـان مساعدة الدول العربيـة لنـا في هذه القضية عامل ايجابي وحاسم .

د . محمد العربي ولد خليفه

التعريب واصلاح الجامعة

لا اطمع في هذه الكلمة الى تقديم دراسة موثقة في فقه اللغة واسرار البيان العربي وامكانياته غير المحدودة في الاستيعاب والمطاوعة، فكل ما آمله هو تقديم تصورات مبدئية عن قضايا العربية والتعريب من واقع تجربتنا الجريئة في تعريب واصلاح التعليم العالي بالجزائر وخاصة الدراسات المتعلقة بالتكوين العقائدي وذات الصلة بشخصيتنا القومية وانتمائنا الحضاري كما هو الشان في كليات الاداب والحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية الخ ..

وقبل ذلك يحسن ان نضع في اعتبارنا بضعة ملاحظات اساسية :

١ ـ ان تقدم لغتنا وازدهارها لا يمكن ان يتم بمعزل عن تطور الوطن العربي كله فلا يمكن ان نتهم لغة بالعجز والتقصير الا اذا اتهم اهلها قبل ذلك بالضعف والتاخر . ان اعظم خدمة تقدم الى لغة الضاد لهي القضاء على منافسة اللغات الاجنبية لها وخاصة تلك التي سادت ايام المستعمر ـ في ميدان التعليم وفي مختلف مراحله من الحضانة الى الجامعة وفي شتى ميادينه ابتداء بالعلوم والثقافة وانتهاء بالبحث والابداع . قد تتعثر اللغة في بادىء الامر ولكنها لا تلبث أن يستقيم لها الامر وتنهض بمهامها على اكمل وجه كما برهنت على ذلك في عصورها الزاهرة . ان لغات اصغر منها عمرا وافقر زادا توفرت لقومها العزيمة ورباطة الجاش والعزة القومية قد اقتحمت ميادين لم تعهدها من قبل واعطت الدليل القاطع على ان القوة والضعف هي من خصائص البشر لا من خصائص الاداة اللغوية ذاتها .

ولا ينبغي ان يفهم من هذا الدعوة الى نبذ اللغات الاجنبية وطرحها تماما فلا ضير مطلقا من تقويتها والالمام باكبر عدد منها وخاصة في مستوى التعليم الجامعي شريطة ان تكون سيادة اللغة الوطنية كاملة غير منقوصة .

٢ ـ ان الثروة الحقيقية والدائمة لاية امة هي شبابها ، ولا تقاس هذه الثروة بالعدد ومستوى الخبرة بقدر ما تقاس بدرجة الوعي واصالة الانتماء القومي ومستوى الالتزام الثوري . وتعتبر بلادنا العربية في مقدمة البلدان الفتية بشريا ففي الجزائر مثلا اكثر من نصف السكان يقعون في فئة العمر الاقل من ٣٠ سنة (٥٦ ٪ حسب احصاءات ١٩٦٦) وتكشف توقعات كتابة الدولة الجزائرية للتخطيط على ان فئة العمر ما بين ١٤ ـ ١٩ سنة ستتزايد في العشر سنوات القادمة بالشكل التالي :ـ

١٩٧٥	١٣٨٨٠٠٠
١٩٨٠	١٧٨٩٠٠٠
١٩٨٥	١٨٥٤٠٠٠

وهذه الطلائع التي تتاهب لاستلام المشعل في حاجة الى ان تنهل من مورد صاف يعزز انتماءها القومي ويحميها من الانقلابات التي تنهشها من كل جانب وتلح بشراسة على التسلل الى عقولها وقلوبها لتفتك بها من حيث لا تشعر ، ولذلك ينبغي ان لا تطرح قضايا التعريب خارج اللغة ومضمونها باعتبارهما وحدة لا تنفصم .

ان اللغة موصل للفكر والشعور وبصمات ظاهرة يتركها العقل اثناء نشاطه وفي حواره المستمر مع ذاته ومع غيره ، ذلك الحوار الذي يجعله في اشتباك مع اطراف المجهول في كل شيء . واللغة بهذا المعنى تلتصق بالفكر وتلتحم بالشعور هي فيوضات تحمل خصائص الاصل حتى كانها هذا الاصل ذاته . انها اشبه بالدورة الدموية التي تغمر الجسم كله تحمل الحركة والحياة ولا يمكن فصلها عن ذات الفرد الا اذا اصبح جثة خامدة . فمن السهل ان ندرك ان اللغة في تدرجها من التعبير البسيط عن شؤوننا وشجوننا الى التعبير الفني الذي يكتسبه الخاصة من الناس بالدربة والمران انما هي الوعاء والمحتوى في آن واحد فهي تحمل في طياتها سمات الفرد وملامح شخصيته ومجموع انتماءاته الثقافية والحضارية ، ولهذا السبب ينبغي أن تعتبر اللغة ثروة قومية تتغذى منها الاجيال وتحفظ وحدة الامة وتماسكها وتضمن لها الاستمرار في الزمن .

٣ ـ لقد ترك الاستعمار في بلداننا جروحا غائرة لا تزال آثارها بادية في النفوس والعقول تظهر احيانا في صورة عادات سلوكية واحيانا اخرى في صورة انماط من التفكير والقيم التي نزن بها انفسنا وننظر بها الى ماضينا وحاضرنا ولا بد لكي نضمن لتجربة التعريب النجاح ان نهز هذه المفاهيم السلبية من جذورها لان تجاهلها او تبرير وجودها سيضاعف من فتكها وتغلغلها في عقول ناشئتنا . لقد خلف فينا الاستعمار تركة ثقيلة تدعو الى التواكل والانبهار بلغته وتوحي الينا باقتفاء آثاره وتلقننا العجز عن الابداع والنقص في كل شيء .

وقد عرفت الجزائر في هذا الميدان ظروفا خاصة ، فقد تعرض شعبنا طوال قرن وثلث لاضطهاد ونفي منظم قلما شهد التاريخ له مثيلا،

فقد عمد الاستعماريون في بداية الامر الى ابادة الجزائريين تدفعهم الى ذلك احقاد صليبية وثارات دفينة ، وعندما عجزوا عن ذلك التجأوا الى محاولات المسخ ومحو مقومات الشعب ، وفي هذا المعنى يقول للاميرال « فيدون » في خطاب توجه به الى الاباء البيض سنة ١٨٧١ « انكم اذا سعيتم الى استمالة الاهالي بواسطة التعليم وبواسطه ما اسديتم اليهم من احسان قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة للبلاد الفرنسية، فليس في وسع فرنسا ان تنجب من الابناء ما يكفي حتى تعمر بهم الجزائر ، وصار من اللازم ان يستعاض عنهم بفرنسه مليونيين من البرابرة الخاضعين لسلطاتنا ، واصلوا عملكم بحكمة ودرية وحيطة ، لكم مني التاييد وفي امكانكم ان تعتمدوا على « مجلة العاملين ـ باريس ١٩٢٥) اذن فقد ادرك الاستعمار ان الغزو المسلح لا يؤتي اكله الا اذا سدد ضربة قاضية لشخصية الامة فانكر وجودها وسحق تراثها وحرمها من اعز ما تميز به وهو لسانها ولتحقيق ذلك عمد المحتلون الى عملية مزدوجة : احتواء لكل ما هو اصيل في شخصيتنا والغاء صارم لمقومات وجودنا . احتواء يخضع الفرد ويسلبه ذاته ثم يضع على وجهه مساحيق تتركه في منتصف الطريق بين جزائريته واوروبية المستعمر فهو ممزق بين ذاتية تسلب منه بالخداع والبطش وبهرج زائف يقدم اليه قصد التعرية والتشويه .

ولم يكن بد من ان تواجه هذه العملية بردود فعل غريزية فالتجات جماهيرنا المضطهدة الى آلياتها الدفاعية فتمسكت بكل ما هو مضاد لثقافة المستعمر ومفاهيمه وتحصنت في قلعة الماضي ، فكل ما هو قديم اي سابق للغزو الاستعماري فيه الخير والبركة وكل ما هو من فعل الاستعمار خبيث ومريب ، ان الريفي القابع في كوخه المعلق على قمة الجبل يفضل زيارة ضريح او تقديم نذر او زيارة طبيب شعبي يفضل كل ذلك على زيارة عيادة طبية حديثة يديرها اجنبي فيفحصه رومي هو عدو قبل ان يكون طبيبا ، وهو يفعل ذلك لا لانه ينكر فضل الطب الحديث واياديه البيضاء ولكنها آلية الدفاع الوحيد والمكنة التي يواجه بها المحتل الدخيل . وهذا الريفي نفسه يقود ابنه الى الكتاتيب والزوايا ويحيط ذلك بجو من التقديس لا لانه ينكر فضل التعليم والتربية الحديثة ولكن لانه يتجاهل المستعمر ويرفض لغته واساليبه التربوية جملة وتفصيلا ، وقد كانت هذه الآليات الدفاعية هي الذخيرة التي حولتها ثورة فاتح نوفمبر الى آليات هجومية اطاحت باشرس احتلال عرفته الشعوب وحققت معجزة العرب في هذا القرن فقد كانت لهم عزا وفخرا وهي اليوم لهم ذخر وسند .

اذا عدنا الان الى واقع التجربة الجزائريه في تعريب واصلاح الجامعة وجب ان نستحضر الملاحظات السابقة ، فان بلادنا لم تجد غداة الاستقلال سوى هيكل غريب وطفيلي يعيش على هامش الثورة ويرفض التجاوب معها والانتماء الى اختياراتها المبداية وفي مقدمتها التعريب ، وقد كان ذلك متوقعا فطوال العهد الاستعماري كان الحرم الجامعي محرما على الجزائريين توضع لمن يحلم باقتحامه حواجز وموانع تبدأ من المراحل السابقة للتعليم . وعندما اعلن اتحاد الطلاب المسلمين الجزائريين قرار الاضراب ومقاطعة الدروس لم يبق بالجامعة الا زبانية المنظمة الارهابية الفرنسية الذين اجهزوا قبل الاستقلال على مكتبة الجامعة وخلفوها وراءهم طعما للنيران ، ولكن ذلك لم يفت في عضد ثورتنا فشرعت قيادة الثورة منذ ١٩٦٥ في هز هذا الكيان الغريب فاعلن الاخ / هواري بومدين رئيس مجلس قيادة الثورة انه آن الاوان ان تخلع الجامعة هذا الحجاب الذي يلفها ليرى الشعب باكمله ما خلف هذا الحجاب وقد كانت هذه الصيحة بداية العمل الثوري الذي ما زال متواصلا الى اليوم .

ان هذه الجامعة التي يؤمها الالاف من فلذات اكبادنا كانت تسير بقوانين عتيقة ويشرف على عدد كبير من اقسامها متعاونون اجانب من الذين تنقصهم الكفاءة وصدق النوايا تبعثهم في الغالب فرنسا لتتمة خدمتهم المدنية ولذلك كن همهم الاول والاخير هو اعداد بحوثهم وتعلم الحجامة نمن رؤوس اليتامى كما يقول المثل عندنا .

وقد بلغ الطيش والنزق ببعض هؤلاء ان اصبحت محاضراتهم منابر للنيل من اختيارات ثورتنا ومقومات شخصيتنا حتى سولت لهم انفسهم استدعاء لجان كاملة من فرنسة لاجراء امتحان شفوي في السنة الاولى من الاجازة لطالب اجنبي وافد من وراء البحر . بينما كان الجزائري غريب اليد واللسان في عقر داره .

وقد اخذت القيادة الثورية على عاتقها تقويض دعائم هذا الهيكل الغريب وتشييده من جديد فاقتحمت الثورة رحاب الجامعة وبدات تعمل على ثلاث جهات وفي آن واحد .

أ ـ ترويض كيان الجامعة ووضعها في سياق الثورة فالجامعة اما ان تستلهم واقع الشعب وتعمل لتحقيق مطامحه واما ان تزول تماما . وهكذا فتحت الجامعة ابوابها لابناء العمال والفلاحين ينهلون العلم في مدرجاتها واتيحت الفرصة لمن اعاقتهم مشاركتهم في حرب التحرير من معطوبين وفدائيين ومناضلين وغيرهم من فئات الشعب المحرومة فاقبلوا على استكمال تعليمهم وتكوينهم وقضى نهائيا على جامعة النخبة المحظوظة التي تتنكر لواقع الشعب وتتقوقع في غشاوة العزلة والاستلاب . فالجامعة بهذا المعنى قطاع من قطاعات التمويل والاستثمار عليه ان يوفر للثورة ما تحتاجه من خطط وعقول وثقافة بطريقة اجرائية تصدق عليها قوانين الاقتصاد الاشتراكي : « على قدر الجهد يكون الجزاء » وكما افصحت عنه الاية الكريمة بأبلغ تعبير « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

ب ـ / جزاره اطار التعليم العلمي وتكوينه ، فقد اتى على جامعتنا في الجزائر حين طويل من الدهر كانت فيه تعيش على ما يأتيها من مدد من وراء البحر ، وكثيرا ما يفد اليها مدرسون غير اكفاء مهنيا وغير مستعدين للتوافق مع واقعنا الثقافي والاجتماعي ، فكان المردود ضئيلا والمضمون هزيلا ولذلك ارادت الثورة ان تعتمد على امكانياتها الذاتية اولا فتجد في تكوين المدرسين في الميدان الا عند الضرورة القصوى ، فوضعت خطة مدروسة للتكوين واعادة التكوين المستمر بحيث تتاح الفرصة للمدرس بعد كل سنتين او ثلاث سنوات فيتفرغ للبحث ويستكمل تكوينه على ما يجري في شتى انحاء العالم وبذلك اصبح دخول الجامعة بداية لا نهاية ، ولم تعد الشهادات العليا رخصا للتقاعد بل اصبحت حافزا للبحث والتعمق في الحقائق الوطنية .

ولهذا الغرض نفسه شرع منذ سنتين في تحويل الكليات التقليدية الى معاهد وظيفية يعمل فيها الاساتذة والطلاب جنبا الى جنب في خدمة مخططات التنمية الجهوية والعامة ، ففي جامعة قسنطينه مثلا اخذت معاهد الهندسة والثقافة والفلاحة على عاتقها بناء عدد من السدود وتشجير الاف الهكتارات والمساهمة في مصانع الجرارات والحديد والصلب كما شرع في جامعات ولائية تختص بمعاهد تلبي حاجات التنمية الجهوية في نطاق المخطط الوطني الشامل للتنمية وقد بدأ بعضها في العمل مثل معهد الفلاحة في مستغانم ومعهد العلوم الصحيحة في تلمسان .

وبعد ان كان عدد الاساتذة الجزائريين في مختلف الاختصاصات يقل عن ثلث عدد الاساتذة الاجانب اصبحت اليوم اقسام باكملها تسير فنيا وتربويا من طرف اطار وطني وبعد ان كان عدد الطلاب لا يتجاوز بضعة مئات اصبحوا اليوم يتجاوزون ٣٨ الفا يتقاضون منحا من الدولة اذا كانوا لا يتعاطون عملا ويعرفون سلفا اين وكيف سيعملون لانهم

قضوا في الغالب فترات تدريب ضمن برامج الدراسة في نفس الميدان.

* * *

لقد واكب التعريب كل العمليات السابقة فقد كان الهدف الاول من اصلاح التعليم العالي هو الوصول الى خلق جامعة مندمجة في حياتنا الاجتماعية ومتوافقة مع مطامحنا في تنمية متزنة وسريعة وتربة خصبة تزدهر فيها شخصيتنا القومية وتتأصل لغتنا وتصقل قيمنا العربية الاسلامية .

فبعد ان كانت العربية محاصرة ومنزوية تدرس في قسم اللغات الاجنبية وتوضع احيانا في درجة اقل من اللغة الاسبانية او البرتغالية يدرس البعض عاميتها (بصيغة الجمع) لتمزيق وحدة شعبنا ويدرس البعض الاخر ترجمات لها من الفرنسية على طريقة المستشرق بيرز الذي جعل من جامعة الجزائر مقر قيادته العامة ومن قسم اللغة العربية غرفة عملياته ، اقول بعد ذلك أصبح هذا القسم دائرة من اكبر دوائر كلية الاداب يمتد نشاطه الى سائر الكليات والاقسام الاخرى ، فقد انيط بهذه الدائرة تنفيذ التعريب في الجامعة باكملها .

واني لاذكر ذلك اليوم الذي تقدمت فيه رئيسة قسم اللغة الفرنسية بعريضة احتجاج واستقالة وهي ترغي وتزبد وتستغيث ضد القرار الثوري الذي يقضي بوضع الدائرة التي كانت تشرف عليها في مكانها الصحيح اي تحويلها الى فرع من دائرة اللغات الاجنبية لا أكثر .

وقد تواصلت هذه الانطلاقة في اتجاهين متوازيين :

الاتجاه الاول : تعريب الاقسام والمعاهد التي تختص بالتكوين العقائدي والوطني فعربت اقسام الفلسفة والتاريخ والجغرافية والصحافة وعلوم النفس والتربية والاجتماع والقانون والتجارة وغيرها وان بقيت بعض التخصصات فيها تدرس باللغة الاجنبية نظرا لقلة الاطارات ومصاعب الانتقال من لغة الى اخرى ، ولحل هذه المشكلة عمدت الجامعة الى ارسال اساتذتها الى جامعات البلدان الشقيقة ليقضوا فترات تدريبية تتراوح بين ثلاثة اشهر وستة اشهر قابلة للتجديد ،وقد عاد البعض منهم واستانف التدريس باللغة العربية كما استقدمت من الجامعات العربية الشقيقة عدة بعثات من اساتذة الاداب والعلوم والثقافة للتكوين في عين المكان وقد ساهم هؤلاء الاساتذة بجهد كبير في تعريب بعض الاقسام مثل علوم الاحياء والعلوم الحقة والحقوق .

وفي كلية الاداب وحدها يوجد الان حوالي « ٦٠٠ » مسجل في مختلف الدراسات من الدبلوم الى دكتوراه التخصص ، بينهم اكثر من ٤٠٠ يجرون بحوثهم باللغة الوطنية .

وبقي علينا الان ان نتغلب على مشكلة الثنائية ، اي استخدام اللغة الاجنبية بجانب اللغة الوطنية في تدريس بعض التخصصات حتى نتقي مغبة الفصام النفسي والفكري بين طلاب ينتمون لثقافة واحدة ويستعدون للعمل في مجتمع واحد ، وسوف يتحقق ذلك تلقائيا قبل نهاية السبعينات عندما يتم تعريب التعليم الثانوي نهائيا اي عندما يستكمل تعريب الثلث الباقي في الشعب العلمية والرياضية في المدارس الثانوية . وعلى الرغم من ذلك فقد قام معهد العلوم الصحيحة والثقافية بتجربة رائدة فانشا قسما معربا لتدريس الرياضيات والطبيعة والكمياء وقد احتفلنا في الموسم الماضي باول دفعة من خريجيه وقد بدأت هذه التجربة بامكانيات ضئيلة جدا ولكنها شقت طريقها بقدم راسخة وسوف تشجعنا هذه التجربة على تعريب الاقسام الاخرى المشابهة .

اما الاتجاه الثاني : فهو تعميم تعليم اللغة العربية في جميع الاقسام التي ما زالت تستخدم اللغة الاجنبية في التدريس مثل الاقسام الثنائية التي اشرنا اليها سابقا ومعهد العلوم الطبية وغير ذلك من المعاهد فلا يمكن ان يحصل الطالب على اجازته مهما كان تفوقه الا اذا نجح في امتحان المستوى الثالث في اللغة العربية واصبح قادرا على استخدامها قراءة وكتابة وقد طبق هذا الاجراء بكل صرامة فبقي عدد من الطلاب يترددون على الجامعة بعد تخرجهم ونجاحهم في كل المواد في الطب والهندسة والعلوم القانونية والاقتصادية حتى نجحوا في الحصول على المستوى الثالث ، وعندئذ فقط تسلموا شهادات النجاح والتخرج .

فاذا بقيت على الرغم من ذلك ثغرات في التحصيل تولت الخدمة الوطنية ما تبقى حيث يتلقى المتخرج اثناء خدمته العسكرية والمدنية دروسا في اللغة وفي الحقائق الوطنية من تاريخ ومجتمع وسياسة ويعتبر ذلك جزءا من واجباته العادية .

ولم نكتف بذلك بل شجعنا الطلبة على اختيار مواد او مقاييس يدرسونها مباشرة بالعربية بالاضافة الى دروس اللغة العربية المادية وقد طبقت هذه الطريقة فعلا في علوم الاجتماع والنفس والتربية، وكلما اتجه الطلاب الى اختيار مادة لدراستها باللغة الوطنية الغي حالا تدريسها باللغة الاجنبية ، وهذا ما حدث فعلا في قسمي علم النفس والتربية ، ونامل ان تحل بهذه الطريقة مشكلة الثنائية التي اشرنا اليها .

ولم تشذ عن هذه القاعدة الاقسام التي تختص بتدريس اللغات الاجنبية ، فبالاضافة الى الدروس العادية التي يتلقاها طلاب هذه الاقسام في اللغة العربية بمعدل ثلاث ساعات اسبوعية يدرسون (مطالب او مقاييس) باللغة الوطنية مثل علم الاجتماع الحضاري وتاريخ الجزائر والوطن العربي كما اضيف الى قائمة اللغات الاجنبية المعروفة لغات اخرى لا تقل عنها اهمية بالنسبة لبلادنا مثل اللغة السواحلية والصينية والروسية التي اصبحت لها اقسام قائمة الذات مثل اقسام اللغة الانجليزية والفرنسية والايطالية .

* * *

هذه نظرة خاطفة عن وجه من اوجه المعركة المتعددة الجبهات التي تخوضها الجزائر ، فالجامعة في نظرنا ينبغي ان تكون مؤسسة في خدمة الاهداف العليا للثورة لا كهفا للكهنة او ديرا للرهبنة يتعاطى فيه الناس طقوسا وشعائر تسجنهم في قماقم من الاكاديمية المزعومة التي تجعلهم في عزلة عن واقع شعبهم يعيشون بين ظهرانيه متأففين ساخطين في انتظار الاجازات التي يقضونها في لندن وباريس.

ان الجامعة في الجزائر ليست برجا عاجيا بل هي واحدة من المؤسسات الاشتراكية يسيرها العاملون فيها بما فيهم من طلبة وعمال وموظفين واساتذة ، ولذلك فهي مطالبة بأن تخرج الى الميدان وتحتك بالواقع وتلمس منه الحقائق ، ولا ريب أن اولى هذه الحقائق واكثرها بداهة ذلك الثمن الباهظ الذي قدمه شعبنا للدفاع عن عروبته والذود عن ارومته والبرهنة بحد السلاح على انتمائه الى ثقافة وحضارة حملت الى العالم اسمى واخلد ما عرفه من تعاليم ومبادىء تضمنها دلت عليها وقائع تاريخنا العربي الاسلامي المجيد .

ولعله من المفيد الان ان نخرج بعد هذه الصورة السريعة ببعض القضايا ولا اقول اقتراحات لان جمعنا الموقر ليس في حاجة الى الوعظ والتوصية بقدر ما هو في حاجة الى التآزر المثمر في جميع

الميادين .

١ ـ لا يمكن ان نتحدث عن التعريب الا باعتباره مظهرا من مظاهر الثورة الثقافية يتجاوز تعريب اليد واللسان الى تعريب العقل والقلب، وهو امر لا يتحقق خارج الثورة السياسية بجميع ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وهذه الثورة لا تعني مجرد الانتقال من وضع الى اخر بل تعني تغييرا في مضمون العلاقات ومجالها ، في الفكر والسلوك ، في داخل الانسان نفسه .

٢ ـ ان اللغة وعاء التراث ولا يمكن فصلها عن مضمونه ، ولا شك ان اعظم خدمة نقدمها للغتنا العربية هي خدمة هذا التراث ولا يمكن فصلها عن مضمونه ، ولا شك ان اعظم خدمة نقدمها للغتنا العربية هي خدمة هذا التراث بالتشذيب والاضافة والتطوير وذلك ما فعله سلفنا الصالح فقد تغلغلوا كل ما صلت اليه ايديهم من كنوز الغير واطلعوا على خفاياه بشوق وتلهف حتى ان الخليفة المامون كان يقبل الكتب فدية لاسرى الروم ، لكن هذه المنقولات او المترجمات لم تكن سوى روافد تصب في بحيرة عظيمة لم تتمكن ابدا من تغيير لونها او طعمها فقد كانت تمر من مصفاة دقيقة هي الثقافة العربية الاسلامية وخصائص اللسان العربي ، وقد اعترف اعلام الفكر اذاك بقوة هذه الثقافة وسحر هذا اللسان .

ان لغتنا وثقافتنا لا تخشى الترجمة ونعرف تراث الغير ، ان الذي نخشاه وينبغي ان نتحاشاه هو الانبهار والانقياد العشوائي وراء البهرج والتعاليم الجاهزة وابتلاع تجارب الغير بالمحاكاة والتلقين . اقول ان لغتنا وثقافتنا لا تخشى الترجمة الواعية لانها في الواقع القناة التي تعبر خلالها الثقافات لتتفاعل وتلتقي عند حدودها لتتمازج تمازجا يخصب بذورها وينضج ثمارها . ان الفكر الذي لا ينفتح على ما حوله يكتب على نفسه الفناء ، فبالتطعيم والمقارنة يشتد عوده ويكتسب العمق والمناعة .

٣ ـ وفي ميدان البحث العلمي نحن في حاجة الى نمو ذاتي والى تصحيح مفهومنا عن التفتح الثقافي الذي لا يكون تفتحا حقا الا اذا اعطى بقدر ما يأخذ ، لان الاكتفاء بالاخذ مما هو جاهز عند غيرنا يجعلنا اكثر تخلفا في هذا الميدان مما كنا عليه في بداية هذا القرن .

وقد آن الاوان لننبه الى ان البحث العلمي لن يزدهر ويناضل الا اذا كانت مجتمعاتنا هي مخبره الحقيقي وثقافتنا الوطنية في امتدادها القومي هي مادته الاساسية واللغة العربية هي موصله الاول ودرعه الحصينة .

ان الباحثين الذين يشدون الرحال الى البلاد الاوروبية الامريكية لا يتلقون علما صرفا ومنهجا محايدا ابدا بل هم يتعرضون قبل ذلك الى تكييف ذهني واستلاب نفسي وتعميد ايديولوجي وقد يقع البعض منهم صرعى الانبهار اذا لم يحصنوا في مجتمعهم الاصلي ولم يتشبعوا بخصائص ثقافتهم ولغتهم القومية .

اننا لا نستطيع الرد على التحدي الحضاري الذي يواجه امتنا العربية الا اذا قمنا بتنمية فكرية ذاتية على مستوى الوطن العربي كله.

محمد العربي ولد خليفة

رئيس قسم علم النفس ـ جامعة الجزائر

التعريب في دلالته التاريخية
من الترجمة الى التعريب

تابع المنشور على الصفحة ـ ١٦

ان المرء ليدهش لاول وهلة عندما يلاحظ التلاقي الشبه كامل بين المفردات والتعبيرات الفكرية العربية وما يقابلها في الفلسفة الكلاسيكية اللاتينية (البرت الكبير ، توما الاكويني ، الخ) كما يدهش لسهولة النقل من احدى اللغتين الى الاخرى . ولكن عندما يعرف ان الثانية جاءت الاولى وقلدتها واقتبست منها يدرك الدور الخطير الذي لعبناه في تاريخ المعقولية ، فالقراءات الغربية لتراثنا منذ اواخر القرن التاسع عشر الى ايامنا . امنية جزئية ، ان لم اقل مغلوطة ومعرضة ، اذ لا تريد ان ترى في انجازاتنا سوى تمهيد للكلاسيكية اللاتينية في العصر الوسيط .

الواقع ان تراثنا الاكثر اصالة ـ اقصد الادبي والروحي ـ قد علق وطمس وكانه توارى ، على فجاءة من التاريخ ، مع ان اجدادنا الماحرين اعني اولئك الذين حققوه وصنفوه وشرحوه وسجلوه في المعاجم الموسوعية منذ القرن الرابع عشر وما بعد وحفظوه بذلكحيا، دلونا على الطريق اليه .

اجل توارت الدلالات العظيمة التي هي مفاصل تاريخنا وقممه . والايقاع الذي اشرت اليه لا ينفصل عن هذه الدلالات .

فمن الذي يسائل اليوم عن الذكر والبيان ؟ عن الايه والغيب عن المعنى وبقية الشؤون التي كانت محاور تفكير وفكر اجدادنا .

ربما انا كنا ، هنا ، ضحية الترجمات التي سطحتوشوهت اكثر مما ادت ، بسطت وتصرفت اكثر مما سايرت المعنى ففاتها الشكل والمضمون .

وكيف يؤدي الكلم العظيم في لسان غير الذي وضع من اجله وهو علامته المميزة ؟ ما من شك في ان حركة التاريخ تبدلت ، ولكن للانجازات الكبيرة تاريخها ، يخترق التاريخ المرحلي ، ويسمه من هو من مقياسه .

اقول معقبا .

ان فعل التعريب مزدوج الاتجاه : الواحد نحو ثقافات البشر والاخر نحو الذات .

والتعريب ، ان نكون ذاتنا او لا نكون .

ونحن ، اذ نتعرف الى ذاتنا هذه ، نرغم الاجنبي على التعرف اليها ، وتلك مسالة المسائل اليوم .

علام ارسطو ؟

ثمة سؤال لم يطرح بعد بكافة أبعاده فيما اعلم .

لم آثر اجدادنا ، يوم التعريب الاول ، ارسطو ، فنقلوا الى لغتنا ما وصل اليهم من مؤلفاته حتى المنحول منها او المنسوب اليه، ثم علقوا عليها حتى الارهاق ، واختصموا حول عدد كبير منقضاياها، دخلت في تلافيف علم الكلام ، وبقية العلوم العربية ، وحتى الذين وقفوا موقف المناهض الرافض استخدموا المنهج الارسطوطالي،وبالنتيجة وبعد التعديلات اصبحت الارسطوطالية من صلب تراثنا ، جزءا لا يتجزأ منه ؟

لقد عرف اجدادنا في تلك الفترة الممتدة على قرون ، ثقافات الامم ، البائد منها والمستمر ، فاقتبسوا منها ما اقتبسوا ،عربوا ما عربوا ، تمثلوا ما تمثلوا ، اهملوا ما اهملوا ... بمعنى ما تخطوا الكل واستبعدوا المعلم الاول ، صنوا لحوار لما يتنه بعد على الارجح .

ويبدو ان معارف اجدادنا الموسوعية اكثر مما يظن المرء للوهلة الاولى ، واذا كانت المصادر قد اغفلت ، فالشذرات والحكم ، الاخبار والسير والعبر ، العلوم ورحلاتهم اليها ... كلها شاهد على انهم امتصوا كل ما وقعت ايديهم عليه حتى الاشباع ، بحيث بانوا يخشون عطر الغزو الاجنبي يشوه ، نيابهم ويهدد حقيقتهم ، وعندها خاضوا معركة الشعوبية التي ما تزال مستمرة حتى اليوم ،وان كانت اشكالها قد تبدلت .

اما ارسطو ، وقد كان في تواضعه العلمي جبارا ، فلم يخشوا منه باسا ،بل حرصوا على الاستزادة منه ، وكانه البحر ، لا ينصبمعينه. ولم يكونوا على خطأ .

ولكن علام ارسطو لا افلاطون ؟

علام ارسطو ، لا افلاطون وارسطو ،وكل منهما يكمل لحد ما الاخر ؟

وكان يجب ان يستهويهم صاحب الجمهورية بنموذجه الامثل للحكم، وبرؤياه ايضا . أو ليس الحاكم عنده عالما بشؤون « الغيب » اليه يرقى ـ وتلك وظيفة الديالكتيك ـ ومنه يستمد سلطانه لا.

والواقع برمته عنده اليس مشدودا الى « الملأ الاعلى » وبه يستقيم ؟

في حين ان ارسطو يمشي بمحاذاة الارض لا يحيد عنها ،فالنفس عنده تكاد تكون من طبيعة جسدية ، والعقل ـ باستثناء العقل الفعال ـ اذا فارق الهيولي تلاشى وانطوى امره (١٨) .

ويحصل العكس .

اذ في مجال الرؤى ، ثمن مسالتين مسالة ، اما .. اما .. على حد تعبير كيركجارد .

ولقد كانت للعرب رؤيا لا تمدنها لديهم اخرى ، وفيها سر وجودهم وعزتهم .

وهذا ما جعل دور « الشيخ افلاطون » عندهم ثانويا رغم انهم عرفوا بعضا من نصوصه الاساسية كالجمهورية ،حتى لكان الافلوطينية ـ وهذا ما هو واقع ـ امتصته وحرفت فكره عن مقاصده الاساسية .

فالاسطورة ، بالاحرى الخبر الافلاطوني استحال حكاية تروي للعبرة ، حكاية خلوا من الفكاهة وذات طابع اخلاقي .و«المثالية» اوحت لهم بالمدن الفاضلة وبقية الطوباويات . و « المثل » عوضا عن ان تكون « مفاصل الوجود حيث هذا يتكثف ويعبر » (١٩) ، اصبحت عالما مفارقا هو مجال شطحات الخيال الصوفي (٢٠) .

وان اداء « ايدوس » ب « مثال » (وهذه لا تتصل بتلك الا بسبب ضعيف) ليدل على ان القراءة العربية اضعفت الافلاطونية اذ اقحمتها في منظور هو اقرب الى الروحانيه الافلوطينية منه الى المعقولية الديالكتيكية التي هي احدى انسمات المميزة لفكر افلاطون (٢١).

وعلى اية حال ـ وهذه هي القضية التي انطلق منها بحثي ـ فان الذي عنى الفكر العربي اكثر ما عناه، يوم التعريب الاول ، هو العقل ، واقصد على الضبط ، التحليل الذي وضع اصوله ارسطو في « التحليلات » ، وهو الكتاب الذي عرف بعدئذ باسم المنطق ، اي فن النطق السليم .

اجل ، لقد كان ارسطو في نظر العصر الوسيط ، العربي وغير العربي هو الكاشف عن العقل .

ولم يكونوا على ضلال .

فالعقل بمعناه التقني هو قدرة الانسان على تخطي وقائعية الواقعة لادراك ذواتها المعقولة ، او لقراءتها في لغة المفهوم ، ومن ثم رد المفاهيم الى اجناسها العليا التي هي المقولات . وعندها يمكن للانسان ان يضع الجملة المعقولة (النطق السليم) التي هي نسبة المحاميل كل منها الى موضوع موضوعه (الهوية) . وفي مرحلة اخيرة ربط القضايا بعضها الى البعض الاخر استنتاجا (لزوم النتيجة عن المقدمات او المقدمة) .

اجل ، ارسطو وحده ، فالمعقولية بعده غيرها قبله .

لقد نشأت قبل ارسطو وبعده مفاهيم اخرى ، اهمها الديالكتيكي (افلاطون ـ هيجل ـ ماركس ، هذا اذا اقتصرنا على الكلاسيكيين) ، والفينومينولوجيا (هوسرل وخلفاؤه من الوجوديين وغيرهم) . ولكن،

كلهـا يجب ان تمثل امـام العقل التحليلي ، تؤدي حسابيا عن صحتها، وهـو الذي يسوغها ، (٢٢) ، وفلسفات اللامعنى والعبث بدورها التي تقـول بالوفانيه وبلا معقولية الوجود ، تدلل على قضاياها ببرهنـات تكـاد تكـون في تماسكهـا اقيسة صورية .

وباختصار فان الشفافية العقلية تحليلية .

صحيح ان مفكرينا ، الكلاسيكيين منهم بخاصة (من الكندي الى ابن رشـد مرورا بالفارابي وابن سيناء وغيرهمـا) وضعوا ميتافيزيقا للعقل والقول ، فرتبوا هذه في درجات وعينوا لكل منهـا وظيفته ، من العقـل الفعال الى العقل الهيولاني ، مرورا بالعقل المستفاد والعقل بالملكـة (٢٣) ، صحيح ايضـا ان هذه الانشاءات المستوحاة مـن الارسططالية ـ الافلوطينية (هذه اكثر من تلك) تحتل الصدارة فـي الدراسـة والتدريس ، وهي جديرة تحد بعيد لذلك لانهـا حلقـة اساسية من حلقات نمو المعقولية .

ولكن الاهـم والابقى هو الاستحالـة التى طرات علـى اللسان فنقلته من مرحلة الاصل الى مرحلة العقل ، وهي مرحلة ما تزال فـي الطريق اليهـا .

فليس من قبيل الصدفه ان ترجم العرب(لوجيكه) الاغريقيـه بـ (منطق) اذ انهم دللوا بذلك على ضرورة وضع المعقولية في اللسان ثم جعلوا من « تدنايه » المدخل لكل دراسه ، والاداة التي يمـرس بها العقل فينمو لانها ترسم له حركته الذاتية ، او حركة تاليفاته.

وبالمقابل عمقوا العلاقة التحليلية لانها المتمم للمنطق . فهي فـي الميتافيزيقا علاقة واهب الصور (العقل الفعال) بمتلقيها العقل المنفعل التـي هي عناصر العلم الى صورتهـا التي هي الامور العقلية كما يقول ابـن الهيثم (٢٥) او من الواقعه الى المفهوم ، كمـا تقول اليوم .

وهكذا تصبح الطريق مفتوحه امام المنهج التحليلي بشقيه الاستقراء والاستنتاج ، كما سيكمله بيكون وديكارت وخلفاؤهما .

ترتكز هذه المنطلقات المبدئية على صياغة العبارة العربية ، فبعد ان كانت فـي لسان الاصـل شعرية ـ حكيمة تدل اكثر ممـا تبرهـن (او ان برهنتهـا في دلالتهـا) ،. اصبحت تتحرى ضبط المعانـي وتسلسلها وتماسكهـا وتركيزهـا حول واحد او عدد محدود منها بحيث تؤلف نصـا او قـولا معقولا .

وبتعبيـر ادق ، فبعـد ان كان الكلام طبيعه وفطرة استحال ثقافة وتربية ، وبعدهـا صناعـة وتقنية .

مع هذه الخطوة الحاسمة ، يبدأ ما يسميه الجاحـظ النثر او الكتاب ، وما نسميه اليوم العلم والبحث العلمي ، او بقـول اعـم : النص .

والعرب بعد ، كما هـو معلوم ، تناولوا مختلف المعارف والعلوم التـي عالجهـا سابقوهم وطوروهـا ، اذ ادخلوا عليهـا تعديلات جذرية، بخاصـة علوم اللغـة والفقه والكلام ، الرياضيات والطبيعة والطـب ، التاريخ والجغرافيا ، السياسة وتدبير المنزل (الاقتصاد) ، واخطرها شانا علم الكلام الذي لم يكـن هدفه الدفاع عـن العقيدة وحسب(٢٦)، الا اذا فهمنا بكلمة (دفاع) الصيانة المنطقية، تدفع اللبس وتخرج الخصم وعندها وضعت ، من جهـة الموسوعات التـي تصنف الملـل والنحل (الاشعري ، الشهرستاني ، ابن حزم وغيرهم)وتحصي آراء كل منها ومواقفه ، ومن جهة اخرى البحوث المطولة والمكثفة في القضايا الكبرى : الايمـان والكفر ، الثواب والعقاب ، الجبر والاختيار ، المحلل والمحـرم ...

من اللسان الاصل الى لسان العقل :

العلم بحصر المعنى قراءة للوقائع .

اما صياغة الكلام ـ لسان الاصل ـ فهي قراءة مزدوجة ، من جهة للكلام ذاته ، ومن جهة اخرى للعقل التحليلي في ذاته وفي انجازاته ، وكل منهما تعريب على طريقته .

والقراءة هذه تفسير ، وكل تفسير يتم في فسحة قطيعة ومراجعة.

ولم تتم عملية القراءة او التعريب هذه بسلام ،

فقد اختصم العرب حولهـا : قضاياها ومفرداتها ، مشكلاتهـا واشكالاتها ، نظمها العلمية واسس هذه النظم .. بحيث ادركـوا مرحلة الاحراج ، والاحراج يستدعي تعميقه وتفجيره للخروج من المـأزق ، بانتظار اخر .

اختصموا حول الفلسفة ، فرأى فيها بعضهم (٢٨) الصيغـة المصفاة للعقيدة ، وردها غيرهم قبل رينان بقرون على انها مـن شان يونان (٢٩) . غريبة عن الطبع العربي وان جل اربابها عندنا هم من الاعاجم . (٣٠) وكان القول المأثور : « من تمنطق فقد تزندق » .

اختصموا حول علم الكلام فاعطاه واضعوه (مثلا المعتزلة والاشاعرة على ما بين الفرقتين من خلاف اساسي) ، المقام الاول ، في حين رأى فيه بدعة وكفرا ائمة من مقياس الانصاري والغزالي وابن حزم وابن تيميه وغيرهم (٣١) .

اختصموا حول الالهيات ،

اختصموا حول العلم ،

اختصموا حو العقل والحريه ،

اختصموا حول عقلهم ، فتساءلوا قبل المستشرقين والمستعربين ما اذا كان قابلا ام لا للخوض في المجردات (٣٢) .

التساؤل الاخير ـ وهو اشمل واعم مما تقدم ـ ان دل فهو يدل على ان العقل العربي قادر ، لا على استنباط المفاهيم ومعالجتها جملة وتفصيلا وحسب ـ فالمشكلة ثانوية ـ بل على لم رصيده برمته وزجـه في معركة يعتقد انها حاسمة . وكانت معركتـه ، يومها ، كذلك ، اذ اما ان يكون بمقياس الثقافات ويفيض واما لا يكون .

والثقافات ، يومها واليوم ، ان يكون الانسان سيد المـوجودات بعقله .

وتبلغ المعركة ذروتها ، اقله في وجهها الفلسفي ، في الخصومة، التي اخترقت الفكر العربي من الاشعري الى ابن تيمية مرورا بالغزالي وابن حزم وغيرهما ، واخذت شكلها الاحد والادق عندما اراد الغزالي ارادة جازمة وضع جدول كامل بمقاصد الفلاسفة وفضح تهافتهم ، ودافع عن هؤلاء ابن رشد ، في كتابه المعروف تهافت التهافت .

من البديهي ان المعركة دارت حول العقيدة الدينية .

ولكن لها وجها اخر قلما ننتبه اليه وهو الذي يعنيني ، اذ انـه كاشف عن الفارق الاساسي بين الرؤيا العربية والرؤيا الاغريقية ، اي عـن الخلفية البعيدة لصراعات الفكر العربي .

ليس من قبيل الصدفة ، من جهة ان الغزالي اراد تحطيم ارسطو « مقدمهم . الفيلسوف المطلق ... الذي رتب علومهم وهذبها » كمـا يقول (٣٣) ، ومن وجهة اخرى انه عندما بدأ بتنفيذ القضايـا المتنازع عليها ، وضع في مقدمتها مسالة قدم العالم .

ومن ثم فان الصياغة ، بغض النظر عن اي اعتبار اخر ، لتدل في مفرداتها كما في منطوقها على ان التعريب انتقال من دنيا الى اخرى . فكلمة عالم مغايرة لكلمة (كوزمس) ، هذه تشير الى نظام قائم بذاته وتلك لمخلوقات الله المندرجة مكانا وزمانا امام الانسان ، وكذلك كلمة (قديم) فهي تدل في لغتنا على بعد الزمان المفرق في الزمنيـة ان صح التعبير ، بينما تدل عند ارسطو على الموجودات الطبيعية من حيث تلقائية حركتها ومن حيث ان هذه الحركة عدد يقيس كما القبل والبعد.

والسؤال ذاته لا مقابل له عند ارسطو ، ولا عند الاغريق . ففي حين ينطلق هؤلاء من الزمان الدوري كما يوضح ذلك افلوطين اخـر فلاسفتهم (٣٤) ، يرى الفكر العربي في الزمان كما في الاشيـاء الملازم لها سلسلة وقائع جائزة .

واخيرا فان عصب الموضوع هو بالنتيجة مسالة الجواز والضرورة. فكلمة (جائز) العربية لا مقابل لها في الاغريقية اقله بهذا المدلول .

وبالمقابل فان كلمة (ضرورة) ثانوية في لغتنا ،قفزت الى الصف الاول عندنا تحت تأثير التعريب ، في حين انها اساسية لا تعرف لدى الاغريق ، ف (انانكه) تشير الى سرمدية انتظام وهيمنته على الموجودات طرا بما فيها الانسان والالهة .

ويعد اهي مسألة قدم العالم هي الرئيسية لدى ارسطو وفي نكر يونان ؟ اقصد : اهي التي كانت حاسمة في قيام الفلسفة واستمرارها الى ايامنا ام مسألة اخرى صاغها افلاطون (٣٠) واعاد صياغتها مرارا وتكرارا ارسطو في الميتافيزيقا دون ان يتمكن من اعطائها شكلها النهائي.

ان الفكر الاغريقي ، يسائل الموجود في وجوده ، ذلك هو العلم، يعتبر الموجود ، شمولا من حيث هـو ، وتلك هي الفلسفة ، كما يقول الهيدجريون (٣٦) .

يرى الموجود حضورا في الوجود ، ذلك هو افقه .

ويتفرد ارسطو من بينهم في مساءلته عن فعل الوجود .

الفعل بما هو مقولة قواعدية ، او حيث العقل يتجلى تعبيرا ،

والفعل بما هو فعالية الموجود ذاته ، ويضعه ارسطو في الصورة.

وتلك كانت انطلاقة فلاسفة اللاتين عندما ترجموا والغوا ، اذجعل توما الاكويني من هـذا الفعل (اسه فـي لغتهم) محـور فلسفتـه الانطولوجية ، او حيث تتجمع هذه فتصبح منظومة .

فلم اسقط الفكر العربي هذا الجانب الهام من الموضوع ليأخذ ، بخاصة مع ابن سينا (٣٧) بالفيض الافلاطوني وينسج ، مع هـذا وغيره ، حوله من التنويعات ما طاب لهم ؟ او ليرفض لدى طرفه المقابل والمناهض للفلسفة الكلاسيكية هذه الانشاءات الميتافيزيقية جملة وتفصيلا ويكفرها ، ثم يحل محلها فلسفة اخرى قد لا تقل عنها بالنتيجة تأثرا بالارسطالية اقله في المقولات والصياغة وهذا امر حاسم ؟ .

اقول بالمناسبة ان العقل التحليلي ـ الانتقادي الـذي استخدمه الطرفان اداة ذات اهمية حاسمة،ولكن الاكثر حسما هو خليفة التحليل وموضوعه .

انه سؤال من جملة اسئلـة اخـرى طرحتهـا ، لا ازعم الاجابة عليها ، لا ازعم حتى صياغتها ، وانما التمهيد الى هذا ، اقله تسليط النور على بعض ابعادها ، اذ اسائل مرة بعد مرات الفكر الاغريقي في مفرداته الاساسية بمدلولها وبمدلول التعريب ، يدفعني الى ذلك الامام الغزالي الذي ، اذ نسب الضلال والبدعة الى عدوى « سقراط وبقراط وافلاطون وارسطا طاليس وامثالهم » (٣) دلنا ، ان لم يكن بكـافة افكاره فبموقفه الصارم ، الى حيث الخلاف والتنافر ، الـى حيث الاحراج الذي يجب علينا استبقاؤه كي يكون ثمة حوار وتفاعل ، اليوم كما بالامس .

لم يوجد ارسطو من العدم ، بل هو نتاج تراث يرقى الـى اكثر من قرنين . فقبله اكد برمنيدس على التجاوب الانطولوجي ـ ينبـوع علمـ بين الفكر والوجود (٣٩) ، وكذلك هوقليطس الذي راى فـي اللوغس ، حيث تتجمع تعارضات الوجود وتعبر (٤٠) . وقبلهما فان انكزاغوراس الذي وضع البصيرة (نوس) في صميم الموجودات على ما يقول افلاطون (٤١) .

وقبل هذا وذاك ، قبل الزمان والمكان وقبلهما وبعدهما ، ثمة ناظم لغزي للموجودات وللمعقولات هو (انانكه) ترسم للكل وللجزء طريقا لا طريق سواها .

ـ فالتحليل الذي يتم في فسحة المراجعة ، يستعيد « اولا « او » «اصلا»بمفصلهمنطقيايسوغه امام العقل.تلك كانتنظرية افلاطون وصور غيرها من النظريات الفلسفية ، كل منها ،اذ يستجيب لمشكلات عصره السياسية والثقافية وغيرها ، يجعل من الماضي حاضرا ومـن لسان الاصل لسان العقل .

وذلك هو احراج النقاش حول قدم العالم ، اذ ان نقل برهنـة ارسطو من الكوزمس المغلق الى اخر (العالم) منفتح الى ما لا حد له على اللامتناهى ، ادخل بعد الزمان على الموجود الارسططالي وفجره من الداخل فالقديم العربي الاغريقية ، هذه نقطة وقوف ، واما ذاك فحاضر يستدعي ماضيا قبله ، وهذا أخر قبله ، وهكذا الى ما لا نهاية لـه واللامتناهي كما لاحظ العرب قبل ديكارت بقرون ، لا يحصل من اضافة شيء اخر .. كما في السلسلة الرياضية غير المحدودة تعريفا ، بـل انه حقيقة ايجابية يعطيها العقل صيغة السلب (لا ـ متناهي) لعجـزه عن تصور موضوعها . وهذا هو مدلول الازل « عدم الاولية » كما يقول التفتزاني (٤٢) فالخلاف هو ،

اولا حول العالم (مجموع الاشياء) ما اذا كان يؤلف كلا مكتفيـا بذاته (كوزمس) ام انه في وجوده ناقص ، وبالتالي منفتـح بانفتاح مطلق .

ومن ثم حول الموجودات ، فهي في النظر العربي مخلوقات ، وهذه جائزة تعريفا ، ماهيتها ليست من طبيعتها ، او هي احداث ، وهـذه آيات ، والاية تدل اكثر مما تعين وتحدد .

والحدث ـ الاية ـ وهذا ثالثا ـ يستبقى ، لا يرد الى مفهوم ، ولا يعبر عنه بلغة التحليل (في مرحلة النقد) بل يخبر عنه . ولهـذا كانت الرواية النوع الادبي المفضل لدى العرب ، المتقدمين والمتاخرين، وكان الخبر طريقة الاداء التي بلغت ذروتها عندنا .

ورابعا ، حول الروابط بين الموجودات او السبب بالمعنى « وان الاسباب الاربعة المعروفة افعال (بالمعنى الارسططالي) كل منها يجيب، من زوايته ، على ظهور (ومنه الظاهرة) الموجود في فسحة الوجـود (٤٣) ، نلاحظ ان الظهور في الفكر الاول هو البيان (ومنه المبين) ، وهذا تجلي الموجود دفعة واحدة وبكافة ابعاده في النور ، واما السبب فهو « ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه » (٤٤) .

خامسا ، حول الناظم للموجودات والضابط لوجودها : اهـو متضمن فيها ام غائب ، فعل حضوره في غيابه ؟ ولهذا ـ وتلـك فرضيتي ـ كان الرابط في القضية بين المحصول والموضوع ضميـر الغائب (هـو) .

واخيرا ، وهو اهم مما تقدم :

عندما راجع الفكر الاغريقي برمته ذاته مع افلاطون ـ وكانت تلك خطواته ـ الابعد مدى ـ جعل مـن المذاكرة البعد العمقي للمعرفـة وللموجودات ، فالعلم استذكار ، والتربية عودة الذاكرة ، والتعبيـر ذكر : ذكر الاصل اذ كانت الموجودات في حضورها الاكمل .

تلك كانت نهاية

وهي لدى العرب بداية .

فالاية اذ تحيل تذكـر . والقول ، اذ يدل ،يحيـل الـى القول الاول ، اذ قال للموجودات : كوني فكانت ، وابدعها على احسن تقويم، عهدا بان تبقى ـ ان يبقيها ـ ما برحت تذكر .

فالعربي انسان الذكر .

والفارق اساسي : فارق المفعل عن الذاتي ، الاول يؤسس العلم، والثاني دلالات الوجود .

ولهذا كان التعارض الاكثر جذرية والاكثر خصبا في الفكر العربي بين العقل والنقل ، بين اللا ـ ذكر والذكر .

والسؤال العربي الاكثر اصالة : عن دلالات الوجود ، عن المصير، عن الحرية في وجود ، وجوده اعطي له .

واما النقائض التي اخترقت الفكر العربي وكـانت مـوضوع الخصومة ، الموجود ـ العدم ، الواجب ـ السكن ـ الممكن، الصانع ـ المصنوع ، القديم ـ المستحدث ، التقدير ـ الاختيار ، الخ ، فان هي الا دلالات الوجود ـ بعض منها ـ وقد صيغت في لغة ارسطو، مع ان قدرتها في دلالتها اكثر مما هي في صياغتها .

ومع ذلك فقد كانت الصياغة واحراجاتها ضرورية ، اذ كيف يمكن للانسان ان ينمو ويتقدم اذا لم ينتقل من لسان الاصل الـى لسان

العقل .

وبعد فهذه الصياغات هي التي مهدت السبيل الى المعقولية الحديثة التي ، اذ استعادتها ، تكشفت — وما تزال — عن نقائص اخرى .

اجل مهدت ، اذ فجرت العقل التحليلي لتعيد انشاءه .

وبالنتيجة ذابت المعقولية الارسطاطالية في الفكر العربي . صهرها هذا عندما عادت اليه سكينته وهو على ليالي الشتاء .

تشهد على ذلك الموسوعات التي وضعت يومها .

فمقدمة ابن خلدون التي كانت خلاصة مرحلة وخاتمتها ، وفاتحة اخرى طال انتظارها ، تدل ، ان دلت ، على ان الفكر العربي كان قادرا على تخطي ذاته وتخطي الثقافات التي يواجهها .

أفهو اليوم ايضا قادر ؟

تلك هي المسألة .

... فالى التعريب الثاني

ونحن اليوم نواجه تعريب اخر ،

اقحمتنا فيه حركة لا تقاوم ، انطلقت من صميم الشعب ، اذ رأى بعفوية الشعوب في السماعات الحاسمة ان طريق الخلاص في الوحدة، وهذه تكافيء — او تكاد — فعل التعريب . ففي فترة وجيزة — ربع قرن او اقل او اكثر قليلا منذ قطر :

١ — انحسرت العامية ، تقلص مجالها ، راخذت الفصحى تحل محلها ، فالتفاهم اليوم ميسور بين الاقطار ، بخاصة بين مغرب العرب ومشرقهم .

٢ — عرب الاعلام ، فتكون رأي عام عربي موحد ، ازاء حول الاهداف الكبرى للامة .

٣ — ترجم عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والادبية ، ووضعت نصوص مبتكرة من وحي الانفصال ومشكلاته ، وحقق ونشر جانب هام من التراث ، واصبح بالامكان تعريب المدرسة بكافة مستوياتها ، فسقطت بسرعة ذرائع خصوم التعريب وتلاشت حججهم .

وتلك بديهية : انك لا تستطيع التوجه الى الشعب الا انطلاقا من مشكلاته الحقيقية ، القريب منها — خبزه اليومي — والبعيد — كرامته وهويته وحريته ، تلك التي يعبر عنها بلغة اجداده وتاريخه .

اما الشك في قابلية لسان لتمثل العلوم والاداب فخطيئة لا تغتفر، اذ انه الشك بالانسان ، وقديما رأى ديكارت في العقل قسمة عدل بين البشر .

والشعب هو الذي دفع الحاكم ، بالتمرد وبالثورة ، بالاحتجاج وبالتظاهرة اولا الى فتح المدارس ، اذ اقبل عليها ، ومن ثم الى تبني الحداثة ، اذ زحف على المدينة ، واخيرا الى التحرر ، اذ باشره في الوقت المناسب وغير المناسب .

فالتعريب بعد من ابعاد معركة كلية ، اقتصادية وسياسية ، جغرافية (الارض) وتاريخية (التراث) علمية وفنية ، بعد هو اساس ومستقبل .

وطريق الشعب طريق اللاعودة .

ومع ذلك فالطريق في بداياتها .

وسوف تكون اوسع افقا وابلغ مفعولا مما نتصور لاول وهلة .

سوف تكون كالاولى محكا لقدرتنا على التمثل .

اذ من نتائج ما تقدم :

ان الترجمة انفتاح على الاخر ، فهي تلقي ، وان التعريب شق طريق اليه فهو فعل .

ان الترجمة تزيد حصيلة المترجم من المفردات والتعابير والمعاني، وان التعريب استعادة لكل ذلك في ابداع اصالته متناسبة مع درجة فعاليته .

فالترجمة والتعريب متلازمان كما الانفعال والفعل ، فاولوية احدها على الاخر مقياس به تقاس فعالية الامة .

والترجمة في منظور التعريب استحالة في القطبين الناظمين لوجود الانسان — الفمة والقاعدة اذا صح المجاز — اقصد : الحساسية والعقل ، يلتقيان في اللسان ، فالبيان رهن بهما .

والكل يستند الى هذه الحقيقة الاساسية وهي ان التعبير ليس حياديا ، فكل تبدل يطرأ عليه يستدعي الوجود الانساني في ماهيته ووجوده ويبدله .

وهذا ما وقع فعلا : فخلال ربع القرن الذي اشرت اليه امتص — وما يزال يمتص — موروثنا اللساني من طريق الاداء ما اقحمنا مرة ونقل مره في صميم الحداثة .

ويبقى سؤال كبير معلق : لاية درجة بوسعنا ان نكون منتجين اكثر منا مستهلكين ؟

كان اجدادنا نظرة النسر ، يحلق ، يطل من عل ، يحدد الهدف ويذهب اليه في خط مستقيم .

بهذا عرفوا هدفهم ، ومقابلهم التاريخي .

فارسطو ليس فردا من الناس . انه علم كامل ما يزال يستدعي العقل اليوم كما بالامس القريب والبعيد . والا فعلام الخصام حوله ؟ ارسطو هو عقل الاغريق في اعمق وابقى ما اعطى . اذ عندما كتب كان مركز الثقل السياسي — والثقافة لا تنفصل عن السياسة — تتحول من بلاد الاغريق الى اماكن اخرى — فكان عقل الاغريق في تلك الايام الحاسمة ، وهو يبلغ نهاية مطافه ، قد ختم مرحلة ليبدأ اخرى ، كما حبة الحنطة ، يجب ان تموت لتعطي ثمارا كثيرة .

ويدرك اجدادنا هذا فيواصلون الطريق حيث وقفت ، لتصبح معهم طرفا كما اسرت الى ذلك .

والواقع ان ارسطو مكن اجدادنا من شق فسحة الحضور: حضورهم لذاتهم وحضورهم للتراثات الاخرى .

والتراث : ايا كان ، ليس جملة معاني وقيم وافكار ، او جملة مفردات وادوات من التعبير ، كلها معروضة امامنا ، كما الاشياء ، كما السلع في واجهات المبيع ، ينتقي منها الشاري ما طاب له ، وانما هو رصيد ، قدرته الانتاجية متناسبة مع قدرتنا على توظيفه واستثماره ، اي على استعادته وتمثله وابداعه .

التراث هو شخصيتنا تنتج بنسبة قدراتنا على تحريرها .

واني لاتساءل ، اليوم ، والتراث جزء هام واساسي من برامجنا، اهو الذي يربي اجيالنا الناشئة ، ام ان هؤلاء يستمدون ثقافتهم من مصدر اخر ؟ لا بل اتساءل :

اهي الاداب الاجنبية والعلوم الوضعية التي تثقفنا كلنا ام وسائل الاعلام التي ، اذ تبسط المعارف ، تدخل عليها الابتذال ؟ اذ تهبط على المرء جاهزة كالعقاقير لتلتصق به وتمتصه كله ؟

ان المعرفة — ايا كان مصدرها — لا تصبح ثقافة الا اذا اقمنا بيننا وبينها فاصلا ، هو حيث العقل يمارس دوره التمييزي والاقتصادي ، وحيث الحرية تمارس دورها الابداعي .

والقيادة في هذا الفاصل وهذه الفسحة .

فاذا قلت انها غائبة — او تكاد — فلا اظن اني ابالغ .

ان الشعب يدل ويقتصر على الدلالة . اذ انه ملتحم بالتاريخ . وهو ، لهذا يتمتع بحسين متعارضين ومتلازمين : حس القديم من حيث انه المقيم عليه ، وحس المستقبل من حيث ان الشعب في تطلعاته .

القيادة تلي ، واذ تستخلص ما يلزم عن الدلالة من نتائج تستحيل طليعة فمتى تباشر القيادة مهمتها لننتقل من مستوى العفوية الى مستوى التخطيط ؟

ذلك هو السؤال الذي يطرحه التعريب علينا اليوم .

* * *

ربما ان النصوص الافلوطينية في تراثنا ،تضاهي ، عددا ونوعا ، النصوص الارسطاطالية ، فافلوطين صاحب نظرية الفيض التي هي من

مقومات الميتافيزيقا الكلاسيكية عندنا . وهو ايضا الذي وفر المتصوفة الهيكل العقلي ، عليه اشادوا ممارستهم النظرية والعملية . واخيرا فانه ، في تاريخ الفكر الانساني ، صاحب اكبر محاولة لتعقيل الحياة الروحية .

ومع ذلك ، اغفلته ،

اغفلته لاعتقادي الجازم ان المرحلة الراهنة ارسطالية اكثر منها افلوطينية . اقصد عقلية تريد ذاتها عقلية خالصة ، ايا كان اللامعقول الذي تفرزه . وعلى من يعيش الحياة الروحية ان يجد السبيل الوعرة اليها في زمن ، حتى الروح استحالت فيه جسدا . ونحن الذين نواجه اليوم هذه المرحلة بالتعريب وبغير التعريب ، علينا ان ننظر اليها من هذه الزاوية ، منها اولا ، اذ فيها تتجمع ، وما تبقى يلي .

من البديهي ان كلمة (عقلي) لا تساوي كلمة (ارسطالي) ، مهما وسعنا المفهوم الاخير . وقد تكون معقولية الحداثة مناهضة للارسطالية كما يرى بعضهم (٤٥) ورأيهم صحيح بمعنى ما ولحد ما . فتجربة تاريخية ، ايا كان مداها ، لا تعاد . بل ان الانسان في هذا المجال ، كما في غيره ، يفجر الماضي ليكشف عن لا ـ مقوله ، فينشيء منه وعلى انقاض الغابر بناء الاتي .

الا ان تجربتنا التاريخية التي حاولت استشرافها كاشفة عن الجانب في الوجود العربي الذي يستدعينا اليوم كما بالامس ، اقصد استعادة الاصل عقلا ، او بشكل اعم علاقة الاصل بالعقل . وبذلك نواصل الطريق حيث وقفت وتوقفت .

ان وحدة العرب في اصلهم .

واصلهم في الكشف العظيم الذي اشرت اليه ، الا وهو الوجود من حيث دلالاته الكبرى ، او في طرحهم للسؤال الاكثر جذرية : من هو الانسان ؟ ما مصيره ما موقعه من الوجود ؟ ما هو في مواجهة الطبيعة وما فوق الطبيعة ؟ ...

وكان لهم جوابهم .. كما انلكل وحدة ثقافية ، لكل امة ، لكل مرحلة تاريخية لكل انسان .. جواب .

هذا يتمرد وينفي ، وذاك يقبل ويذعن ، وغيرهما يتردد ويعاق .

كما ان لكل منهم سؤاله ، بالاصح صياغته للسؤال ، طالما ان لكل انسان ، فردا وجماعة ، موقعة من التاريخ .

وربما ان السؤال والجواب واحد .

وهكذا تتعدد الصياغات عاجزة عن الاحاطة بالذي يحيط بالموجودات ، ويحفظها في الوجود .

ان موقع العرب من التاريخ الفكري والثقافي للانسان ، انهم كانوا على مفترق الطرق بين الساميين الاوائل والعصور التي تلت،استعادوا ـ عربوا سؤال الاصل . عربوه وعقلوه ونقلوه الينا ، نحن ورثتهم والى بقية الامم ، فكانوا واحدا من المحاور الاساسية للتلاقي بين الاصل والعقل .

وتلك دلالة وجودهم .

فما هي دلالة وجودنا ، نحن احفادهم ؟

ما الطريق اليها والى وجودنا في التاريخ ؟

ثمة نقطة لا شك فيها عندي وهي ،

من حيث صياغتها العامة ان العقل هو المرجع بين البشر بما هم كذلك ، فاليه يحتكمون ، وحول تعقيل الموجودات يختصمون . والعقل بعد واحد ـ قسمة عدل بين البشر كما يقول ديكارت ـ وفي الوقت ذاته انماط لا تنتهي من التعقيل ، لكل عصر نمطه يستجيب بمشكلاته السياسية والثقافية ، الاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

من حيث صياغتها الخاصة ، انه اذا كانت طريق اجدادنا الى اصلهم والى الامم مرت عبر معقولية الحداثة التيهي المعقوليةالاجرائية.

* * *

ان فعل التعريب يحاذي فعل التعقيل . فليس من قبيل الصدفة ان ترجم العرب عبارة ارسطو المعروفة « الانسان حيوان عاقل » بـ « الانسان حيوان ناطق » ، اذ رأوا في كل ظاهرة انسانية وجهها التعبيري بحيث ان فعل التعريب عندهم يكافيء ـ او يكاد ـ فعل التعقيل .

وهذا الجانب في الموضوع هو الذي يجب علينا ان توجه اليه اكبر قسط من اهتمامنا ، اذ ننقل الى لغتنا بالدرجة الاولى القمم الفكرية الكبرى ، تلك التي كونت العقل الحديث في كافة المجالات .

فليس من قبيل الصدفة ايضا ان اصبح لساننا بعد ترجمةالثقافات الاجنبية غيره قبلها .

والامر كذلك اليوم ، رغم اختلاف المعطيات . فتسارع الترجمة منذ ربع قرن ، وعلى ما فيه من فوضى مؤسفة ومؤذية ، قد جعلنا نتكلم لغة غير التي كان يتكلمها اجدادنا الاقربون ، ونستخدم الوانا وانواعا من الكتابة لم يعرفها هؤلاء ولا الذين سبقوهم .

ولم تفقد مع ذلك لغتنا هويتها .

وبعد فان اللسان الذي هو مؤسسة ، يحيل الى المؤسساتالاخرى الاجتماعي منها والاقتصادي ، السياسي والثقافي . فقد نقلنا ، في هذه المجالات ، من انماط التنظيم ما لا سابق عهد لنا به . اشير بخاصة الى طرق امتلاك الثروة وانتاجها وتوزيعها ، ومن ثم ترتيب الجماعة في اطر مهنية وادارية (النقابات ، الاتحادات ، الادارة المحلية) تلائم الاقتصاد الحديث ، واخيرا اعداد الشعب في التنظيمات الحزبية ليسهم في شؤون الدولة .

والمؤسسات هذه تحيل بدورها الى القوى الشعبية الطليعية التي استدعتها وتجاوبت معها ، قوى انبثقت من صميم اللا ـ تاريخ لتحتل ساح التاريخ ، ويكون لها القول الفصل في احداثه .

كل ذلك ، وايا كانت قيمته ، اسميه تعريبا .

اذ ما التعريب ان لم يكن الشعب العربي معبرا عن ارادته ؟

واسميه ايضا تعقيلا .

فاذا ما انطلقنا من هذه النقطة ، اذا ما انطلقنا من القوى ومؤسساتها ندرك البون الشاسع الذي يفصلنا عن المعلم الاول . فارسطو اذ رأى النموذج الاكمل للجماعة في الدولة الصغيرة (المدينة ـ الدولة) وللفرد في الحكيم الذي حقق توازنه في ذاته ومع الكون ، لم يشهد ما نشهد اليوم من حركات شعبية وقومية وعالمية تتصاعد وتتزايد ، متوقعة القيادة التي تضبط حركاتها لتعطي مردود طاقتها كاملا ولخير الانسان .

وهنا تبدا فعل التعقيل .

فهو اليوم ، تصور هذه القوى ، رصدها ، سبرها ، احصاؤها اذا امكن ، ومن ثم تصور حركتها ، وحيث تتجه هذه الحركة ، واخيرا وضع الخطة لاستقطابها وتسييرها في الخط المناسب للمصلحتين القومية والانسانية .

وذلك هو النموذج الاجرائي : تصور مزدوج للحاضر في مستقبله، وللمستقبل في حاضره بحيث يستنبط الواحد من الاخر .

وتلك هي معقولية الحداثة .

ليست ذرائعية ما ترى الحقيقة في النجاح .

ليست واقعية تطبيقية ما تعطي الاولوية للنتائج المباشرة ، على حساب الافق الاوسع .

وانما هي معقولية تستعيد ما سبق وتكمله ، اذ توجد بين النظر والعمل ، فتجعل من الصدفة معقولية ، ومن المفاجأة فعلا حرا .

هذه المعقولية هي التي يجب علينا ان نعربها باديء ذي بدء ، لا بترجمة كتبها وتأليفها وحسب ، وانما ايضا وبالدرجة الاولى،بترسيخها في وطننا وفي كيان كل منا ، اذ بها وبها وحدها نستطيع ان نلم شتات وطننا المبعثر في دولة تعيد الى هذه الامة مكانها في التاريخ .

من هذا المنظور الاوسع يمكننا ان نفهم :

اولا : بعضا من اشكالات فكرنا ،

ومن ثم الدور الذي لعبه ارسطو والتراث الفلسفي الاغريقي عندنا في الماضي ،

ان نفهم ، ثالثا ، فعل التعقيل الذي استثاره ارسطو والكامن في قلب المعقولية الحديثة .

واخيرا وبخاصة الدلالة التاريخية للتعريب . فهذا ليس قطاعا من قطاعات الثقافة ، وانما هو الحركة التي بها تنمو العروبة اذ تجمع رصيدها لتواجه ثقافات الامم ، فتؤلف من هذه المواجهة مستقبلا هو الامة في تقدمها الى ما شاء الله .

الهوامش

١ ـ راجع عرض هذه النظريات ومناقشتها في كتاب جورج مونين المشكلات النظرية للترجمة بخاصة الفصل الثاني صفحة (١٠) وما يلي.

الكتاب من نشر غاليمار بباريس عام ١٩٦٣ .

٢ ـ المرجع ذاته صفحة ١٣ .

٣ ـ المرجع ذاته صفحة ٩ .

٤ ـ المرجع ذاته ، القسم الرابع . وقد لخص جورج مونين نظرية همبولت في كتابه تاريخ علم اللغة . راجع في ترجمة بدرالدين القاسم الرفاعي ، نشر وزارة التعليم العالي بدمشق اما الكنطيون الجدد فمثلهم في هذا المجال هو الفيلسوف الالماني ارنست كسيرر .

٥ ـ راجع اميل بنفنيست ، مشكلات علم اللغة العام المجلد الاول ، نشر غاليمار في باريس . صفحة ٦٢ وما يلي .

٦ ـ راجع الترجمة العربية لكتاب ما وراء الطبيعة مع تعليق ابن رشد في تحقيق الاب بويج ونشر المطبعة الكاثوليكية في بيروت . ومن ان ايا من المهتمين بالفلسفة في الوطن العربي لم يعر هذا النص الطويل جدا (ثلاثة مجلدات ضخمة) والاساسي جدا ما يستحقه من اهمية . فالمقارنة بين المفردات الاغريقية ومقابلها العربي كافية للتدليل على الفارق الاساسي بين المنظورين والفلسفتين . وساعود لماما على هذا الموضوع .

٧ ـ الاخلاق .

٨ ـ راجع دراساته عن ريكله وجورج تركل وبخاصة هولدرلين .

٩ ـ تعارض التفسيرات ، نشر سوى ، باريس ، صفحة ٩٣ .

١٠ ـ القاموس المحيط مادة عرب .

١١ ـ ان زكي الارسوزي هو ، في حدود ما اعلم اول من شدد بشكل لا مثيل له على فعالية الكلمة العربية ، اذ حاول اشتقاق لساننا كله من عدد محدود من المصادر ذات الصوتين . ولكنه انتهى الى نتيجة غير التي انتهيت اليها . ذلك انه اعتبر الوجود برمته منظومة كاملة ومتكاملة يستنفدها اللسان العربي المكافيء لها . راجع بخاصة كتابه الاول والاساسي العبقرية العربية في لسانها ، المجلد الاول من اعماله الكاملة ، نشر لجنة خاصة الفتها حكومة الجمهورية العربية السورية لهذا الغرض .

١٢ ـ ان كلا من هذه المفردات الاساسية جدير بدراسة مستقلة توضح الفوارق بين ما هي عليه في الاصل وما آلت اليه مع الترجمة فـ (ياذوس) الافلاطونية ليست المثال بمعنى النموذج ، ولا المثالي اي ما هو قائم في الشعور او ناتج عنه . وربما ان المثالية بوصفها مدرسة فكرية نشأت مع الترجمة الى العربية والى اللغات الغربية . فمثال اعطت مثالي ، و idia ' idic اعطت idialisme .

١٣ ـ مرتن هيدجر ، ما هي الطبيعة وكيف تتعين ؟ تعليق على المقالة الثانية (١٩٢ ب ـ ١٩٣ ب) من كتاب السماع الطبيعي لارسطو، الترجمة الفرنسية لفرنسوا فديه في كتاب مسائل ٢ نشر غاليمار بباريس صفحة ١٩٠. وفي اماكن اخرى .

راجع للمقارنة ترجمة السماع الطبيعي العربية الاولى لاسحاق ابن حنين ، تحقيق وتقديم عبدالرحمن بدوي ،نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، المجلد الاول صفحة ٧٨ وما يلي .

١٤ ـ راجع تلخيص ما بعد الطبيعة لابن رشد ، تقديم وتحقيق الدكتور عثمان امين نشر مصطفى البابي الحلبي في القاهرة صفحة ٣١ ، وكذلك تعريفات الجرجاني .

١٥ ـ راجع ، فيما يخص الترجمات الغربية النص الفرنسي الكلاسيكي ، وقد وضعه هنري كرترون لمنشورات بريه ، وهو مزدوج اللغة (اغريقي ـ فرنسي) . ويلفت النظر وحدة المفردات الاساسية بيننا وبينهم ، مثلا كلمة مبدا ، مثلا ايضا الطبيعة من حيث هي طبيعي ومطبوع ، فقد وردت بهذا الشكل ايضا في نص اسحق بن حنين (صفحة (٨٥) بينما يترجم هيدجر الطبيعة ... في سيرها نحو الطبيعة (صفحة ١٧٦) .

١٦ ـ مرتن هيدجر ، الدراسة المذكورة حيث يرد هذا المعنى في مواطن كثيرة .

١٧ ـ تلخيص ما بعد الطبيعة لابن رشد ، الطبعة المذكورة صفحة ٣٢ . ونجد امثلة كثيرة في المعاجم الفلسفية العربية القديمة .

لقد وضعت هذه المقارنة السريعة جدا بالاستناد : اولا ،الى نص هيدجر المذكور ونصوصه الاخرى التي علق فيها على كبار فلاسفة الاغريق فجدد فهمنا لهؤلاء ، ومن ثم الى الترجمة العربية للسماع الطبيعي ، واخيرا الى الترجمة الفرنسية ومقابلها الاغريقي . واري بهذه المناسبة التشديد على ان محاولتي ليست دراسة ، بل بداية متواضعة جدا ، وعلى ضرورة القيام بمثل هذه الدراسة الاساسية لانها ، وحدها تكشف عن مدى اصالة الفكر العربي . ولكن مثل هذا العمل الشاق يحتاج الى باحثين متخصصين يعملون على سنوات .

١٨ ـ راجع كتاب النفس ترجمة احمد فؤاد الاهواني ومراجعة جورج شحاته القنواتي نشر عيسى البابي الحلبي في القاهرة عام ١٩٤٩ الصفحات ٦ و٤١ وما يلي فيما يتعلق بالنفس ، والصفحة ١١٢فيما يتعلق بالعقل .

١٩ ـ اقتراح مبدئي لتعريف كلمة ((ايذوس)) التي هي اساس الفلسفة الافلاطونية .

٢٠ ـ راجع على سبيل المثال بحث سامي النشار ((فيدون في العالم الاسلامي)) حيث تجد نصوصا كثيرة عن قراءات مفكري العرب لفاذن افلاطون ، بالاضافة الى لائحة لمحاورات افلاطون التي عرفها العرب ، في كتاب الاصول الافلاطونية ، الفيدون دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢ . وكذلك ايضا كتاب الروابيع المنسوب لافلاطون ، وقد نشره عبد الرحمن بدوي في مجموعة الافلاطونية المحدثة عند العرب صفحة ١٤٩ وما يلي نشر مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٥ .

٢١ ـ راجع محاولات هيدجر لضبط مدلول كلمة ايذوس في كتابه

محاولات ومحاضرات ترجمة اندره بريو نشر غاليمار ، باريس صفحة ٢١.

٢٢ ـ فاسلوب العرض لدى هيجل وماركس مثلا تحليلي مع ان صلب الرؤيا دياكتيكي . ولقد كان ماركس واعيا لذلك ، فهو يتحدث عن اسلوبه التحليلي ، ويميز ، بهذه المناسبة بين طريقة البحث وطريقة العرض ، مما يدعو الى التامل . راجع مقدمة الكتاب الاول من راس المال ، في ترجمة انطون حمصي ونشر وزارة الثقافة بدمشق صفحة ٢٧.

٢٣ ـ راجع الفصل الثاني من كتاب جميل صليبا ، الدراسات الفلسفية ، الجزء الاول ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤ ، ففيه خلاصة جيدة عن معاني العقل في الفلسفة العربية ،وبخاصة الصفحة ٤٨ حيث يضع المؤلف تصنيفا للعقول ، كما ورد عند اهم الفلاسفة .

٢٤ ـ راجع الى جانب كتاب صليبا المذكور ، دراسة عبدالرحمن بدوي عن العقل الفعال عند اليونان والمسلمين واللاتين ، وهي مقدمة لكتاب ارسطوطاليس في النفس ترجمة اسحق بن حنين مع دراسات اخرى عن الموضوع ذاته وقد حققها عبدالرحمن بدوي ونشرتها مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٤ .

٢٥ ـ راجع كتاب الحسن بن الهيثم لزهير كتبي في سلسلة علماء العرب نشر وزارة الثقافة بدمشق صفحة ٧٣ .

٢٨ ـ ابن رشد مثلا في كتابيه المعروفين ، فصل المقال والكشف عن مناهج الادلة .

٢٩ ـ راجع كتاب مصطفى عبدالرازق المذكور صفحة ٣١ وما يلي حيث يورد مختارات معبرة من « مقالات المؤلفين الاسلاميين » في فلسفتنا .

٣٠ ـ ابن خلدون ، المقدمة ، الباب السادس ، الفصل الرابع والعشرون ، والفصل الخامس والعشرون .

٣١ ـ راجع الى جانب كتاب مصطفى عبدالرازق المذكور مؤلف لوي غرده، المشاكل الكبرى للكلام الاسلامي ، المجلد الاول الله والمصير الانساني ، المقدمة صفحة ١٩ .

٣٢ ـ راجع كتاب مصطفى عبدالرازق المذكور ، الفصل الثاني بخاصة في الصفحتين ٣٢ و ٣٣ .

٣٣ ـ الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الاب بويج ونشر المطبعة الكاثوليكية في بيروت ، المقدمة الاولى صفحة ٨ . ما تزال هذه الطبعة ادق الطبعات واليها استند كافة الذين نشروا النص بعدها

٣٤ ـ راجع جان جيتون ، الزمان والابدية عند افلوطين وافسطين، نشر بوافان في باريس الفصل الاول صفحة (١) وما يلي .

٣٥ ـ افلاطون ، حوار البرمنيدس وحوار السفسطائي ، راجع هذا الاخير في ترجمة الاب فؤاد جرجي بربارة ونشر وزارة الثقافة بدمشق بخاصة صفحة ١٥٢ .

٣٦ ـ جان بوفره ، حوار مع هيدجر ، الجزء الاول ، الفلسفة الاغريقية ، نشر مينوي في باريس ، صفحة ٢٢ .

٣٧ ـ تجد نظرية الفيض هذه في كافة الكتب المدرسية .راجع، على سبيل المثال ، عرضا جيدا في كتاب جميل صليبا من افلاطون الى ابن سينا دمشق ١٩٣٨ صفحة ٨١ وما يلي ، وكتاب تيسير شيخ الارض ، المدخل الى فلسفة ابن سينا ، بيروت ، دار الانوار ١٩٦٧ بخاصة صفحة ٢٢٥ وما يلي وصفحة ٤٢٨ وما يلي للنصوص .

٣٨ ـ تهافت الفلاسفة ، الطبعة المذكورة صفحة (٥) .

٣٩ ـ جان بوفره ، المرجع المذكور صفحة ٦٠ ،او لمزيد من الايضاح ترجمته لقصيدة برمنيدس وتعليقه عليها ، المنشورات الجامعية الفرنسية بباريس .

٤٠ ـ هيدجر ، محاولات ومحاضرات ، الطبعة المذكورة صفحة ٩٦ .

٤٢ ـ التفتزاني ، شرح العقائد النسفية ،تحقيق وتقديم كلود سلامة ، نشر وزارة الثقافة بدمشق ، الصفحات ٣١ ـ ٣٧ حيث توجد ملاحظات ثابتة حول اللامتناهي ، والموضوع عولج بعناية في تراثنا .

٤٣ ـ راجع ملاحظات هيدجر الحاسمة حول معنى كلمة سبب لدى الاغريق بخاصة في كتابه محاولات ومحاضرات ، الترجمة المذكورة ١٢ ـ ١٦ .

٤٤ ـ تعريفات الجرجاني ، مادة علة .

٤٥ ـ راجع على سبيل المثال ، بشلار فلسفة ال لا ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، حيث يركز المؤلف برهنته حول نقض مبدأ الهوية الارسطاليسي .

ابحاث ندوة التعريب وتوصياته

يضم هذا العدد من « الآداب » عددا من الابحاث التي قدمت الى ندوة التعريب في طرابلس — ليبيا .
ولم يكن ممكنا نشر جميع الابحاث المقدمة ، ولذلك فان المجلة تنشر في الصفحات التاليـة ملخصا وافيـا لسائر الابحاث حتى يأخذ القاريء فكرة كاملة عن اعمال هذه الندوة الهامة .

وسائل الاعلام والتعريب

تحدث الدكتور محمد نجيب ابو الليل استاذ ورئيس مجلس قسم الصحافة بكلية الاعلام بجامعة القاهرة عن « دور وسائل الاعلام والتعريب » فركز على اربع منها ، هي الصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما .

في حديثه عن الصحافة ارجع الفضل في ادخال الصحافة الى الشرق الى بونابرت وتحدث بالتفصيل عن الدور الذي لعبته صحيفتا (بريد مصر) (والعشرية المصرية) في مجال التعريب ونقل الكثير من الالفاظ والمصطلحات الفرنسية الى اللغة العربية . وكانت هـذه الالفاظ تتناول الحياة اليومية واخبار الحفلات والمهرجانات كما تناولت مختلف المرافق العلمية والفنية . وقد استعملت هذه الالفاظ فـي اول الامر بنطقها الاجنبي ولكن ما لبث المترجمون ان وجدوا لها معادلا عربيا ، فانتقلوا من الترجمة الـى التعريب واثروا اللغة العربيـة بمصطلحات جديدة ، وكان للمجمع العلمي المصري الذي انشاه بونابرت الفضل الحاسم في هذا الميدان .

وتحدث الدكتور ابو الليل عن الدور الذي لعبته صحيفة (جرنال الخديو) في مجال التعريب ، مستعرضا المراحل التي مرت بها لفظة صحيفة من كلمة « جورنال » حتى « نشرة » و « الورقة الخبرية » « والرسالة الخبرية » الى ان استقرت على كلمة صحيفة ، وهـي كلمـة عربية ، على غرار الصحائف والمصحف . وعلى القيـاس العربي تمت عملية الاشتقاق فكانت كلمـة صحافة وصحف وصحافي وصحفـي الـخ ..

ثم تحدث المحاضر عن الانتكاسة التي لحقت عملية التعريب ايام محمد علي ، فقد سبب دخول المرادفات التركية العربية واساليبهـا في التعبير رداءة في الاسلوب العربي لم نتخلص منه الا حين تـولى رفاعه الطهطاوي تحرير « الوقائع » وعمل على تجديد اللغة العربيـة وتخليصها من الشوائب وتطويعها للافكار والتصورات الجديدة .

وتناول البحث النهضة الادبية الكبرى في مصر حين قام عبدالله فكري باتمام تعريب دواوين الحكومة ونقل القوانين واللوائح الـى العربية . وتحدث عن اسهام صحيفة « وادي النيل » ١٨٦٩ بادخـال طائفة من المصطلحات ظلت فترة تستعمل بلفظها الاجنبي ثم ما لبثت ان عربت منها مثلا كلمة « اجانس » وكالة و « دولتلو » رئيس الوزارة و « لا قنصولاتو » القنصلية .

وابرز المحاضر الدور الفعال والرائد الذي لعبته صحافة القرن الماضي في عملية التعريب حتى كادت اللغة العربية تتخلص من الالفاظ الاجنبية بعد ان تم تعريبها . ثم لاحظ ان الامر اختلف مـع بدايـة القرن العشرين . وذلك نتيجة للحرب العالمية ولحركـات التحريـر وللاحداث المتلاحقة وطفرة الاختراعات في العلوم والتكنولوجيا ، ففرضت الفاظا اجنبية جديدة وكثيرة ما نزال الى الان نبحث عـن نظير لهـا في العربية .

ويتساءل المحاضر : هل عجزت لغتنا عـن استيعاب هذه الكلمـات ام ان الكتاب والعلماء قد تقاعسوا عن الغوص في التراث لاستخراج كلمات عربية اصيلة تؤدي هذه المعاني . ام ان الاختراعات كانت اكثر سبقا من لغتنا فلم تعد تستطيع ملاحقتها ؟

ويعيب المحاضر على الصحافة العربية المعاصرة تقاعسها عـن مهمتها التاريخية في عملية التعريب وعن استعمالها لهذا السيل من الالفاظ الاجنبية وعن سكوتها لهذا المسخ للغة ، وعن عدم اهابتهـا بالكتاب لشحذ الهمم بغية تعريب الالفاظ الدخيلة .

ثم انتقل المحاضر الى التحدث عن الوسيلة الثانية من وسائـل الاعلام وهي الاذاعة ، اكثر الوسائل خطرا وشيوعا . وقد اشار الى الدور الهام الذي لعبته الاذاعة في مجال التعريب . فقد استطاعت ان تروض اللغة وتغوص في اعماقها ، وقد اسهمت في اثراء الثروة اللغوية وفي توحيد نطق المفردات وفي تقريب اللهجات واحلال الفصحى المبسطة مكان العامية السائدة . وقد توصلت الاذاعة الى ان تفرض الفاظا وتدخلها الحياة اليومية بعد ان عربتها من مثل كلمات نشرة او مسرحية او قطاع او اشتراكية او ممثل او مباراة .

ثم انتقل الدكتور ابو الليل الى الحديث عن الوسيلة الثالثـة للاعلام وهي التلفزيون (الاذاعة المرئية) . واعلن عن عدم ارتيـاحه لكلمة « اذاعة مرئية » لعدم دقتها وسلامة مدلولها . كذلك اعلن عـن عدم ارتياحه لاستعمال كلمة تلفزيون الاجنبية .

ثم تحدث عن الدور الخطير الذي لعبه « التلفزيون » في نشر الثقافة واثراء اللغة العربية . وفي مجال التعريب والتبسيط . فقد دخلت العربية تعابير لم تكن موجودة من قبل من مثل السوق السوداء ، السوق النقدية ، قوة ضاربة ، استثمار ، ثلاجة ، قوة رادعة ، نظام تعاوني . وقد ساهم التلفزيون في تداول المئات من الالفاظ والتعابير ، كما ساهم في مجال محو الامية .

وفي نهاية بحثه تطرق الى الوسيلة الرابعة للاعلام وهي الفيلم او الشريط او السينما . واكد انه عن طريق الفيلم الخيالي ووسط احلام اليقظة تتسلل الكلمات والالفاظ العربية المنتقاة على السنـة

الابطال وتنساب الى عقول المشاهدين فيرددونها في حياتهم ثم تصبح ثروة قومية ، وسلطانا لا يقاوم . من اجل ذلك حرصت الحكومات على مراقبة الافلام وفق معايير السن والتذوق الفني والاخلاقي والجمالي . ولا ينكر احد التغييرات التي احدثتها الافلام في الاسلوب التربوي خاصة التسجيلية منها .

تعريب القضاء في الجزائر

وتحدث الاستاذ احمد مجحودة رئيس مجلس الاستئناف بالجزائر عن التجربة الجزائرية في تعريب القضاء .

وقد لاحظ اولا ان للتعريب في الجزائر معنيين : الاول العمل على استعادة اللغة العربية مكانتها والثاني ينبع من معطيات الثورة ، وهو انشاء المدرسة الوطنية للاطارات التي سيكون من ضمن مهامها العمل على ترقية اللغة العربية وجعلها في مصاف اللغات الحية .

اما مشكلة التعريب في الجزائر ككل فلا تخرج عن المشكلة العربية العامة للتعريب وقد نبه الاستاذ الى الجهود المبعثرة للمجامع اللغوية والخطر الكامن في عدم توحيد مصطلحاتها وبقائها ضمن اطر محلية . من اجل ذلك يدعو الى انشاء اكاديمية وحيدة للغة العربية تتركز فيها جهود العاملين من اجل رفعة العربية ، والبعد عن الفوضى التي تتخبط فيه ، على مستوى الحياة اليومية وحتى في المعاجم والقواميس ، ان ضرورة ايجاد مصطلح واحد على مستوى الامة مطلب رئيسي خاصة بالنسبة لجيش الموظفين الجزائريين الذين يتعلمون العربية تمهيدا للتعريب الكامل للادارة الجزائرية .

ويعزو المحاضر تفشي اللهجات العامية ايضا الى عدم توحيد المصطلحات ويطالب بوجود معجم مفهرس للالفاظ المستحدثة ، ولكنه يرى ان المشكلة الاساسية للتعريب تكمن في عملية الالتزام بالمصطلح الموحد .

اما بالنسبة للقضاء فقد واجه المشكلة في مجابهتين : مجابهة داخلية ومجابهة على مستوى اللغة ذاتها . فالمعروف ان اللغة الفرنسية كانت اللغة المستعملة في كل من « القضاء الفرنسي » الذي تحولت اليه الاختصاصات من جزائية وعقارية وتجارية وادارية والاحوال الشخصية التي بقيت للقضاء الاسلامي . وعندما نالت الجزائر استقلالها واجهت فراغا هائلا في الاطارات القضائية لرحيل الفرنسيين كما واجهت مشكلة التعريب . فالعربية لم تستعمل الا في الاحوال الشخصية وعدد القضاة العرب كان قليلا جدا ، والمصطلحات الفرنسية استمرت مئة عام عصرية ومحددة ومنتقاة وقد الفها الناس .

ولكن التعريب ملح للاسباب التالية :

١) القضاء يلتحم بالسيادة الوطنية ، ويرتبط ارتباطا وثيقا بضمير الشعب ، الذي ابى ، بعد التحرير ، ان تصدر الاحكام بلغة المستعمر ، فضلا عن ان صاحب القضية ، الذي يجهل غالبا الفرنسية، كان في المحكمة متفرجا ، كان الامر لا يعنيه .

٢) ان القضاء يعالج قضايا الشعب اليومية ، والدور الذي تلعبه العدالة لا يمكن ان يكون ناطقا بغير لغة الشعب .

٣) التخوفات من التعريب بالنسبة للقضاء غير واردة لان اللغة العربية ثرية في هذا الميدان وخاصة في مؤسسة الحقوق المدنية .

٤) التخوفات المبنية على ان التعريب سيشكل من الجهد المبذول في معركة البناء لا اساس لها ، نظرا لان القضاء غير مكلف بادارة مكاتب .

وتطرق المحاضر الى المراحل التي تم فيها التعريب ابتداء من ٧١ ـ ١٩٧٢ بتعريب الاحكام والقرارات ثم تبعه تعريب التقارير الفصلية والمراسلات ، وانتهى المطاف بتعريب مصالح الادارة المركزية وتحدث بالتفصيل عن الوسائل التي جندت في هذه العملية :

١) قررت وزارة العدل تنظيم دروس بالعربية للقضاة مرتين في الاسبوع .

٢) قررت تنظيم دروس ومحاضرات في القانون باللغة العربية الغاية منها تعويد الموظف القضائي على استعمال العربية .

٣) انشاء مركز التكوين القضائي الذي يقضي فيه القضاة دورات تدريبية لمدة اربعة اشهر .

٤) طبع القوانين التي صدرت بعد الاستقلال باللغتين العربية والفرنسية .

٥) طبع معاجم لغوية صغيرة بالعربية والفرنسية .

٦) استعمال العربية في النشرات والطلبات التي تصدرها الوزارة .

ولم يمض عام حتى اعطت تجربة تعريب القضاء ثمارا طيبة ومشجعة ولكن التعريب سبب عدة مشاكل وهي تتمثل في نوعين :

مشاكل ذات طبيعة محلية واخرى فنية ترتبط بمشكلات اللغة العربية .

المشاكل المحلية :

١) العدة المعربة لا تزال قليلة ، وتتم ببطء نظرا للظروف الخاصة بالموظف القضائي المزدوج اللغة ، او الذي عليه ان يتعلم العربية .

٢) التركة التشريعية الموروثة من العهد الاستعماري غير مترجمة والجزائر تعد عام ١٩٧٥ لانهاء العمل بقانون ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ الذي مدد التشريع القديم .

٣) اصطدم القضاء الجزائري الذي سبق الادارات الاخرى في التعريب بمشكلة الاتصالات بالادارات .

٤) تعريب القضاء نهائيا يرتبط بتعريب ادارتي الامن والدرك. وما يزال التعريب ضئيلا في هاتين الادارتين والتحقيقات الاولية ما تزال بالفرنسية مما يشل من قدرة الموظف وحيد اللغة .

اما المشاكل الفنية ـ فهي عربية تتناول التاثيرات العديدة التي طرأت على الحياة تبعا لاكتساح التقدم الحضاري والفني والعلمي . كذلك فان لغة الحقوق والاقتصاد والادارة قد تاثرت بهذا التقدم وعرفت نموا في المفردات اللغوية ، والغريب ان اي مؤتمر لتوحيد المصطلحات العلمية لم يضمن جدول اعماله نقطة لتوحيد المصطلحات الحقوقية . ويتمنى الباحث ان توفق وزارات العدل العربية الى دعوة لعقد مؤتمر لتوحيد المصطلحات .

كذلك هناك فوضى في المصطلحات القانونية ، ولكل بلد عربي مصطلحه الخاص ومفارقاته المحلية على صعيد الادارة والمعاجم والقواميس . وقد ساعدت هذه الفوضى على اذكاء حملة المشككين في قدرات العربية ودقتها ، خاصة وانه ، في مجال الحقوق ، ينبغي ان يكون لكل مصطلح مدلوله الخاص منعا لكل تداخل .

ويختم الباحث مقاله حاثا العرب على توحيد مصطلحاتهم لان وحدة اللغة ، تعني وحدة الفكر ، ووحدة الفكر تعني وحدة المصير .

حول كتابة العربية

تحدث الدكتور فؤاد شاكر الملا الاستاذ في قسم الرياضيات بجامعة الكويت « حول كتابة اللغة العربية » . وقال ان اللغة العربية حين تكتب بدون تشكيل يكون لعدة كلمات صورة واحدة . ولا يمكن معرفة الكلمة المقصودة الا بعد استجلاء معنى الجملة . لذلك تتطلب قراءة هذه اللغة بدون حركات معاناة طويلة وخبرة واسعة . واعطى مثالا على هذه الصعوبة كلمة « كتب » التي لها ٨١ قراءة مختلفة حسب التشكيل لكل حرف من حروفها . وفي هذه الحالات نفهم لنقرا بينما المفروض اننا نقرأ لنفهم .

وذكر ان هناك محاولات واجتهادات كثيرة لجعل الطباعة محركة، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، لانها تدعو الى ادخال حروف اضافية للحروف العربية تنوب عن الحركات ، وهذا بالطبع يقطع الصلة بالتراث ، وهي غير اقتصادية (تتطلب ضعف الحروف وبالتالي زيادة الورق) ولكن الباحث يقترح تقليل المسافة بين الاسطر

توفيرا بل وربحا خاصة في مجال مكافحة الامية ، (وقد قدم دراسة تفصيلية عن محاولة يمكن الرجوع اليها) .

ويقترح الباحث جعل اللغة العربية لغة الحياة في المدرسة باختيار اساتذة اكفاء بالتحدث باللغة الفصحى وافتتاح مدارس تبدأ بالصف الاول يكون التحدث فيها بين المدرسين والطلاب والموظفين باللغة الفصحى فقط ويرى الباحث ان فائدة هذه الطريقة تكمن في تعويد العربي على النطق بالعربية وضبطها بالسليقة بدون اي تكلف او حرج في استعمالها في الحياة اليومية .

وهذه التجربة يمكن ان تسندها لغة برامج التلفزيون والراديو وخاصة برامج الاطفال التي يجب ان تؤكد ان العربية الفصحى ليست فقط لغة الكتابة وانما هي ايضا لغة الحياة .

ويعطي الباحث ادلة وبراهين تثبت ان طريقته المقترحة تحمل الفوائد التالية لمن يتعلمها :

١) يتعلم العربية بطريقة اسرع .

٢) بعد كسب الخبرة في القراءة والكتابة يستطيع ان يقرأ ما هو مكتوب بالطريقة الحالية .

٣) ان المتعلم بهذه الطريقة يستطيع القراءة في خلال ربع ساعة .

وهذه التجربة تثبت ايضا ان كتابة الحركات كحروف وكجزء من صورة الكلمة يساعد على اتقان العربية ككل وليس اتقان القراءة والكتابة فقط لعدد اكبر من الناس .

التعريب والنهضة

تحدث الدكتور محمد ابراهيم ناصر عن «التعريب في عصر النهضة العلمية عند العرب» فذكر ان اللغة العربية اثبتت في تلك الفترة الواقعة بين عام ٨٠٠ الى عام ١٣٠٠ انها قادرة على استيعاب المستحدث من العلوم والفنون والفلسفة والاداب التي نقلوها عن اللغات الاخرى ، او التي الفوا بلغتهم العربية .

وبعد ان ذكر ان النهضة العلمية جمعت جميع فروع المعرفة ، اكد ان اللغة العربية استطاعت ان تستوعب اعمال العلماء ، حتى اصبحت هي لغة العلم في العالم آنذاك .

وقد اتسمت النهضة العلمية العربية بنهضة انسانية فكرية شاملة الى جانب التخصص العلمي ، واعطى مثلا على ذلك ابن الهيثم المتخصص في علم الضوء والذي ظل كتابه في البصريات المرجع الاكبر في العالم الى عهد غير بعيد منذ الف ابن الهيثم في الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والعلوم التعليمية وفي الطب وكلها مؤلفات شهد علماء الغرب بقيمتها العلمية .

ويتهم الباحث المتشككين بقدرة العربية بانهم تعلموا في الغرب وبلغة غربية ولم يدرسوا العربية بالقدر الذي يظهر لهم مقدرتها ومكانتها .

وانتقل الباحث لذكر المميزات التي اتسم بها عصر النهضة العلمية : فذكر ان العالم العربي كان وحدة اقاليم في القطر العربي الكبير . واستشهد بقول ان الهيثم عن حديثه عن « الاقليم المصري » ، وكان العالم يعتبر نفسه مواطنا لكل اقليم عربي ينزل فيه ، واتسم هذا العصر ايضا بتشجيع الحاكم لاهل العلم وتوفير جميع الامكانيات المادية والفنية لهم (اسس الحاكم بامر الله دار الحكمة ، ومرصد المقطم) ، وكان العالم النابغ يجد ابدا مجموعة من اهل العلم والمعرفة والاختصاص تتعاون معه وتيسر له عملية البحث والتدقيق والاستشارة والتنفيذ .

وختم الدكتور محمد ابراهيم ناصر ، استاذ الفيزياء الذرية مقاله بقوله : اذا رغب العرب في نهضة عربية حقيقية فيتحتم عليهم ان يسيروا على نهج العرب في ذلك الزمان ، واهم مظاهر هذا النهج ان العالم العربي كان وطنا واحدا لكل العلماء العرب بلا ادنى تمييز .

العربية وقدرتها

وتحدث الاستاذ احمد عبدالباقي بستان من الكويت عن « نظرة في طبيعة اللغة العربية وقدرتها على الاستيعاب » .

في مقدمته اشار الى ان الثقافات تتفاعل فتاخذ امة عن امة وان كان ثمة فخر للامة المعطية فلا عار على الامة الاخذة ، وانما لها فخر الفهم والهضم والاستيعاب والاضافة . فالانسانية وحدة متفاعلة وثقافتها كل لا يتجزأ وانما يضيف اللاحق الى ما تركه السابق من كل الامم والعصور .

ثم تناول التعريب في العصر الاموي فذكر ان اول من اهتم بنقل العلوم الاعجمية الى العربية هو خالد بن يزيد بن معاوية واول نقل في الاسلام من لغة الى لغة تم في ايامه على يد رجل اسمه اصطفان القديم والكتاب يتناول صناعة الكيمياء ، كما ترجمت كتب في علم التنجيم ، ثم ترجم في عهد مروان بن الحكم الطبيب السرياني « ما سرجويه الى العربية كتابا طبيا » . كذلك عربت الدواوين والنظم الادارية . غير ان حركة الترجمة كانت ضعيفة وفردية بسبب ان العربية لم تكن غريبة عن اكثر سكان الشام والعراق ومصر .

ثم انتقل الى التحدث عن النقل في العهد العباسي الاول حيث ترجمت اعظم كتب اليونان والهند والفرس . وقد انقسم دور النقل الى ثلاثة ادوار :

١ ــ من خلافة المنصور الى اخر عهد الرشيد (١٣٦ ــ ١٩٣ هـ) وفيها نشطت حركة النقل والترجمة خاصة فيما يتعلق بصناعة التنجيم التي قام بها آل نوبخت الفارسيين . كذلك اهتم المنصور بالطب فاستدعى جورجيس بن بختيشوع السرياني فنقل عددا من الكتب الطبية الى العربية . وفي عهد الرشيد غدت بغداد مركز العالم المتمدن في كل علم وفن فتقدمت الترجمة واهتم العرب بالكتب الفلسفية والادبية والعلمية (كتاب المجسطي لبطليموس ، كتب طبية عن الهندية ، كتاب اقليدس ، كتب ارسطو ، افلاطون ، كتب جالينوس في الطب) .

الدور الثاني ايام المامون ، حيث دعم الحركة العلمية وامر بترجمة الكتب الفلسفية والمنطقية التي تساعد في تاييد مذهب الاعتزال الذي كان يؤمن به ، كما اهتم بكتب العلوم والتاريخ وعلم الهندسة. فترجمت في ايامه اهم كتب اليونان بدقة وعناية عظيمة (كتب افلاطون وارسطو ، سقراط ، جالينوس ، اقليدس ، ارخميدس ، مثالادس).

الدور الثالث بعد المامون : ظلت حركة النقل ناشطة وانتشرت اللغات الاعجمية بين الناس كالهندية واليونانية والفارسية . وفي هذه الحقبة ترجمت اسفار التوراة ، وقد اتسم مترجمو هذا العصر باتقانهم اللغة التي ياخذون عنها وباللغة العربية .

وانتقل الباحث الى تعداد اشهر المترجمين في الاسلام فذكر منهم عبدالله بن المقفع وجورجيس بن بختيشوع وبختيشوع بن جورجيس ، وجبريل وعيسى بن شاكر وقسطا بن لوقا ، والحجاج بن يوسف بن مطر ، وثاوفيل بن توما وابا يحي ابن البطريق.

وفي عهد الرشيد شيد اول مجمع علمي ومعه مرصد ومكتبة وجامعة وهيئة للترجمة وصفوة الجهود المترجمة تمت في رئاسة حنين بن اسحاق. كما انشئت دار الحكمة ومن اشهر المترجمين ايضا ثابت بن قره وهو من الصابئة (ترجم وتلامذته اهم الكتب اليونانية في الفلك والرياضيات) ثم برز المترجمون اليعاقبة واشهرهم يحيى بن عدي (ترجم المقولات والشعر وما بعد الطبيعة لارسطو ، القوانين لافلاطون وشرح المقولات للاسكندر الافروديسي)

وبعد هذه اللمحة التاريخية لحركة الترجمة ، انتقل الباحث الى تعريف اللغة وصلاحيتها للتعريب . وتحدث عن العلاقة بين اللغة والحضارة ، فقال ان قصة اللغة هي قصة الحضارة ، ولولا وجود اللغة لما قامت الحضارة .

ثم تناول الباحث مميزات اللغة العربية فقال انها اصفى اللغات السامية واكثرها نغما وجرسا كما ان الفاظهـا تستدعي بعضها بواسطة « المتعلق وادوات الفصل والوصل وروابط الكلمات والجمل. واما من حيث المعنى فذكر ان الفاظ هذه اللغة تحمل معنيين : المعنى المباشر ، والمعنى المجازي . وقد تاثرت اللفظة بالتطور الحضاري فدخلت عليها ظاهرة « التجسيد » فوسع عالم طاقتها . وهذا يدل على مرونة اللغة العربية واستجابتها لمتطلبات الحياة ،ومقتضيات الحضارة ، وانها كائن حي ، نام ، خاضع لنواميس التطور وقوانين الارتقاء .

واشار الباحث الى جمال التعبير ، وسعة الخيال ، وحرارة العاطفة ،حتى بلغ القول غايته الجمالية،فكانت البلاغة ، وكان الاقناع. وقد امتاز تراثنا باللفظة المعبرة ، المؤدية لرسالتها في الجملة، والجملة الصحيحة المسؤولة عن دورها في تادية الفكرة واغناء الصورة . كما نجد التوازن والتوافق بين الجمل والتجاوب الموسيقي ، والتوزيع الطبيعي المحكم . ويتجلى ذلك (١) في المجال الصوتي (٢) الجمال في اللغه مفردة ومركبة . وهذه الصفات مجتمعة تؤهل العربية لان تحتل مكانتها اللائقة بين لغات العالم الحية .

بعد هذه المقدمة عن خصائص اللغة العربية انتقل الباحث يؤكد صلاحيتها للتعريب . فذكر ان العربية ، منذ عهد المامون قد استوعبت جميع الترجمات العلمية والفلسفية . حتى اصبحت بلادنا مركزا للحضارة الشرقية او الاسلامية ، تلك الحضارة التي وحدها الاسلام وعبرت عنها اللغة العربية ، وقد استوعبت العربية فكر اليونان والفرس والهنود ، ثم ابدعت مؤلفات تحمل طابع الشخصية العربية التي اهتمت اثناء الفتوحات بانشاء المدارس والمساجد والمكتبات العامة تشجيعا للبحث العلمي والفلسفي، وكانت اهم مميزات الفكر الاسلامي قدرته على التكيف وقدرة اللغة على استيعاب هذا التكيف ، اما مشاكل التعريب التي تحدث عنها الباحث فتتلخص في :

١ ـ ضرورة الجمع بين اسم العلم العربي والافرنجي .

٢ ـ اختلاف المصطلح العربي : لان اصل الموضوع اجنبي ،فالاصل فيه المصطلح الافرنجي . ولما كانت المصطلحات العلمية لم توحد بعد ، فان كل كاتب يستعمل ما يحلو له من الترجمة .

اما مشكلات البحث العلمي في (التعريب) فتتم على مستويين :

نقل الحديث من العلوم الى الطلاب بالتدريس،ومحاولة الاسهام في حل بعض المشكلات التي يواجهها الباحث اثناء قراءاته .

وينقسم الدارسون : بعضهم يقول ان الشروط التي يجب انتتوفر للباحث اذا ما اريد له النجاح لم يعد له لغة واحدة ،والامثلة كثيرة لامم راقية تصدر منشورات هيئاتها العلمية بلغة غير لغتها القومية ، واذا ما درس الطالب بلغة غير لغته فذلك لا يمكن ان يعتبر انتقاصا من قدر اللغة القومية ، كما ان هذا الفريق يعتبر ان الباحثين سيفقدون وقتهم العلمي في الترجمة . كما انهم يطرحون هذا التساؤل : ما مدى امكانية تحقيق التعريب البليغ المحكم للعلوم المتطورة ومن سيقوم بهذه المهمة بالاضافة الى ان الباحثين العرب يفتقرون الى الادوات والمراجع كما يواجهون اعباء ضخمة في عمليات التدريس لا تسمح لهم بالانصراف الى البحث والاطلاع ، ويصاحب ذلك ضعف في العائد المادي ، كما يرى هذا الفريق ان المنطق يطالبنا اولا بالثورة العلمية الرائدة في كل الميادين ولينشط الباحثون فيالدراسات بدون معوقات وباي لغة يرونها مناسبة لمجال اهتماماتهم ، فاذا ما وصلت الامة العربية الى ما تصبو اليه من تطور عمدت الىالتعريب.

ويستند ايضا هذا الفريق من الباحثين الى ان ترجمة العلوم بالذات تتطلب قدرة متفوقة على فهم هذه العلوم ومعرفة عظيمة باللغة العربية وباللغة المترجم عنها وهذان الامران لن يتوافرا لاي فرد ما لم يتول بنفسه البحث .

ويرى فريق اخر من الباحثين ان الترجمة والتعريب فيعملية التعليم امور مرغوب فيها لكن الواقع الحالي ليس مناسبا للقيام بذلك والاجدر ان تتاح الفرصة للعلم الحر غير المقيد بأن يتطور حتى تضيق الهوة التي تفصلنا عن الامم المتقدمة وبعد ذلك تنجز عملية التعريب .

وهناك فريق من الباحثين يدعو الى اصلاح اللغة العربية لمواجهة عملية التعريب . وهم يرون انه بالرغم من مميزات هذه اللغة ، الا انها غير تامة الصلاحية لعمليات التعريب فاسلوبها مليء « بالمحسنات البديعية » كما ان التلاعب بالعبارات ، يعتبر ركاكة ، كما ان الاسلوب العلمي يبتعد عن التورية والجناس .. ومن يقرأ كتابا علميا عربيا عليه ان يصرف من جهده الى الناحية اللغوية البحتة ، وكان من نتيجة ذلك انصراف اعداد منعلمائنا الى دراسة علوم اللغة بدلا من الاتجاه الى مواضيع علمية بحتة .

بالاضافة الى جميع هذه المشاكل ، تضاف مشكلة اخرى هي ان الترجمة العربية للمصطلحات العلمية لا تعطي غالبا المعنى الاصيل المقصود بالاجنبية .

على ان الباحث يلح على ان اللغة القومية هي اقوى رابط بين ابناء الشعب الواحد ، واهم مقومات القومية العربية هي الشركة في اللغة . واذن فينبغي العمل على ان تصبح العربية لغة حضارة القرن العشرين . وكل من له اتصال عميق باصول هذه اللغة ومدى قابليتها للتطور لا يستبعد عودتها الى مجال الحياة كلغة علوموفنون واداب وادارة .

ويرى الباحث ان في العربية عناصر القدرة والتكييف ،والقابلية للنحت والاشتقاق وتعريب الدخيل ومنحه جنسيتها . واذا تشكك البعض في قدرة العربية ، فليس ذلك مرده عجز اللغة وانما عجز من تصدوا لعملية التعريب . والزمن كفيل بابادة هذه الشكوك حين تتضافر الجهود الحقيقية ،وتصبح عملية التعريب الزامية في الحياة الادارية والوظائفية والاعلامية . (وهو يقترح ان تخصص الصحافة بعض اعمدتها لذكر كل مصطلح عرّب لطرحه ومناقشته ثم فرضه بواسطة الصحف والاذاعة والتلفزيون)اما التكوين الثقافي العلميفينبغي ان يتم في دور المعلمين او مدارس الاطارات او المدارس الادارية ، على يد اساتذة اكفاء ، وبمختلف الشعب ، وبهذه الطريقة المجزاة والمسؤولة نستطيع ان نحصل على القدر الضروري من الشباب العامل في حقل التعريب .

ومن اهم الاقتراحات التي ادلى بها الباحث .

١ ـ اصدار نشرة او مجلة متخصصة في التعريب باشراف منظمة الثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية .

٢ ـ التشجيع المادي من قبل الدولة لتطبيق مشاريع التعريب .

ويختم الباحث مقاله بالتاكيد على ان قضية التعريب ليست مشكلة بسيطة ولا مشكلة عاطفية ،بل ولا هي مشكلة لغة . وانما هي مشكلة تفكير وحضارة وتحرر واستقلال فكري وحضاري ، بل وتحرر سياسي واقتصادي . ويلاحظ الباحث ان التعريب لا يعني التنكر للغات الاخرى ولا للحضارات والثقافات الاخرى ، ولكنه يعني احلال العربية كلغة قومية حضارية يتعامل بها العرب جميعا ،وهذا المفهوم لا يقف دون تعلم لغات اخرى تفتح افاقنا على حضارات اخرى فنزداد ثقافة ومعرفة .

اما دراسة الدكتور احمد مطلوب (العراق) فتناولت « دعوة الى تعريب العلوم في الجامعات » . وهو ينوه بان دراسته تتوجه الى اساتذة العلوم المؤمنين باللغة العربية ، ودورها في خدمة العلم وتطويره . وقد اشار الى ان الدعوة الى التعريب ، قديمة وقد عرفها العرب منذ جاهليتهم ، وغدت بعد الاسلام معلما من معالم حضارتهم الجديدة . وقد نجحوا كل النجاح في مواكبة التطور الحضاري وايجاد المصطلحات والالفاظ الاجنبية . ولقد انجهوا في وضع المصطلحات اتجاهين : (١) وضع كلمات عربية لما طرأ على حياتهم من تقدم علمي وحضاري مستعينين بوسائلهم في نمو اللغة وتطويرها . (٢) تعريب الكلمات واستعمالها بعد صقلها وتهذيبها حتى تصبح قريبة من ذوقهم اللغوي .

ثم مرت على العرب عصور من الانحطاط ، كانوا يأخذون من سواهم ولا يضيفون شيئا حتى عصر النهضة ، وبعد اتصالهم بالغرب واطلاعهم على حضارته الحديثة قام الرواد بنقل بعض هذه الحضارة الى لغتهم ولكن المصطلحات وقفت تعوق تقدمهم لان المصطلحات القديمة لم تعد كافية امام هذا الاندفاع الغزير . اما الوسائل التي اتبعوها فكانت نمو اللغة والتعريب .

ويحدد الباحث المساهمين في حركة التعريب الحديثة وهم : المجامع اللغوية ، الجامعات العربية ، المؤسسات العلمية ، اساتذة العلوم ، المترجمون ، واضعو المعاجم ، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في المغرب العربي .

ويرى الباحث ان التدريس في الجامعات العربية بغير اللغة العربية يعد استهانة بتلك اللغة وانكارا للامة . وقد وقف البحث على قضية التعريب منذ ظهورها ، وتابعها على مدى العصور ، فكان التمهيد الذي صور حال اللغة العربية قديما وحديثا . واشار الى الجهود التي بذلت في هذا السبيل . ثم حقق الباحث عن الاعراض عن التعريب وكشف الاسباب والنوايا ، وربط بين القضية والاستعمار . ثم عمد الى التشخيص وهو كشف الصعوبات التي تقف امام التدريس بالعربية في الجامعات ثم نوّر البحث وشرح طرق نمو اللغة ، مشيرا الى الجهود القديمة والحديثة في هذا الميدان .

وقد تناول البحث امورا ثلاثة :

١ ـ التدريس بالعربية قضية قومية ، والاعراض عنها تنكر للامة وطعن في اهم مقوماتها .

٢ ـ التدريس بالعربية يدفع الى التقدم ويخدم العلم ويخلق اجيالا قادرة على الفهم الدقيق والتطور ، لان اللغة لا تنفصل عن التفكير ، ومن فكر بلغته كان اقدر من غيره على العمل والابداع .

٣ ـ التدريس بالعربية يشيع العلم بين الناس ، وقد انتهى الزمان الذي كان فيه العلم ملكا لطبقة خاصة .

وقد الح الباحث على الدور الذي يجب ان يلعبه كل من الحس القومي والنزعة العلمية والنظرة الانسانية .

وبعد التمهيد الذي شمل تاريخ تطور اللغة العربية قديما وحديثا انتقل الباحث الى التساؤل لماذا التعريب ؟ فركز على ان حركة التعريب حركة قومية قامت لتعيد الى الامة كيانها وتحفظ وجودها على اعتبار ان اللغة العربية هي من اهم مقومات الوحدة العربية واولى علامات النصر في معركة تحقيق الذات ولا تستطيع امة ان تحقق ذاتها من غير لغة .

وقال ان التعريب قد يكون صعبا وشاقا في مراحله الاولى ، ولكن العمل لا بد ان يكون مثمرا ، وهذه الجهود ينبغي ان تشترك فيها الجامعات والمؤسسات العلمية واجهزة الاعلام ، كما دعا الى مقاومة اللهجات العامية والمحلية وتشجيع العربية الفصحى ونشرها . ونبه الى ان الترجمة لن تغني ، لان الامة عاجزة عن ترجمة ومتابعة كل ما يصدر ، ووضع الكتب العلمية اسهل وايسر مع الاكتفاء بترجمة ما يتميز باضافات جديدة .

وتطرق الباحث الى فائدة التدريس بالعربية وعواقب التدريس بالاجنبية . فذكر ان الطريقة الثابتة تحتاج (١) الى اتقان اللغة الاجنبية (٢) تحصيل العلم . ولكن التعريب ييسر العلم ويختصر المرحلة الاولى ويصرف الدارس الى التمكن من المادة العلمية . وفي ذلك عدة فوائد : (١) تقدم وسرعة في التحصيل (٢) التعبير عن الافكار باللغة الام اوضح واكثر دقة من التعبير بالاجنبية . (٣) حفظ الشخصية العربية ، وخلودها بخلود لغتها (نبه الباحث بالتفصيل الى ان جميع الامم تدرس في جامعاتها باللغات الام : ايران ، تركيا ، الهند ، وحتى الصهيونية) .

ويتساءل الباحث عن الاسباب الجذرية التي يتمسك بها دعاة العزوف عن العربية فيردها : (١) الى محاولات الاستعمار الذي عمل على القضاء على اللغة والدين والتاريخ ، التي تعتبر من اهم مقومات الامة العربية . (٢) قلة الاساتذة العرب (فاحتل الاجنبي مراكز التعليم الجامعي . يعاونهم من يدينون بعقليتهم من ابناء الوطن) (٣) قلة الكتب العلمية ، مما ادى الى التمسك باللغة الاجنبية . ثم يتطرق الباحث بعد ان شخص الداء واسبابه الى طرق معالجة الوضع . وهو يرى ضرورة توفر عاملين لدعم التوجه في عملية التعريب :

(١) ايمان الحكومات العربية بالتعريب واتخاذ القرارات الحازمة وفرضها .

(٢) ايمان العلماء والاساتذة بالتعريب ويأتي ذلك ذاتيا والا تتدخل السلطة باختيار من ترى فيهم الحزم والايمان .

وتتم عملية التعريب بعد ذلك وفق الامور التالية :

(١) عقد المؤتمرات العلمية ذات المستوى الرفيع يشارك فيها العلماء من جميع الاقطار العربية . على ان يلتزم المشتركون بالقرارات ويعملوا الى تنفيذها .

(٢) تشكيل هيئات او اتحادات تأخذ على عاتقها دراسة كل علم ووضع الاسس الكفيلة بتسهيل العربية ووضع المصطلحات واقرارها .

(٣) قيام المجامع العلمية واللغوية بنشاط اكثر فعالية لانها تملك وسائل البحث والنشر .

(٤) اصدار المجلات العلمية وتنسيق التي تصدر وتوجيهها ومساندتها

(٥) العناية بنشر الكتب العلمية والتدريس بها (كما يفعل بالقطر السوري) .

(٦) توحيد المصطلحات العلمية واصدار المعاجم الموحدة .

(٧) دعم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في المغرب والالتزام بما يتفق عليه العلماء والباحثون في ندواته ومؤتمراته .

(٨) دعم اتحاد الجامعات العربية واتخاذ مكتبه حلقة وصل بين الجامعات العربية والالتزام بقراراته .

(٩) اقامة ندوات التعريب بين فترة واخرى ليلتقي فيها اصحاب الشأن ويتبادلوا الاراء ويوحدوا الاعمال .

(١٠) نشر الوعي بين الجماهير .

وبانتظار تحقق هذه الامور ينبغي البدء بالتعريب في الاقطار العربية كافة والبدء بوضع كتب علمية .

ولمعالجة قضية التعريب عمد الباحث الى اجراء استفتاء مع اساتذة الجامعات ليكون بحثه مبنيا على اسس علمية فاتضح له الامور التالية :

(١) اقتصرت دراسة الاساتذة العليا على الاقطار الغربية (امريكا، انكلترا ، الاتحاد السوفياتي ، ثم دول العالم الثالث ، وفرنسا والمانيا) . ولكن التدريس يتم باللغة الانكليزية . وهناك المشكلة اولئك الذين لا يتقنون الانكليزية . ولا يستفاد من خبراتهم (وهنا

يقترح الباحث ان تنطلق البعثات العلمية الى جميع دول العالم المتقدمة، وحين تعود الى الوطن تدرس وتؤلف بالعربية ، فيستفيد الوطن من جهودها) .

(٢) الطلاب العرب ينفقون جهودا كبيرة في فهم اللغة الاجنبية قبل فهم المادة العلمية . (التعريب اذن يختصر الوقت والجهد).

(٣) قام بعض الاساتذة بتدريس تخصصهم بالعربية (رياضة ، كيمياء ، جيولوجيا ، نبات ، علم حيوان) . وكانت العربية طيعة. وقد ثبتت الامور التالية :

(١) نجاح التعليم العالي بغير الانكليزية في جامعات العالم .

(٢) نجاحه في الجامعات العربية التي عربت فيها العلوم .

(٣) نجاح العربية في المرحلة الثانوية .

(٤) المشكلة كانت المصطلحات .

ويرى الباحث لتذليل مشكلة المصطلحات العمل وفق الخطوات التالية :

(١) البحث في المعاجم العربية واستخلاص ما وضع من مصطلحات العلوم قديما .

(٢) استعمال الالفاظ القديمة للدلالة على المسميات الجديدة وان كان لها معنى لغوي معروف ، ويكون خاصا باصحاب الفنون والعلوم.

(٣) العودة الى الكتب العلمية القديمة والافادة مما فيها من مصطلحات موضوعة او معربة .

٤ ـ الاستعانة بوسائل نمو اللغة وتطورها .

ونتيجة لهذا الاستفتاء تبين للباحث ان الذين يرفضون التدريس بالعربية هم الذين لم يتصلوا بالحركة العلمية في العالم العربي ولم يتابعوا ما ينشر تاليفا وترجمة .

واجرى الباحث استفتاء اخر مع اساتذة العلوم في الجامعات فانتهى الى الحقائق التالية :

(١) لقد فضل الاساتذة تدريس العلوم بالعربية لهذه الاسباب الطلبة يكونون اكثر استيعابا للعلوم باللغة الام ، بل هم لايستوعبونها بدقة بغير لغتهم .

(٢) التدريس بالعربية يخفف من صعوبة العلوم ويزيد من قدرة الطالب على التعلم .

(٣) التدريس بالعربية يزيل الازدواجية بين لغة الطالب ولغة العلم .

(٤) العربية هي اللغة القومية ، وهي الاساس ، وفي ذلك احترام للناطقين بها .

(٥) التدريس بالعربية يساعد على نمو اللغة وتطورها لتستوعب متطلبات العلم والحياة الحديثة .

وتطرق الباحث الى حجج المعارضين للتدريس بالعربية فوجدها واهية وغير صحيحة (قلة الكتب العلمية ، عدم توفر معاجم ، عدم وجود ترجمة للكتب والبحوث العلمية ، بعض العلوم ما يزال في دور نشأته) .

ويؤكد الباحث على ضرورة العناية باللغات الاجنبية فالتعريب لا يعني القضاء عليها والتقليل من شانها . (يجب فتح معهد للغات في الجامعة يكون النجاح فيها شرطا اساسيا للحصول على الشهادة الجامعية ليلم الطالب بلغته وباللغة التي يريد اكمال تخصصه بها).

في نهاية البحث درس الباحث الاسس التي ينبغي الاعتماد عليها في التعريب فعددها باستعمال (١) المجاز ، وهو نقل الكلمة من المعنى القديم الى معنى جديد مع قرينة تدل على ذلك النقل .

(٢) الاشتقاق ويمكن التوسع به على ان لا تخرج على ذوق العربية واصولها .

(٣) الاقتراض وهو اخذ كلمة او اسلوب من لغة واستعمالها في لغة اخرى .

(٤) النحت ، وهو اخذ كلمة من كلمتين او اكثر .

(٥) الارتجال وهو وضع كلمات جديدة لم تكن معروفة او مستعملة من قبل .

(٦) التوليد (مثل جريدة ، طيارة ، سيارة) .

(٧) القياس ، وهو استنباط مجهول من معلوم .

وختم الباحث مقاله بايمانه باللغة العربية وضرورة التدريس الجامعي بها لصلاحيتها كلغة علم ولغة كرامة لامة وتوحيد الجهود في سبيل عملية التعريب على صعيد الحكومات العربية والمؤسسات العلمية والمتخصصين .

تعريب العلوم الطبيعية

وتحدث الدكتور محمد السويس عن ((تعريب العلوم الطبيعية)). فمهد لبحثه بتعريف لابن سينا عن الغرض من العلوم الطبيعية : وهو تحقيق رأي الانسان فيما يدركه من الواقع بواسطة سعيه وعمله، كما يعقد ابن خلدون في مقدمته فصولا للبحث في المحسوسات وعوارضها وهو العلم الطبيعي . وقد استمد العرب اولى معارفهم في هذه العلوم مما نقلوه من اثار اليونان والهند . ولكنهم لم يكتفوا بالنقل وانما اضافوا في الميادين العلمية اضافات اتسمت بروح البحث الحق والاكتشافات النظرية الجادة .

وما يهم في هذا البحث هو التعرض الى اسلوب العرب في نقل هذه العلوم من اللغات القديمة الى اللسان العربي . والباحث يؤكد ان الرجوع الى هذه الاساليب ما هي عملية تصنيم وانما هي وثائق تاريخية قد نجد فيها ما نحن بحاجة اليه .

اما الطرق التي اتبعها النقلة في العصر العباسي في العلوم الطبيعية فهي : ترجمة المفردات الاجنبية لفظا بلفظ . والمجاز والاشتقاق والتركيب المزجي والنحت والتعريب .

بهذه الطرق تم وضع مصطلحات المعجم العلمي في العهد العباسي فتيسرت سبل الكتابة والتأليف . واتسمت الابحاث بالدقة والرقة والوضوح ووسائل التفهيم وجمال اللفظ وتطريز الكلمات وعذوبة جرسها .

ولاحظ الباحث استعمال الجمل الاسمية في الناحية الاسلوبية للتعريف بالظواهر الطبيعية او لضبط القوانين الرابطة بين هذه الظواهر ، كما تستعمل الجمل الفعلية لوصف ما يقوم به الباحث من اعمال .

ويتطرق الباحث الى الوضع الحاضر ، فيقول ان المجتمع تغير ، فضلا عن سيطرة الاستعمار الذي كان عامل اجتثاث وتفكيك لاواصر الوحدة ونقض للاعتدال الاجتماعي .

وما تواجهه بلادنا في تطور النمو ، هذا السيل الجارف من الالفاظ الاجنبيه خاصة في مجالات العلوم والاقتصاد وعلاقتها بسلامة لغتنا . فمن داع الى نقل هذه الالفاظ برمتها الى العربية زاعما انها مصطلحات دولية وقائلا ان العبرة بالتواضع والفهم ، وممن متزمت رافض لكل دخيل يشوه في اعتقاده اللغة ،الى فئة تميل عن الفصحى زاعمة ان التخاطب في كل بلد هو قلب الحياة النابض ،فلا وزن يعتبرها ولا قاعدة نحوية او صرفية تحدد تراكيبها . ما موقف الكاتب العامي ازاء هذه الافتراضات ؟ هل يتخلى عن لغته المتوارثة مقتبسا قوالب الغير واوضاعه ، ام هل سيفرط في سلامة لغته متعنتا متنكرا للتطور ام هل سيتوسط بين هذين الطرفين مشتقا ما امكنه من اشتقاقه حسب الاساليب الخاصة بالعربية ومجيزا وناقلا عن لغات الاجانب اذا الجأته الضرورة الى ذلك ؟ هنا يؤكد الباحث اننا ، من جديد في مفترق طرق .

واهم ما يلفت الباحث النظر اليه في عملية التعريب التي

نواجهها التقيد بشرطين : طابع العلوم ، (وهذا ما يدفعنا الى الاخذ بجميع الثقافات والعلوم . والانفتاح على العالم) وطابع الخصوصية (المتمثل باللغة ، وهي رمز الشخصية ، ورمزالقومية).

التعريب في الاسلام

وقدم الدكتور شاكر مصطفى دراسة يمكن اعتبارها من أهم المراجع التي تؤرخ مرحلة التعريب في الاسلام حتى اواخر القرن الثالث الهجري . تتحدث عن المعجزة العربية او مجموعة العباقرة الذين خرجتهم مدرسة محمد بن عبدالله (ص) .الذين قادوا خروج الشعب العربي الى دنيا الناس ليس فقط بالفتوحات وانما أيضا بالرسالة المدنية التي بشروا بها ، والتي كانت دينا حضريا رفض البداوة تنظيما وحياة وفكرا والارتباط بالمدنية .

بدا العمران في أيام عمر . وحين اتى بعلماء النسب والاخبار لوضع اسس الديوان كان عمليا يؤسس علم التاريخ العربي ،وحين طلب من الحكماء ان يصفوا له الممالك واهويتها ومساكنها وتربتها، كان هذا أول حظ في علم الجغرافيا العربي . ولم يجد الفاتحون العرب اية غربة او تنافر مع عالم اولئك الذين ظلوا قرونا يعزلون الفلسفة والطب والنجوم والالهيات والعلوم . كأن يكفي كسر حاجز اللغة لتنطلق رسالة الاسلام .

ودرس الدكتور مصطفى المميزات الحضارية للمدن التي فتحها المسلمون وقسمها الى دارتين ثقافتين : الدارة المسيحية في الغرب والدارة الزرداشتية في الشرق وتتطابق الدارتان وتلتقيان في ما بين النهرين حيث يقوم خليط من الثقافتين .

الدارة المسيحية كانت هلينستية الفكر سريانية اللغة ، نصرانية الدين ، وكانت تعيش ازهى عصور النشاط الفكري السرياني وقد امتلأ بالترجمة والتأليف والتعليق الفلسفي والجدل الديني . وكان لها مركزان .

في الغرب الاسكندرية : التي عرفت الافلاطونية الحديثة وصوفيتها في الميتافيزكية والمذهب اليعقوبي وشغفها باللاهوت واغراقها في مباحث الطب والكيمياء والفلك ، وكانت تربط ما بين العلم برباط من السحر والطلسمات والتنجيم . وقد عرف العرب من هذه المدرسة افلوطين ويوحنا فيلوپونس وبولس الاجانيطي .

وفي الشرق جنديسابور وهي في ارض فارسية زرادشتية الدين ومع ذلك كانت مركزا ثقافيا هلينستيا ، توافد اليها فيما بعد الاساتذة المسيحيون والعلماء الهنود . وقد انصرفت جنديسابورللطب. والتيار العلمي الطبي رفد العربي منها .

وهناك مراكز اخرى ومدن (كانطاكية) حملت مهمة ترجمةالتراث اليوناني الى السريانية .

وهناك جماعات اخرى كالصابئة في حران وهم من عبدة النجوم والجماعات اليهودية ومشاركتهم كانت في الفلسفة وفي الطب كممارسة ثم المجموعة العلمية في الاسكندرية (عرف العرب منهم يحيىالنحوي، والقوالبي) ولم يكن لهذه المجموعة تأثير كبير في الفكر العربي لان ثروتها العلمية كانت باليونانية فاندمج تأثيرها الخاص بالتأثير الاغريقي العام .

الدارة الشانية : ما بين وادي الرافدين الى فارس وخراسان والجماعات الفارسية بهاوية اللغة ، زرادشتية الدين في الاساس ، تأثرت فيما بعد بالمسيحية النسطورية ، ثم بالمانوية ، او «الزندقة» ثم بالمزدكية . وقد اثرت جميعا في العرب .

ثم تطرق الدكتور مصطفى الى الاطوار التي مر بها التعريب بعد الفتح العربيفقسمه آلى :

الطور الاول (خلال القرن الاول للهجرة . الفتح العربي الاسلامي. بالرغم من انه يحمل دينا جديدا ولغة جديدة وحكما سياسيا جديدا الا انه لم يدخل اي تأثير سلبي على الحياة الفكرية للسكان الاصليين. بل تابعوا دراساتهم وتأليفهم وما لبث العرب ان انفتحوا عليهم واستفادوا من علمهم ومعرفتهم (وقد عدد الباحث اسماء الكثيرين من اللاهوتيين المسيحيين من رجال الدين .) كما ان تنظيمات الصابئة ظلت قائمة وقد اشتهر منهم الكثير من الكتاب) .

وتطرق الباحث الى العوامل التي جعلت التحرك نحو تعريب العلوم امرا حتميا ، من التقارب الاثنولوجي الذي سهل عملية التعايش بين اصحاب الثقافات القديمة والوافدين الجدد ، والتقاربالغوي بين العربية والسريانية ، وتوفر الثقافات القديمة محليا واستمرار وجودها وتطورها في الحكم العربي الاسلامي واستعداد ممثليها لترجمتها ، وانتشار اللغة العربية ، والجدل والتحدي الفكريالمتبادل بين العقيدة الاسلامية الصافية وبين الثقافات المتفوقة فيادوات الفكر والمنطق والفلسفة ، ورغبة الخلفاء خاصة في الاطلاع على علوم الاولين ،والحاجة العملية لبعض المعارف كالطب والفلكوالتاريخ، وايمان العرب المسلمين بمقولتين اولهما : الاسلام لا يناقض العقل وان العقل يتمم الايمان وثانيهما ان التبحر في معرفة الاولين يفيد حياتنا .

في هذا الطور الاول لم تشكل حركة التعريب بالنسبة للمسلمين اية مشكلة فكرية . فقهية . وفي الطور الثاني اتسم القرن الثاني الهجري بالتعريب الواسع . واستمر قرنا كاملا . وكانتحركة الترجمة تتسم بالميزات التالية :

١ ـ تعريب كتب الفلسفة اليونانية مع كتب العلوم (عنالفارسية والهندية) . والدافع ان الصدمة التي احدثتها « الفلسفة » على الفكر الاسلامي حتى اتهم بعض الفلاسفة المسلمين بالزندقة قد ضعفت امام احتياجات العصر ، فترجمت الكتب الفلسفية . وكتب التاريخ والقصص وكلها عن الفارسية ، وفتح باب التعريب عن الهندية (كتب التنجيم ثم كتب الطب والديانات في ايام البرامكة)وقد فتح يحيى بن خالد البرمكي مستوصفا تخصص في طب الهند ، وترجموا الكثير من الكتب الطبية .

اما التراث اليوناني ـ السرياني اللغة فقد ظل نشطا كتابة وترجمة وتأليفا . على ان المثقفين السريان والاغريق اتقنوا العربية والفوا بها حتى حلت العربية مكان السريانية كلغة حياة وحديث وعلم ونحو . (النساطرة كانوا اكثر نشاطا من اليعاقبة . وحركة التاليف بل حركة التعريب لم تكن سوى الواجهة الظاهرة للحركة الثقافية النسطورية داخل المجتمع القديم) .

وقد قسم الباحث المعربين الى جماعتين .

الجماعة الاولى الرسمية : جماعة التعريب للخاصة ، من عهد المنصور الى عهد الرشيد ، وخلال هذه الفترة اضحى التعريب في مجال الطبابة ،والتنجيم مؤسسة رسمية ومطلبا حكوميا ، وانشئت دوائر للترجمة ومكتبات (خزانة الحكمة) وكان من نتائجهذا الاهتمام الرسمي ان اضحت الترجمة « صفة ارستقراطية » وباب رزق للنصارى وللفرس .

(٢) الجماعة الثانية : جماعة التعريب العام : لو اقتصرت عملية الترجمة فقط على الخلفاء ورجال الدولة والمترجمين ، لكان من الضلال التحدث عن « تعريب » « وتمازج ثقافات » وانقلاب فكري . ان ما يجعل لهذا العصر العباسي مكانة هو تلك الجماعة الواسعة جداً ، والمجهولة التي عملت في التعريب .

ثم ذكر الدكتور شاكر مصطفى ثلاثة ملامح لبيان ابعاد هذه الثقافة.

(١) تكونت في هذا العصر العلوم العربية الاسلامية ووصفت كلها بكافة اسسها ، ونظمت اللغة في معاجم . ووضع الفقه الاسلامي المحكم ، وقام علم الكلام وهي امور ليس يكفي الذكاء الحاد والفهم اللغوي والفكر المفرد في اقامتها ، ثمة منطق منظم وتفكير منهجي وقياس

وتحليل وتعليل واستقراء وراء كل تلك الجهود .

(٢) ان الناس في ذلك العصر لم يعرفوا الطب والنجوم والفلسفة وحدها عن طريق التعريب ، ولكنهم عرفوا أيضا ، الكيمياء والرياضيات والجغرافيا والهندسة والموسيقى والميكانيك ، وعرفوا الكثير من كتب الطب والفلسفة لم يعرفها الحكام ، ولكن عرفها العديد من ابناء الشعب . فقد كانت حركة التعريب اشبه بخلايا في العمل الدائب يقوم بها مئات من المجهولين الذين كان الرهم اوسع وابعد عمقا من المعلومين.

(٣) ظهور عدد من العلماء والمؤلفين بالعربية في علوم الاولين . ومن الظواهر التي تلفت النظر والتي لا يفسرها الا وجود قاعدة ثقافية متينة من علوم الاولين بين ايدي الناس ان يظهر في عصر الرشيد والعصر الذي تلاه اثنان من اقطاب الفكر العلمي والفلسفي في تاريخ الحضارة الاسلامية ، هما جابر بن حيان ويعقوب بن اسحق الكندي .

اما الملاحظات الاساسية على هذا الطور الثاني للتعريب فقد لخصها الدكتور مصطفى في ست نقاط :

١ ـ ظل التركيز في التعريب على العلوم العلمية خاصة .

٢ ـ كان التعريب يتبع احيانا كثيرة الاهواء والحاجات التي تهم لاقطاب المجتمع العباسي .

٣ ـ تركزت عمليات التعريب في بغداد والعراق .

٤ ـ لم تكن العربية ملائمة بعد لحاجات العلوم والفلسفة . وقد اعيرت الكلمات الفارسية الى العربية لقربها منها بالاضافة الى بعض المصطلحات الاغريقية .

٥ ـ لم تكن قد توحدت بعد قدرة المترجمين على الاداء الكامل للمعاني والمصطلحات القديمة . (لذلك اعيدت او صححت هذه الترجمات في الطور الثالث) .

٦ ـ تعريب الكتب سبقه تعريب المترجمين ، فالعربية هي لغة الدين الجديد ولغة الحكام .

اما الطور الثالث للتعريب فهو التعريب المنظم الذي كاد يبتلع لشهرته جهود الطورين الاولين . اما عمل المامون في عصر الترجمة هذا فلا يمكن ان يؤخذ على انه اكثر من رمز للعصر . فقد كان تشجيعه للعلماء ، في جانب كبير منه ، عملا سياسيا اكثر مما هو علمي . وكل ما فعله ـ في هذا المجال ـ ، انه وسع دائرة الترجمة الموجودة في البلاط العباسي فجعل من مهمة « خزانة الحكمة » واصحابها تعريب الكتب الفلسفية ايضا كما شجع المترجمين وقيل انه كان يدفع في الترجمة وزن الكتاب ذهبا ، ورصد لهم جوائز بعشرات الوف الدنانير.

الواقع أن عصر التعريب الحقيقي انما قادته جماهير المتعلمين والمترجمين الواسعة وقادته عبر عهد المامون في عهد المعتصم والواثق والمتوكل . وقد استوفى اهم اغراضه : ادخل الى العربية اهم ما في تراث الاوائل من امهات المؤلفات ، الفلسفية والعلمية والقصص وجعلها بلغة عربية فصيحة .

ويتساءل الباحث عن حصاد التعريب وملامحه في اطواره الثلاثة فيجد :

(١) ان العرب قد ترجموا عن اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية في الدرجة الاولى كما ترجموا عن النبطية واللاتينية والعبرانية والقبطية وهي كل اللغات الحضارية في هذا العهد (ما عدا الصينية) .

(٢) اكثر ما ترجم عن اليونانية والسريانية هي كتب الطب والفلسفة والرياضيات والنجوم والكيمياء والفلسفة والهندسة والحيل والموسيقى. وندر ان ترجموا الادب .

(٣) اهم الكتب المترجمة عن اليونانية هي كتب افلاطون وارسطو وابقراط وجالينوس واقليدس وارخميدس وابرخس وابولونيس وفيثاغورس .

(٤) عن الفارسية (٢٠ كتابا ترجم النصف منها ابن المقفع) في الطب والنجوم والخرافات والاحاديث والحكمة .

(٥) شمل التعريب ايضا مجموعة المعارف التي كانت تملكها الشعوب التي وصلها النظام العربي الاسلامي .

(٦) التراجمة في كثرتهم من غير العرب ، ولكنهم عربوا انفسهم قبل ان يعربوا الكتب . واصبحت الترجمة « حرفة » وعملا « وراثيا ».

(٧) بالرغم من جميع الجهود التي بذلت لم يستطع العرب ان يترجموا كل شيء : (مثلا الادب الاسطوري اليوناني . اعرضوا عنه لاعتزازهم بادبهم العربي) .

(٨) بذلت في الترجمة جهود مضاعفة جعلت العديد من الكتب يترجم اكثر من مرة ، او يصحح .

(٩) دخل التراجمة باللغة العربية دنيا العلم والفلسفة . فغيروا طابعها البدوي لتصبح لغة حضارة كاملة . وقد اغتنت اللغة بالمصطلحات المبتكرة والاجنبية حتى بدأت تظهر مؤلفات عربية في العلوم .

(١٠) استيعاب العرب لهذه التيارات الثقافية الاجنبية حتى كونوا لانفسهم حضارة خاصة مميزة .

وختم الدكتور مصطفى بحثه قائلا ان بنية الثقافة العربية الاسلامية التي كانت بالضرورة احادية التركيب اضحت بعملية التعريب بنيهة متعددة العناصر ، شاملة المستوى تلخص وتتجاوز في وقت واحد حضارات العالم القديمة كلها .

توصيات ندوة التعريب

بدعوة من مجلة « الثقافة العربية » التي تصدرها المؤسسة العامة للصحافة ، وبرعاية الاخ العقيد معمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة بالجمهورية العربية الليبية . عقدت « ندوة التعريب » من ١٣ الى ٢١ من المحرم ١٣٩٥ هـ الموافق ٢٥ يناير الى ٢ فبراير ١٩٧٥ م. بمدينة طرابلس .

وقد شارك بجهود مخلصة في اعمال هذه الندوة عدد من المعنيين بقضايا اللغة والتعريب من ارجاء الوطن العربي كافة ، من علماء ومفكرين ونقاد ، وممثلين للهيئات والمؤسسات الثقافية والعلمية العربية والصحفيين بالجهود المخلصة .

وقد ابدى اعضاء الندوة اعتزازهم وتقديرهم لما تقوم به ثورة الفاتح من سبتمبر في مجال تصعيد الثورة الثقافية ، وبناء فكر قومي تقدمي واع تبرز من خلاله عناصر الاصالة في الثقافة العربية، وتتبلور الشخصية القومية للانسان العربي ، ليسهم الاسهام الفعال في الحضارة الانسانية ، ويتفاعل التفاعل الايجابي مع المعطيات الحضارية للعصر ، دون التفريط بأصالته القومية ومقوماته الحضارية المستهدفة فكريا وثقافيا بغزو لا يقل خطرا عن الاستلاب الاقتصادي والسياسي الذي مارسه الاستعمار ، وما يزال يمارسه في الوطن العربي .

وفي اطار هذا التفكير القومي التقدمي يبرز الشان الكبير الذي تاخذه قضية التعريب باعتبارها معركة حضارية ومن اخطر معارك الحياة العربية الراهنة التي لا بد ان تجند لها الامكانيات المادية والفكرية كافة .

وان اعضاء الندوة ليعربون عن عظيم تقديرهم للمشاركة الفعالة التي تفضل بها الاخ ـ العقيد معمر القذافي فيما ابداه من ملحوظات ايجابية خلال حواره المفتوح معهم . وذلك انطلاقا من التزاماته الثورية في بناء الشخصية القومية الاصيلة ومن ايمانه بقدرة الامة العربية على العطاء الحضاري المتطور ، شانها اليوم شانها بالامس.

وبعد أن تدارس اعضاء الندوة المشكلات المطروحة امامهم من جميع

وجوهها ، سواء ما تعلق منهـا بمفهوم التعريب او مؤسساته القائمـة واعمالها ، او دور وسائل الاعلام فيه ،

وبعد ان اطلعوا على التجربة العميقة التي خاضتها الجزائـر ـ وما تزال ـ في سبيل التعريب ، فانهم ، مع ادراكهم بأن السبيـل الامثـل لتحقيق التعريب على الوجه الاكمل ينبغي ان يكون من خـلال تحقيق الوحدة العربية بمضامينها التقدمية ، يوصون بما يلي :

١ ـ توحيد الجهود العلمية التي تبذلها المجامع اللغوية والعلمية العربيـة بوصفهـا قوامة على صيانـة اللغـة العربية وتنميتها .

٢ ـ (أ) العمل على انشاء مجمع عربي واحد على مستوى الوطن العربي يتولى تنمية العلوم والاداب وتنسيق الجهود المبذولة فيالبحث العلمـي والتعريـب .

(ب) الى ان يتم انشاء المجمع العربي الواحد المذكور في الفقرة السابقة ـ واعدادا له ـ تقوم الاقطار العربية ـ مجتمعة او منفردة ـ بانشاء مراكز تتولى البحث والدراسـة والتخطيط لعمليـات التعريب والترجمـة وتوحيد المصطلحات .

٣ ـ دعم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربـي بالرباط والتابع لجامعـة الدول العربية لتثمر جهوده في مجالالتعريب وذلـك بأن توفر لـه الامكانيات المادية والبشرية والعلمية .

٤ ـ الطلب من القيادات السياسية في الوطـن العربي اصدار القرارات اللازمة التي تجعل اللغـة العربيـة لغـة التعليم في جميـع مراحله وانواعه وخاصة في التعليم الجامعي بكل فروعه ومستوياته .

٥ ـ (أ) الاشادة بالجهود التي بذلتهـا وتبذلهـا الجزائـــر الديمقراطية الشعبية في التعريب وبالنتائج الباهـرة التـي حققتهـا وتاييـد الخطط المعدة للمستقبل لتحقيق التعريب الشامل في وقت قريـب .

ب ـ التوكيد على ان ما قامت به الجمهورية الجزائرية وتقوم بـه خدمة للغـة العربية في الجزائر وفي الوطن العربي كله على حد سواء وان واجب العامليـن في حقل اللغـة العربية ـ ومنهم اعضاءالندوة ـ ان يضعـوا خبراتهم وجهودهم في خدمة هذه القضيـة وهم يدعـون جامعـة الدول العربية والمؤسسات العربيـة العلميـة للمشاركـة فـي هـذه الجهـــود .

(ج) تاليف كتـــاب واف مدعم بالوثائق والاحصاءات عن التجربة الجزائرية في التعريب ، يترجم الى اللغتيـن الفرنسية والانجليزية ، لكي تفيـد منه بعض الاقطار العربيـة التي مـا زال التعريب فيهـا جزئيا ، والدول الافريقيـة والاسيوية التي تحررت والتي ستتحرر من الاستعمـار والتي تواجه مشكلات شبيهـة بشكل او باخر بالمشكلةالتي واجهتهـا الجزائر منذ الاستقلال .

٦ ـ (أ) التوجه بالشكر والتقدير الى جمهوريـة الصومال لاقرارها اللغـة العربيـة لغـة رسمية للبلاد وجعلهـا الزامية في التعليم .

(ب) مناشدة القيادة السياسية الصوماليـة العمل على اعـادة كتابة لغـة البلاد بالحرف العربي لـمـا تحمله كتابتهـا بالاحرف اللاتينية من خطـر على اصالـة الصومـال وعلى تكوينهـا العربي والثقافـي العريـق .

(ج) دعوة جامعة الدول العربية والمؤسسات العربية الى دعـم جهـود الصومـال في تعليم العربية ونشرهـا في سائر مراحل التعليم.

٧ ـ مناشدة الاقطار العربية بأن تكثف جهودهـا في التعريـب فتجعله شاملا كـل النواحي العلميـة والاداريـة والاقتصاديةوالاعلامية والعسكريـة وغيرها .

٨ ـ (أ) ضرورة اسهام وسائل الاعلام والثقافـة كافـة في دعـم حركة التعريب وذلك بنشر الدراسات والبحوث والمقالات التي تعالـج قضايـا التعريـب .

(ب) ضرورة التزام هذه الوسائل باستخدام المصطلحات المعربة بغيـة اشاعتهـا وتسهيل تداولها .

٩ ـ (أ) الوقوف بقوة في وجه الدعوة الى العاميـة باعتبارها موقفا مشبوهـا يتنافـى مع الاهداف القوميـة .

(ب) التحذيـر من التوسـع في استخدام اللهجات العامية فـي جميع وسائل الاعلام واشكال التعبير والاداء .

فضلا عما سبق تتقدم الندوة بالتوصيات التاليـة ، آملـة ان تضعهـا القيادات العربيـة جميعـا موضع التنفيذ السريع وهي :

١ ـ القيام بمسح للرصيد اللغوي العربي في الحياة البيتيـة واليوميـة وفي الحرفوالصناعات اليدوية والزراعيـة بغية اقرار ما كـان منه عربيـا في اصله او بنائه ، واشاعة استعماله في مجالات التعبير والتعليم والاعلام كافة .

٢ ـ (أ) دراسة امكان توحيد المصطلحات بالطيران والنقل البحري والبري وتعريب ما ليس منها معربا .

(ب) الالتزام باستعمال المصطلحات العسكرية التي يتم تعريبها .

٣ ـ العمل على تعريب وتوحيد اسماء المقاييس والمكاييل والموازين والعملـة والتقاويم في الوطن العربي .

٤ ـ انشاء مركز لتراث الوطن العربي قديمه وحديثه يجمع هذا التراث بكـل الوسائل الممكنـة وتيسيـر الافادة منه للعلمـاء والباحثين وحفظـه وتناوله بالدراسـة العلميـة وتحقيقه ونشره .

٥ ـ ان تنبثق عن هذه الندوة امانـة قوميـة عامة للتعريب تتكون من مكتب دائم يمثل الاقطار العربية ومهمته :

(أ) فتح الحوار الدائم والمستمر في مجال التعريب بيـن الادوات الاعلاميـة والثقافيـة والمجامع العلميـة والجامعات العربية .

(ب) تكرار اللقاءات والندوات ونشر الدراسات العلميـة حوله لتاخذ معركـة التعريب ابعادهـا الحقيقية والمنتجـة لدى الانسـان العربـــي .

(ج) يتولى التحضير لاقامة هذه الامانة القوميـة كما يتولى مهامها الى ان يقام مكتب مؤقت .

وقرر اعضاء الندوة :

١ ـ ارسال برقية شكر وتقدير الى الاخ العقيد معمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة بالجمهورية العربية الليبية .

٢ ـ ارسال برقية للاخ هواري بومديـن رئيس جمهوريـة الجزائر الديمقراطيـة الشعبية بتقدير الجهود التي بذلت ومـا تزال تبـذل في سبيل التعريـب .

٣ ـ ارسال برقية الى الملك الحسن الثاني ملك المغرب لتوفيـر الدعم المادي والمعنوي لمكتب تنسيق التعريب التابع لجامعة الـدول العربيـة بالرباط .

٤ ـ ارسا برقية الى محمد سياد بري رئيس جمهورية الصومـال لاستخدام اللغة العربية واحرفها .

٥ ـ ابلاغ الاميـن العام لجامعة الدول العربية بتوصيات هذه الندوة مـع رجاء العمل على ابلاغها للاقطار العربية الاعضاء بالجامعة، والمساهمـة في انجاح تنفيذهـا .

٦ ـ برقيات الى المجامع العربية في بغداد ، دمشق ، القاهرة ، لتوحيـد جهودهـا .

٧ ـ ابلاغ مكتب تنسيق التعريب بالرباط دعم الندوة لهوتوصيتها فـي ذلـك .

شفيق مقار

في جذور الشر

الذئب الآتي من الأله

د. ستيورات عن هرتسل

— ١ —

اشياء يجب، منذ البداية، ان تقال

التقيت بدزموند ستيوارت بالقاهرة مرتين، في العام الماضي، مرة بمكاتب وزارة الاعلام بماسبيرو، ومرة اخرى، بعدها بشهور، في محل لاباس، وكان ذاهبا — فيما اذكر — الى اليمن. وفي المرتين دار الحديث اساسا حول شيء واحد: كتاب كان آخذا في تأليفه، عن تيودور هرتسل. وكل من خبر حرفة الكتابة يعرف، ولا شك تلك الحالة التي كثيرا ما تجعل الكتاب اكثر خلق الله اثارة للملل، اذ لا يكفون — من فرط تسلط ما يكونون آخذين في العمل به او ابرازه مدادا، على اذهانهم، وما يولده ذلك التسلط من اخيلة وأوهام، ووساوس وشكوك — لا يكفون عن الثرثرة به، متصورين ان السامع لا شاغل له في حياته الا ذلك الذي يصدعون به رأسه. لكن دزموند ستيوارت، فيما بدا لي، كان وهو يلف ويدور ويعود الى الحديث عن هرتسل، نهب احساس اخر. واذكر أن الحديث جرنا، بطريقة ما، الى غسان كنفاني، وميتته الفظيعة في بيروت. وقد نظر الي ستيوارت لحظتها وقال انه لا يظن ان اليهود سوف يروقهم كثيرا ما يقوله هرتسل. ومن هناك تطرق بنا الحديث الى ترجمته لقصيدة من قصائد البياتي عن النكبة، والى تفضيله الاقامة في قبرص على الاقامة في عاصمة عربية لانه لا يحب ان تعبث يد ببريده فتفتحه.

وقد عاودتني كلماته، ونبرته المغمغمة اللاهية بعض الشيء التي يجيد بنو جلدته استخدامها عندما يوافقهم ان يجعلوا ما يتحدثون عنه يبدو بسيطا، ومن امور كل يوم، وانا افتح بفصول كتابه، وقد صدر اخيرا، وتطالعني في مستهله هذه الكلمات:

« تملكني الطموح الى كتابة سيرة جديدة لتيودور هرتسل، في عام ١٩٧٠. وكنت وقتها قد انتهيت من تأليف كتابي « معبد جانوس » وهو تاريخ للشرق الاوسط من افتتاح قناة السويس، حتى اليوم. ولقد بدا هرتسل — بين الشخصيات الرئيسية المؤثرة في القرن والاقاليم اللذين اخترت الكتابة عنهما، من الخديوي اسماعيل، والسلطان عبدالحميد، الى كمال اتاتورك، وجمال عبدالناصر — اكثر تلك الشخصيات غموضا واثارة للاهتمام. فالرجل الذي توصل الى الربط بين المفهوم الغربي للدولة واحلام اليهود المسيانية قد ظل مبهما كأيقونة رسمت على زجاج ملون. وهذا الكتاب — لذلك — محاولة للاسهام في المناظرة الدائرة حول الحركة السياسية التي ارتبط اسمه بها، بل لاكتشاف الكائن الانساني الذي عاش من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٩٠٤، والذي جمع في شخصه، بدرجة فريدة، بين رجل الاحلام، ورجل الافعال.»(١).

وقبل ان نتناول الكتاب الذي جر ستيوارت اليه طموحه، هناك بضعة اشياء يجب ان تقال. اولها ان الكتابة عن اليهود في اوروبا الغربية، وفي بريطانيا بوجه خاص، اشبه بالكتابة عن الله وانبيائه في العالم العربي، عملية محفوفة بأفظع المهالك. وحقيقة انه لا يعلم خبايا النفوس والعقول الا علام الغيوب، لكن الظاهر المرئي ان كتلة صلدة كبيرة لا تتزحزح ولا تلين من الفكر الاوروبي الذي يؤثر في عقول الكافة تتخذ منطلقها الاساسي من ايمان حار بان اليهود كانوا وما زالوا على حق، وكل من عداهم من خلق الله كان وظل وسوف يكون دائما على باطل. ولنذكر ونحن نقول ذلك ان اول دعوى من دعاوى اليهود تقول انهم « شعب الله المختار »، اي انهم — كما كان الالمان يقولون عن انفسهم في ظل النازية وحاربهم العالم كله ليجعلهم يبتلعون ما قالوا — شعب « فوق الجميع ». وببساطة، يعامل الاوربيون، وخاصة الانجليز، اليهود باعتبارهم كذلك فعلا. وقل ما شئت في ذلك الضرب من البلاهة الانسانية والشبق الى الانسحاق الذي يشبه خرف الشيخوخة لدى شعوب يبدو انها باتت مشرفة على ختام ايامها، بل وقل ان الاوربيين والانجليز بخاصة سيجدون انفسهم ذات يوم (قد لا يكون بعيدا كل ذلك البعد) واليهود جالسين فوق وجوههم. لكن ذلك لا يغير من واقع الامر شيئا، وواقع الامر ان اليهود توصلوا الى ان يجعلوا انفسهم — بالنسبة الى اولئك الناس — كائنات عليا، ويجعلوا الكتابة او الحديث عنهم عملية محفوفة بالمهالك. والانجليزي العادي، رجل الشارع « الكوكني » المسكين، لا تكاد تقول « يهود » امامه حتى ينظر وراء من فوق كتفه. فما بالك بالكتابة عن هرتسل ذاته؟

والامر الثاني الذي يحسن الا يغيب عنا ونحن ننظر في الطريقة التي خاض بها ستيوارت في تلك « السيرة العطرة » ان اليهود — فيما يتعلق بالعقل الاوربي — باتوا يجلسون الان مضطجعين بارتياح بين منطقتين من ضباب عاطفي لا سبيل الى التعامي عنه او الانتقاص من فعاليته الهائلة في مجالات الشوشرة على العقول، واصابة الاذان بالصمم، والعيون بالعمى. فوراءهم الان حائط صلد اشبه بسور الصين العظيم قدت احجاره من الاعيب الحواة والتسلل الى عقول الاوروبيين بالخديعة والمسكنة والمكر والتظاهر بالطيبة والذل والانسحاق

(١) الصفحة السابعة من التصدير.

والاستشهاد ،عبر تاريخ طويل بلغ ذروته بحكاياتهم مع النازية ،التي قد تتضح خباياها وتبين حقائقها ذات يوم اذا ما قدر للاوروبيين ان تخف قبضة اليهود الخانقة على عقولهم وافواه مؤرخيهم واقبية وثائقهم ، والتي احسنوا استغلالها في اصابة اولئك الاوروبيين ــ بعد محاولات استمرت قرونا باكملها ــ بعقدة ذنب فظيعة تجعلهم يبدون احيانا اشبه بقطعان متخلفة عقليا من صغار يسيل لعابهم على ذقونهم لمجرد قولك « معاداة السامية » بمحضر منهم . وغير ذلك السود العظيم من الاحساس بالذنب الاوربي تجاههم ، يجلس اليهود متربعين بارتياح على ادمغة الاوروبيين وامامهم ، كالدرع المتين ، تاريخ اخر طويل ، تاريخ كراهية الاوربيين للعرب ، ونفورهم منهم ،وازدرائهم لهم . تاريخ مسموم ضارب في القدم ، منذ قرصنات الحروب الصليبية وحروب التجارة التي خاضها الاوربيون مع العرب قديما ، زادته سما حروب التحرير والتاميم التي خاضها العرب مع الاوروبيين حديثا ، ويحاول اليهود الوصول به الى قاع جحيم مستعر من المقت والحقد والرغبة في الشل من خلال محنة التضخم ، والازمة الاقتصادية، وازمة النفط .

والامر الثالث ، وليس الاخير ،الذي يحسن ان نذكره ،انه بينما بعدت الشقة الحضارية بين العرب والاوربيين ، عرف اليهود كيف يتعاملون مع الحضارة الصناعية للاوروبيين ، وعرفوا كيف يجعلون من كل عالم او فنان يهودي علما من اعلام نهضة الغرب وتقدمه ، فتوحدوا بالعالم الغربي ، واسبغوا هويته عليهم ، واسبغوا هويتهم عليه .

مولد الذئب

كما تقول معظم الاساطير التي ابدعها الخيال الانساني حول القديسين والمبعوثين من عند الالهة والابطال وصناع الخوارق والمعجزات ان اولئك البشر « المتفوقين او انصاف الالهة » قد سبقت مجيئهم الى الارض وواكبته او اعقبته علامات ونذر ، تقول اسطورة هرتسل التي يستقصيها دزموند ستيوارت ليجلو حقيقة الصورة التي ظلت اشبه « بايقونة رسمت على زجاج ملون » ان مولد الذئب(وولف)، هبة الله (تيودور) هرتسل سبقته وواكبته واعقبته نذر وعلامات كثيرة .

« كانت بلدة « بست » مسقط راس ملائما لرجل من ابرز من انجبه عصره ، كان المحرك الاول لمغامرة من احفل مغامرات القرن العشرين بالمخاطر . ولقد تصادفت مع مولده احداث ذات اهمية رمزية ». (ص ٤) .

لم تزلزل الارض ، ولم تبرق السماء وترعد ، ولم تظهر في الافق نجوم او شفق احمر ، او شيء من هذا القبيل ، لكن وقعت احداث ذات اهمية رمزية .

حملت « بهبة الاله » امه جانيت ، لابيه يعقوب هرتسل ، خلال السنة التي فتح فيها المعبد اليهودي الكبير ابوابه، بعاصمة المجر . فكان مولده ، اذن ، كان ايذانا بصعود نجم اليهود . فالواضح ان اولئك اليهود ، الذين كانوا يمثلون حوالي واحد على عشرين من اجمالي عدد سكان المجر (ص ٩) امتلكوا من ثروة المجر ما مكنهم من اقامة ذلك المعبد ، في سنة ١٨٥٩، بكلفة جسيمة ــ بمقاييس ذلك الوقت ــ بلغت ستين الفا من الجنيهات الذهبية . ومن فرط بذخ المعبد ، وارتفاع كلفته ، وصفه حبر متقشف بانه « نتاج غرور اناس اتخمهم الثراء وكظهم حتى لم يترك في نفوسهم مكانا للتواضع »ووصفه حبر اخر مجري تامرك فيما بعد بانه « اشبه بمركبة فاخرة من عابرات المحيط تمجيدا لله . »(ص ٤) ويقول ستيوارت ان بلدة « بست » التجارية ــ الصناعية الثرية ،التي اقيم فيها المعبد ، كانت تزداد ثراء من يوم الى يوم ، وان معبدها اليهودي ذاك كان ينتصب مزهوا على راس شارع طويل خصص لتجارة الطباق الذي كان ياتي من اراضي البلقان العثمانية . ولصق واجهة المعبد اليسرى كان بيت من ثلاثة طوابق ، يدور ــ راسخا ، بورجوازيا ، ناطقا بالثراء ــ حول فناء داخلي ، وكانه عالم مقفل على ذاته ، في ذلك البيت ،لصق المعبد ، على راس شارع الطباق ، ولد ابن يعقوب ، وسماه اهله بثلاثة اسماء : اسم مجري ــ تيفادار ، واسم الماني ــ فولف تيودور ــ واسم عبري ــ بنيامين زييف .

وكانما تمهيدا لمجيء هرتسل ، كانت المجر قد دخلت عصر الثورة الصناعية ، فوجدت ــ من جانب ــ الارض التي اتاحت لبني شعبه ان يرسخوا اقدامهم بطريقة ربما لم تتح لهم من قبل ، بين الشعوب التي عاشوا « في ضيافتها » رافضين ان يندمجوا او يذوبوا فيها، عن طريق توثيق رباط مصالحهم ــ كممولين اثرياء اساسا ــ بمصالح البورجوازية التي كانت آخذة في تسلم ادارة المجتمعات الاوربية من سادتها القدامى ، وكانت ــ بغير شك ــ في حاجة الى كل ما يمكن ان يزودها به المال المتوفر في ايدي التجار والمرابين اليهود من امكانيات تتيح لها تطوير سلاحها الفعال في معركتها مع السادة القدامى : الصناعة ، والتنظيم الراسمالي للمجتمع . وستيوارت لا يتناول بدايات زواج المصلحة هذا بين اليهود الذين كانوا قد كدسوا في خزائنهم ثروات لا يستهان بها من اموال الشعوب التي « استضافتهم » اتاحت لهم اقامة ذلك المعبد الباذخ وغيره ، وبين طبقة ارباب الاعمال من اصحاب المصانع والبنوك ، ذلك الزواج الذي ما زلنا نعيش نتائجه المأساوية في العالم العربي دون ان يكون لنا ذنب فيما يخصه (الا ذنب القبول بالفقر والتخلف والبقاء ، حتى عهد ليس ببعيد ، بعيدا عن مشارف العصر الذي اتاح لليهود عقد زيجتهم تلك) ، نقول ان ستيوارت ، وهو يستظهر « العلامات » التي « ظهر » في ظل رموزها هرتسل ، لم يتناول تلك الزيجة مواجهة او يحاول دخول دارها متسمما ربما بعض اسرارها العائلية ، بل اكتفى بالوقوف خارجا ، على الطوار الاخر ، متأملا ، بغير الحاح او كبير فضول ، سقوط النظام القديم ، وانتهاء عصر « المفهوم القديم للدولة (الذي قام) على ان البشر رعايا الحاكم المعين من قبل الاله »(ص.١٠).

ومن جانب اخر ، كانت المجر ، قبيل مولد هرتسل ، قد فتحت الباب ، ليهودها ان يدخلوا المجتمع الاوربي الصناعي البورجوازي الجديد منذ بداياته الاولى ، وان يدخلوه كقرناء وشركاء ، لا كدخلاء ومنبوذين . ومرة اخرى يشير دزموند ستيوارت الى الموضوع من بعيد، بغير الحاح او فضول ، فيقول ان المجر ظلت الى ما بعد خطوتها الاولى داخل عصر الثورة الصناعية (الذي تمثل توقيع صك دخولها اياه في اقامة القنطرة الكبرى المعلقة فوق الدانوب ، التي اتاحت توحيد بلدة « بست » ببلدة « بودا ») ظلت الى ما بعد ذلك الدخول بوقت طويل متشبثة بمجتمعها الارستقراطي القديم . ويشير ستيوارت الى ذلك من خلال ما يقوله عن اقامة « الكازينو الوطني » بعاصمة المجر ، لمحاكاة نوادي « البال مال » الانجليزية بلندن ، « لكن المجريين من الطبقة المتوسطة ، واليهود ، لم يكونوا محل ترحيب هنا »(ص٦). اي ان المجر ، وان اخذت في محاكاة نمط الحياة الانجليزية ، وبدات في استيراد الثورة الصناعية ، ظلت لامد متشبثة بارستقراطيتها القديمة . ولقد كانت مشكلة اليهود في تلك المجتمعات انهم وفدوا اليها ، دخلاء ، وظلوا دخلاء ، في ظل النظم الاجتماعية القديمة التي لم تفتح سبيلا امامهم الا ان يكونوا مرابين ومقرضين لنبلائها وسادتها ، وكما يقول تاريخ اوربا ، مثيرين للحروب بين ملوكها واباطرتها ، متربحين بالتجارة بين المتحاربين . فهم ــ كما يقول دزموند ستيوارت وهو واقف خارجا بباب « الكازينو الوطني » ببودابست ــ قد ظلوا خارج الابواب، الى ان جاءتهم الثورة الصناعية وما ترتب عليها من انتقال ادارة المجتمعات الاوربية التي غيرتها تلك الثورة من ايدي النبلاء والاقطاعيين الى ايدي اصحاب المصانع والبنوك

فاتاحت لهم ما لم يتح لهم عندما وفدوا على تلك المجتمعات فوجدوا انماط حياتها الثقافية والاجتماعية مستقرة ومقفلة في وجوههم، اتاحت لهم فرصة ان يبدأوا مع المجتمعات الرأسمالية الجديدة وهي وليدة بعد ، بوصفهم شركاء لمديريها وسادتها الجدد . ولقد استمرت هذه الشركة حتى الان . ولعل بلدا من بلدان العالم الرأسمالي لا تفصح فيه تلك الشركة عن طبيعتها وبنيتها ونتائجها كبريطانيا . وفي بريطانيا ايضا تفصح مفاهيم الليبرالية والديموقراطية الغربية عن كونها المنفذ الاخر الهام (غير المشاركة في التمويل واقامة المصانع والبنوك وشركات التجارة) الذي اتيح ليهود أوربا ليدخلوا منه الى حيث هم الان. وتلك زاوية يتناولها ستيوارت بشيء من التفصيل ، وان ابتعد عن التحليل واستقصاء ما هو اعمق من السطح المرئي :

« في سنة ١٨٤٨ ، بعد ثورة فرنسية جديدة ضد البوربون ، (وبالتحديد) في ٣ مارس من تلك السنة ، تفجرت في المجر ثورة تحت القيادة الملهمة للزعيم المجري لاجوس كوزوث الذي طالب بالحكم النيابي للمجر ، والحكم الدستوري لسائر بلدان امبراطورية الهابسبورج . وقد اطلقت مطالب كوزوث سلسلة من الثورات في النمسا ذاتها ، حيث اسقط مترنيخ ، وفي ايطاليا . وقد منيت حركة الاستقلال المجري بالهزيمة على يدي فوتيس : تحالف عقد على عجل بين النمسا وروسيا ، والمقاومة التي قوبلت بها افكار كوزوث من جانب التشيك ، والرومانيين ، والصرب ، في الجزء المجري من الامبراطورية. وهكذا استطاع النمسويون ان يعيدوا فرض سيطرتهم من جديد بينما هرب كوزوث نيقضي ٤٥ عاما في المنفى بتركيا ، وانجلترا ،وامريكا، وايطاليا . وكان كوزوث ـ خلال حكمه القصير ـ قد عمل على استمالة يهود المجر لقضية الماجيار باعلان عتقهم . غير ان ذلك العتق ، جنبا الى جنب مع حرية المجر ، انتكس مؤقتا على ايدي الهابسبورج المنتصرين » (ص ٩)

والقصة واضحة . وربما ـ لتوضيحها اكثر ـ يستطرد ستيوارت قائلا ان السنة التي ولد فيها هرتسل كانت حقيقة نقطة محورية في التاريخ الاوربي الحديث ، فقبل ذلك بسبعين عاما ، كانت الثورة الفرنسية قد اعلنت حقوق الانسان واكدت « ان البشر يولدون ويظلون احرارا ومتساوين في الحقوق ، وان ضروب التمايز الاجتماعي لا يمكن ان تقوم الا على اساس المنفعة العامة وحدها » . (ص ١٠).

عهد الاله وختان اليهود

يبدو من كتاب ستيوارت ان نبوغ بني جلدته في اختيار الطريق الوسط هداه الى مخرج بارع من مأزق ما من شك في انه تحلى بقدر كبير من الشجاعة الادبية ليقبل اصلا بالدخول فيه . ومن ناحية الصنعة ، يمكن القول اجمالا ان اختيار الكاتب لطريق الحل الوسط افاد كتابه ولم يضر به . ولكن يبقى المضمون الفكري ، ويبقى ان نستوضح من خلال قراءتنا للكتاب مدى تاثير ذلك الحل عليه : هل انتقص من قدرته على التكلم بالحق ، ام اتاح له ان يصل من الطريق الممكن (بالنسبة لكاتب اوربي) الى الصدق الصعب ؟ والحل الذي اختاره دزموند ستيوارت متمثل على طول الكتاب وعرضه في لوذ الباحث في التاريخ الحديث وكاتب السيرة ـ ابتغاء للسلامة ، ربما ، او قبولا بالممكن ـ بصنعة الروائي وحفوقه قبيل قارئه . وباختصار ، يعمد الكاتب الى الاضمار والايماءة (التي قد تكون دائرية احيانا) بدلا من الجهر والتحديد ، ويختار وصف السطح تاركا للقارئ استشفاف ما يريد ذلك الوصف قوله ، كأي روائي يوقفك على ما يدور داخلا ، بأعماق النفوس ، عن طريق سرد الافعال ، ووصف المرئي خارجا ، واجراء الحوار بين الشخوص . والاسلوب ، في ذاته ، ممتع ، ويغري القارئ (وقد يضطره ، في مواضع بعينها) الى اعادة القراءة، وبالتالي تعمق المعنى الذي يرمي اليه الكاتب بشكل يفوق ولا شك ما يحققه الاسلوب التقريري المباشر . ولقد نرى ان ذلك كله من قبيل اللف والدوران فيما لا مجال فيه للف او دوران ، ولقد نرى ايضا ان الاسلوب اسلوب تعمية وابهام يتسم بالبراعة والخبث اكثر مما يتصف بالدقة والوضوح والتحديد ، اسلوب يتيح للكاتب ان يطالع كل جانب بوجه ، وان يدع كلا يقرأ في كتابه ما يوافقه او ما يتفق مع ما يريد ان يأخذ به من افكار . ومما قد يؤيد ذلك ، الاستقبال الحسن الذي استقبل الكتاب به في الصحف الاميركية ، على النحو الوارد بظهر غلاف الطبعة الانجليزية . وكما قلنا ، ليس امامنا الا ان نذهب مع الكاتب وكتابه الى نهاية الشوط قبل ان يتاح لنا ان نقطع في شيء من ذلك برأي . وخذ مثلا حكاية الختان (المتعة بحق) التي شغلت حيزا هاما من الفصل الثاني بالكتاب. ما الذي اراد ستيوارت قوله من خلالها ؟ .

يقول الكاتب ان الختان ـ باعتباره من الطقوس الدينية ـ اكثر قدما من العماد عند المسيحيين ، وان شعوب الشرق الاوسط كانت تمارسه من قبل ان يأخذه عنهم ويطبقه البطارقة اليهود وقبل ان يحوله كهنة بني اسرائيل الى تقنين ديني ، وانه ما زال معمولا به بين كل المسلمين والمصريين المسيحيين اي الاقباط ـ وكما هي العادة نجد المصريين القدماء في بداية القصة . فالحفر البارز بالقبور المحيطة باهرامات الاسرة الخامسة في سقارة تثبت ان المصريين كانوا يمارسون الختان قبل ان تبتلي مصر بمقدم اليهود جياعا الى واديها المضياف الطيب بألف عام على الاقل . (ص ١٢) بل ويمعن ستيوارت في الجراة اكثر من ذلك فيقول ان اول ذكر للختان في الكتاب المقدس يرد بعد ان يكون سفر التكوين (اول اسفار العهد القديم) قد اكتمل ثلثه الاول . ورغم ان ذلك السفر يتصدر الاسفار الخمسة التاريخية في كتاب العهد القديم ، فان تاريخ كتابته وهوية مؤلفه (او بالاحرى هويات مؤلفيه) محل نزاع. فاليهود المتمسكون بأرثوذكسية العقيدة يؤمنون بأن ذلك السفر ، كالاسفار الاربعة الاخرى ، جزء لا يتجزأ من التوراة (التعاليم) الذي انكشف لموسى او اوحي اليه به . غير ان هناك من المتخصصين من يقرر ان تلك الاسفار قد كتبتها اقلام الكهان اليهود بعد المنفى لتطابق التقاليد والاساطير العبرية متفاوتة التواريخ متباينة القيمة التاريخية . ويستشهد ستيوارت (او يستند بظهره ابتغاء للسلامة) الى قول ابرام ليون ساخار في كتابه الرائع « ان امعان الفكر بصبر واناة في الاسفار التاريخية الاولى من العهد القديم قد جعل من الواضح ان تلك الاسفار ليست الا تجميعا قامت به ايد متعددة وانها كتبت في فترات متباينة لاغراض مختلفة » (ص ١٢) .

فاليهود الذين سرقوا من مصر ماشية اهلها وذهبهم وفضتهم (لان الاله نبه عليهم بان يفعلوا ذلك في سبيل مجده) وسرقوا قبل ذلك فكرة الاله الواحد الجبار ذاتها من افكار المصريين (المحمومين بالتدين من قديم) ، لم يكن ليكبر عليهم ان « يقتبسوا » عن المصريين ايضا عادة الختان التي ما زال يمارسها اصغر فلاح في مصر بغير تفكير . فهي عند المصريين عادة لا اكثر . وعند الشعوب التي تمارسها عادة لا اكثر . وربما كان منشأها صحيا ، او سحريا ، او هذا وذاك معا مع ايمان بانها تفيد الباه . او اي شيء خارج من هذا القبيل . لكنها بين ايدي اليهود تحولت الى حكاية الهية كبرى .

ولقد قلنا ان ستيوارت أمعن في الجراة ، لا لانه خاض في حكاية الاسفار الخمسة ، فهذه مطروحة وحولها جدل كثير ، ولكن لانه ـ بوضعه موضوع تأليف تلك الاسفار على ايدي الاحبار اليهود في اوقات متباينة لتطابق القراءة التي ابتغوها للتاريخ (والحقيقة ان اليهود سبقوا اصحاب « ١٩٨٤ » في رواية اورول بقرون عديدة في مجال شطب التاريخ وكتابته مثنى وثلاث ليطابق المكتوب الباقي بين ايدي الناس منه ما يريدون هم ان يعتقد الناس انه قد حدث) نقول ان ستيوارت بوضعه تلك الحكاية بعد قوله مباشرة ان الختان منقول ثقافيا عن شعوب اخرى ، قد شارف القول بان هؤلاء

الناس ـ من قديم ضارب في القدم ـ ملعقون . وخطورة الايحاء بانهم ملعقون في هذا الموضع بالذات تأتيه في ان الامر معلق بمعيار من المعايير التي تجعل اليهود شعبا اسمى ومختاراً من الاله ! ولا يضحكن القارىء لان الامر متعلق بتلك القطعة من الجلد في طرف القضيب . تلك القطعة التي يطيرها المبضع او تقطعها السكين من جسد أي كان قد تكون حقيرة الشأن ومضحكة . اما من الجسد اليهودي فانها ثمينة ودليل قيمها الكبرى ان الاله ذاته ظل يلاحق ابراهيم ويجزل له الوعود ويغدر له المغريات متسولا اياها . وتلك حكاية يرويها ستيوارت بأسلوب فكه خفيف الظل ، فيقول انه « فيما يرويه سفر التكوين » ، تقدم الله من ابراهام ، ذلك البدوي الطاعن في السن الذي قدم مما بين النهرين ، عارضا عليه صفقة لا غش فيها ، وبموجب تلك الصفقة تعهد الاله بأن يكثر أمما باكملها من صلب ذلك البدوي العجوز . فنسل ابراهام، كنسل بانكو (الشخصية الشكسبيرية في فاجعة « ماكبث ») سيصبح كله، من ذلك الوقت فصاعدا، ملوكا . (ولا يفوتنا وستيوارت يسوق هذا التشبيه ان الوعد الذي صدر لبانكو في ماكبث بأن يصبح نسله كله ملوكا صدر من أفواه الساحرات ، ولشكسبير بضعة ابيات جميلة تعليقا على ذلك الوعد) .

لكن كيف يصبح من ينحدرون من صلب أبراهام ملوكاً وهم بدو رحل لا وطن لهم ؟ إنه . ستصبح ارض كنعان التي كان أبراهام وقومه عابري سبيل فيها يطيقهم اهلها بالكاد ، ستصبح كنعان هذه ملكا خالصا لسلالته الى الابد . ومقابل ماذا ارض كنعان هذه ، وتحول الرعاة الرحل الذين لا وطن لهم الى ملوك ؟ مقابل تلك القطعة من الجلد التي في طرف القضيب التي تضحك منها أيها القارىء دون ان تفطن الى خطرها . وهل أنت أعقل من الخالق ذاته ؟ ان كان هو الذي ذهب يسعى وراء ابراهام ليرجوه ان يعقد ذلك الاتفاق المجزي معه ، فأي حق لنا نحن الاميين ، الذين خلقنا ذلك الاله عينه سائمة ليرتبها شعب الملوك المختار هذا، في ان نتساءل او نضحك ؟ الم تعلم بما فعله الاله مع موسى ، وام موسى ؟ لقد اكتشف الاله ان موسى لم يف بالعهد ولم يتخلص من تلك القطعة من الجلد ، فاستشاط غضبا لذلك الاخلال بالعهد الذي بينه وبين أبراهام ، ولذا فانه قطع على موسى طريقه وهو عائد من مدين بأطراف سيناء الى مصر التي كان قد هرب منها لينجو من القصاص في جريمة قتل. وما من شك في ان اله موسى ذاك الذي طارده ليقتله لانه لم يقطع من طرف قضيبه تلك القطعة من الجلد كان الاله الصحراوي يهوه الذي « اقتبسه » موسى من حميه الاممي الكاهن واستخدمه لتجسيد مفهوم الاله الواحد الذي « اقتبسه » ايضا من المصريين الذين استضافوا شعبه السفاح ببلاهة قرونا باكملها واغدقوا على ذلك الشعب البدوي الذي جاءهم عاريا همجيا جائعا من خيراتهم وحضاراتهم العظيمة . ويحكي لنا ستيوارت ما تعلمه في المدارس الانجليزية من حواديت الكتاب المقدس فيقول ـ غير دار، بحكم الاعتياد، كم يبدو ذلك الاله زريا ومضحكا وقميئا وهو يطارد ذلك القاتل الابق ليقتله لذلك السبب السخيف ـ انه « تصادف ان قابله الاله في الخان (وما الذي كان يفعله الاله في مكان مريب كهذا ؟) وهم بقتله ، غير ان المرأة زبوره (أم موسى) كانت اخف يدا من الاله واسرع بديهة ، فسارعت بقطع تلك الجلدة من طرف قضيب ابنها والقتها ارضا وهي تصيح بأن موسى قد بات عريس دم لها » . (ص١٢) عريس دم ! هل هناك ما هو اكثر رومانسية وحفزا للخيال من هذا ؟ عريس دم ! حكاية مهولة هذه . ومهما كان الرأي في ذلك الشعب المريض بجنون العظمة وجنون القتل والسرقة من قديم فلا شك في انه من قديم ايضا شعب موهوب بحق فيما يخص البراعات المسرحية . وسواء كانت المرأة زبورة ام موسى هي التي واتتها حقا تلك العبارة البارعة التي غطت بما فيها من عنصر مسرحي واغراب على سخف الحكاية كلها ام كان الاحبار زرق الناب الذين الفوا ذلك الهراء هم الذين وفقوا اليها ، فالذي لا شك فيه ان المرء لو توقف قليلا ، واعمل عقله فيما وراء التضخيم العبراني والبهلوانيات اللاهوتية ، سيجد نفسه مواجها بادراك محزن يتمثل في انه يكون على قدر من السذاجة لا يوصف اذا ما أخذ ذلك الاله الذي تصوره الحكاية مأخذ الجد . والحقيقة ان ام موسى تبدو لنا في الاحدوثة اكثر فطنة من الجميع وادرى بصغر عقل ذلك الاله الذي يطارد الناس في الطرقات ليقتلهم لانهم لم يختتنوا وكأنه مصاب بهوس اسمه الختان، ولا أدل على ادراكها لتفاهة مثل ذلك الاله (كما تصور الاسطورة) من انها سبقته وشفت غليله فقطعت جلدة قضيب ابنها فانفثأ على الفور غضبه . والحقيقة أن القارىء لهلوسات العهد القديم التي تكون احيانا ممتعة وفي أحيان كثيرة مضحكة لا يمكن ان يفوته ادراك الحقيقة الماثلة في ان اليهود ، رغم استنادهم بظهورهم الى ذلك الاله الذي يتخذونه من قديم تكئة لتبرير كل جرائم السرقة والقتل التي يقطر بها تاريخهم الدموي، يحسون تجاه الههم بازدراء لا يخفونه الا تحت قشرة رقيقة للغاية وهشة من اللغو اللاهوتي . وتاريخ اليهود كما هو وارد بالتوراة حافل بالثورات العارمة لكبارهم وشيوخهم وقادتهم عليه، « لصلابة اعناقهم » وتمردهم وعنجهيتهم تجاه يهوه القمري ذاك الذي سرقه موسى من كاهن مدين قبل ان يرحل عنه ، تماما كما سرق ماشية المصريين البلهاء وذهبهم قبل ان يهرب عن بلادهم المليئة بطيبتهم وبلاهتهم . وما تلك الثورات الكهنوتية العارمة المتكررة الا نتيجة لذلك الازدراء الذي ابداه اليهود دائما تجاه اله اذلوا اعناق أنبيائه به . وليس ذلك بغريب عليهم (*) . وليسأل القارىء المثقف نفسه : من اين جاء اسم اسرائيل ؟ وليرجع الى اساطير العهد القديم ليجد ان يعقوب تحدى الاله ذاته ان ينازله وظل ينازله طوال الليل حتى غلبه ، واذ ذاك قال له الاله « لانك جاهدت وغلبت يصبح اسمك اسرائيل » (**) .

ولكن حاول الا تقول شيئا من هذا لاحد . ولذلك فان الناس بدلا من أن يغرقوا في الضحك يأخذون تلك الهلوسات جميعا مأخذ الخطورة والجد المأساوي . ويتقعرون ويتبحرون في بحثها . واصغ لستيوارت وهو يقول ، غارقا في البحث عن المعاني الميتافيزيقية والالهية العميقة لحكاية الختان اليهودية هذه : « وقد اوحت (مغامرة موسى وامه مع الاله المصاب بهوس الختان) الى البعض بأن العبريين الاول اعتبروا الختان ،فيما يحتمل ،كغيرهم من الشعوب التي مارست الختان ، كضرب من الشعائر السابقة للزواج . (ولو ان ستيوارت كان يجب ان يستحي ، لان اخذ الحكاية ذلك المأخذ معناه تفسير صيحة المرأة زبورة ، بعد ان ختنت ابنها ، بعشق المحارم الذي تسلط دائما على نفوس شعبها) . غير ان ستيوارت لا يتوقف عند افكار كهذه ، فيستطرد قائلا ان تلك النظرة الى الختان قد فسرت بتفسيرين : اولهما ان الختان اعتبر وسيلة لتسهيل الاتصال الجنسي ،والاخر ان اراقة دم الذكر من ذلك المكان اعتبرت تقدمة لاسترضاء قوى التناسل المظلمة.(ص ١٣) وذلك التفسير يبدو وثنيا بعض الشيء ومدخولا بعناصر شيطانية . فأية قوى مظلمة تلك التي يتحدث عنها ؟ الحقيقة ان ستيوارت حذر ، لكنه ليس جبانا . فهو يقول : « والواقع ان تبدي الاله لعباده الاول كعمود (من سحاب بالنهار ومن نار بالليل)كان متفقا تماما مع تلك النظرة الى قواه (قوى التناسل المظلمة » » (ص ١٣) ولا تدري لم لم يشر ستيوارت الى بحث جرانت آلن عن تطور فكرة الالوهة . فالاله كان في بداية الامر متخذا لدى عباده صورة عضو تناسل الذكر ،مختتنا ، في حالة انتصاب . لكن ستيوارت يخبرنا ان الحكاية كما هي واردة بسفر التكوين تبين « ان الختان عند العبريين كان له مغزى يختلف تماما عن مغزاه لدى غيرهم ممن مارسوه . فهو لم يكن مجرد علامة قبلية ، لان الناس كانوا قد تخلوا عن العري

(*) فما اكثر الملاحدة بين زعماء الصهيونية ومؤسسي دولة اسرائيل.
(**) سفر التكوين ـ الاصحاح ٣٢ ـ ٢٤/٢٩ .

من زمن طويل ، كما انه لم يكن اختبارا قاسيا من الاختبارات التي كان يتعين على صغار الذكور ان يمروا بها في مرحلة البلوغ ليدخلوا مرحلة الرجولة ، كما انه - بغير شك - لم يكن معمولا به للاسباب الصحية التي قد تضعه في قائمة ما يوصي به الاطباء المحدثون . بل كان علامة (وانظر اين !) على « الالتزام الروحي » ! (ص ١٣) .

وحقيقة ان خيرة العقول يمكن ان تعمى عن رؤية السخف الذي يكاد يثقب العين ، تحت تاثير الاعتياد . فاي علاقة تلك التي يمكن ان يجدها انسان مفكر بين الختان والالتزام الروحي ؟ نعم ان الانسان درج من قديم على تشويه جسده لاسباب « دينية »، ولكن ذلك ضرب من الهستيريا يصعب الخلط بينه وبين الروحانيات او القيم الاخلاقية من حيث هي كذلك ، ومع ذلك ، فاي شيء يمكن لاوربي مسيحي درج على اعتبار العهد القديم (بكل ما فيه من اشياء جنونية بحق) جزءا لا يتجزأ من كتابه المقدس ، وبالتالي من تراثه الروحي ، اي شيء يمكن لذلك الاوربي المسيحي ان يقوله في شأن الديانة التي بزغ منها مفهوم الاله الواحد الذي تقوم عليه ديانته هو ؟ في مواجهة حكاية الختان الزرية هذه التي تمثل الهيكل التحتي او الاساس الذي انبنى عليه صرح ديانة العهد القديم ما الذي يمكن قوله الا : ما هذا الهراء الفارغ ؟ (وفي تلك الحالة يكون القائل قد وضع نفسه في موقف فكري واخلاقي لا يحسد عليه، بالنسبة لتراثه الروحي كله ، دع عنك بطبيعة الحال الموقف بالغ الصعوبة والخطر الذي يضع نفسه فيه كفرد عليه ان يتوائم لكي يعيش) ، او يقول : آه . لقد يبدو هذا الكلام غريبا ، لكنه يجب ان يؤخذ في سياقه التاريخي والحضاري ، وهو - متى اخذ ذلك المأخذ - سيكشف لنا عن اشياء ابعد ما تكون عن السخف الزرى الذي قد يتراءى لاول وهلة ، سيكشف لنا عن كونه - في حالة اليهود - معبرا عن اشياء سامقة ، كالالتزام الروحي مثلا (!) .

ويبدو ستيوارت ، في هذا الفصل الهام حقا من كتابه ، حائرا متراوحا بين الطرفين المتضادين اللذين يتمثلان في هذين التساؤلين : ما هذا الهراء ؟ و : الختان تعبير عن الالتزام الروحي ؟ وله - بالحقيقة - عذره ، لاسباب كثيرة ، ليس اقلها شأنا ما تثيره في نفس المرء (متى كان كارها للتعصب) مواقفه « النهائية » او القطيعة بشأن اية مجموعة من البشر ايا كان لونها او كانت عقائدها . والحقيقة ان قراءة التوراة وتواريخ اليهود تعتبر محنة اخلاقية داخلية للكاتب المؤمن بان البشر بشر ولا شيء غير ذلك ، وان أحط ما يمكن ان ينحط اليه الكاتب (او اي امرىء) هو ان يتعصب ضدهم او يكرههم لانه يخالفهم الراي او العقيدة او يختلف عنهم ثقافة او لونا او شكلا . ففي التحليل النهائي يبدو البشر جميعا لمثل ذلك الكاتب مساكين ، بنفس القدر ، وركاب قارب واحد اعطي لهم وفي قاعه ثقب لا سبيل الى سده . ومع ذلك ، ومع كل ايمان بان الاخر اخي ونظيري ، لماذا تنفر الحواس جميعا ويغلظ القلب ويتباعد بازاء القبح الخارجي والداخلي والشر والتشويه ؟ وان وجدت نفسك لصق انسان مثلك لكنه اجرب ، افلا تتباعد برغمك ؟ والحقيقة ، فيما يخص ذلك الشعب ، ان المرء يمضه ويحيره احساس مثل ذلك . وكل اولئك الذين احسوا ذلك الاحساس تجاه اليهود على مر العصور ، كانوا جميعا على خطأ ، وكانت مشاعرهم وليدة الترفض ، وضيق الروح ، والتعصب ولا شيء اخر ؟ كم من ملايين البشر الطيبين على مر العصور نفروا من اليهود وتباعدوا عنهم ورفضوهم ؟ هل كل البشر اشرار واليهود دائما ضحايا الظلم والبغي من جانب الاخرين ، ام ان شيئا في بنية اولئك الناس ، كبشر ، يستجلب كل ذلك ويثيره ، المرة بعد المرة بعد المرة على مر العصور ؟ وليس القرآن وحده الذي يذكر خصال اليهود القبيحة وبغيهم وغدرهم وخياناتهم . العهد القديم ذاته ، والعهد الجديد ايضا حافلان بذكر تلك الخصال غير المحببة الى نفوس البشر . والذي لا شك او مجال للجاجة فيه ان اليهود قد احسوا دائما بانهم نسيج وحدهم وانهم صنف اخر غير سائر خلق الله، واصغ لهذا القول الذي يورده ستيوارت من العهد القديم ، مرة اخرى عن حكاية الختان : « ان كل من ظل بغير ختان سيكون من ابناء بليال ، من ابناء الهلاك والضياع الابدي » ! لماذا ؟ « لان كل الملائكة كانوا هكذا (اي مختتنين ؟) منذ بدء الخليقة ، وغضب الله سوف يشتعل على ابناء العهد اذا ما جعلوا اعضاء اجسادهم تبدو كاعضاء اجساد الاميين ، ولسوف يطردون ويبادون من الارض » (ص ١٥) فمن فرط تقزز الاله من اعضاء اجساد الاميين (اي سائر خلقه من غير اليهود) يستشيط غضبا على ابناء العهد (شعبه المختار) اذا ما تركوا ذكورهم بغير ختان كاولئك الاميين السائمة وينذرهم بالطرد والابادة لا اقل . وليس هناك ما هو ابلغ واصرح تعبيرا من هذا الهراء عن جنون العظمة والاعتقاد بأن اليهود نسيج وحدهم . ومن ادلة السطوة التي باتت لليهود على عقول الغربيين ان كلاما كهذا يمكن ان يساق في اواخر القرن العشرين الذي باتت كل المقدسات فيه محل تساؤل وشك من جانب العقل الغربي ، دون ان توضع في آخر الاستشهاد علامة تعجب واحدة على الاقل . ولقد كانت الجماعات الثقافية دائما ذات حساسية بالغة لمثل هذه الاختلافات (وما من شك في ان قدرا كبيرا من نفور الغربيين منا نحن العرب راجع الى اختلافات يرونها فينا ، كاختلافات اليهود هذه) ، لكن اليهود قد توصلوا الى تكتيل كل ضروب اختلافهم تحت اسم السامية ، والباقي معروف . ولا ادل على نجاح لعبة « معاداة السامية » من ان خيرة العقول في العالم باتت تنسى ان العرب ايضا ساميون وتعاديهم باعتبار ان معاداة السامية (تلك التهمة القاتلة) تعني معاداة اليهود والصهيونية فقط ، اما غير اليهود (من المختلفين) ، حتى وان كانوا ساميين ، فصيدمباح. وتصور فقط لو كان كاتب انجليزي يكتب ما كتبه ستيوارت عن الختان عند اليهود ، عن الختان عند المصريين المساكين ، ما الذي كان ذلك الكاتب « المتحضر » الذي لا تروق له هذه الاشياء الدالة على الهمجية والتخلف حريا بان يكتبه عن المصريين ! واصغ لما يقوله دزموند ستيوارت :

« وبالنسبة للاميين (الغربيين) ، يضفي - الختان على الوليد مكانة محفوفة بالغموض والاسرار، ويجعله مقضيا عليه بان يعتبر دائما (وقد يكون ذلك باحساس من الاحترام او من المقت تجاهه) غريبا و « آخر » . ولقد قصد من الناموس اليهودي ان يحقق بالذات هذا. فكل الطقوس والشعائر والممارسات الدينية لليهود صممت بحيث تذكر اليهودي ان الله قد رأى « بحكمته انه من الصائب ان يميز شعبا بعينه دون سائر الشعوب باعتباره الشعب الذي اختاره ذلك الاله ليكون حاملا لرسالة تحقيق الهدف الاقصى المتمثل في بلوغ وحدة كل شعوب الارض ، وهو الهدف الذي كشف عنه الله كغاية قصوى وغرض نهائي لكل تطور انساني » . (ص ١٥)

ومن هذا الاستشهاد يذهب ستيوارت الى حيث يقول لنا ان مذهب « الشعب المختار » يمكن ان يساء فهمه بسهولة ، فالاميون احرياء بان يجدوا فيه دليلا على غطرسة اليهود وغرورهم ، بينما يرى فيه اليهود تبريرا لوجودهم . فهو « سلاح ذو حدين ». والحقيقة ان العقل يتوقف في كل مرة ، بازاء ما يكتب عن اليهود او ما يكتبونه هم عن انفسهم وعن الاخرين ، متسائلا عن مدى الصدق في الدعاوي الفلسفية التي تضع الفكر الافلاطوني والارسطي في اساس الفكر الغربي ، بينما يبدو السوفسطائيون وحدهم تماما يصولون ويجولون في الساحة . وانظر فقط كيف نرقى من الخاص الجزئي (تلك الجلدة التي تطيرها السكين من طرف القضيب اليهودي المبارك) الى العام والكلي :

« فالكتابات المقدسة والاحبار الذين فسروها تجعل من الواضح

ان اختيار الاله لذلك الشعب ليجعله حاملا لتلك الرسالة كان دائما اختيار الم وعذاب (استشهادا في سبيل الاله والبشر على السواء فهل هناك ما هو انبل من هذا الاستشهاد ؟) . فان كان اليهود قد انتقاهم الاله دون سائر النوع البشري، فما ذلك الا لانه (قد كتب عليهم المساكين) ان يؤدوا خدمة . وخدمة يعاقب النكوص عنها بصرامة ولا يكون النجاح فيها - في معظم الاحيان - الا اسما اخر للاستشهاد . فحتى في مجتمع الاسكندرية المستهلن كان اليهود يستثيرون الحنق والنقمة - رغم ما اتصف به ذلك المجتمع من تسامح نسبي - برفضهم المشاركة في اعياد الالهة الوثنية . ولقد كان الامتناع عن المشاركة في نشاطات الجماعة اول ما وجه من تهم الى ذلك الشعب الذي كرس نفسه (لله) وليست اتهامات الربا والتحكم باستخدام سلاح المال التي نسبت اليه بعد ذلك . (ولعل غيبة ستيوارت الطويلة عن بريطانيا انسته ما الذي تعنيه نشاطات الربا واحكام القبضة على اعناق الشعوب ، وافواه كتابها ، باستخدام سلاح المال) . وعندما افسحت الوثنية الطريق للمسيحية ، وباتت المسيحية ديانة منغمسة في حملة صليبية قامت على اضطهاد من انكروا مذهبها ، انغلق اليهود على انفسهم اكثر وباتوا يعيشون في عزلة اكثر احكاما . (وماذا عن المجتمع الاسلامي الذي عامل اليهود بتسامح واوسع لهم صدره ؟ ماذا فعل اليهود فيه ؟ انفتحوا ؟) فانفصالهم وانعزالهم كانا نتيجة لانصياعهم لناموس حافظ على تكريسهم لوظيفة بعينها من خلال العديد من التفاصيل الدقيقة التي تعين عليهم مراعاتها للوفاء بمتطلبات ذلك الناموس ونواهيه ». (ص ١٦).

ولعلنا نقدر الان العبء المهظ الملقى على عاتق اليهود والذي يقتلون من بدء تاريخهم ويذبحون ويسرقون ويغتصبون ليفوا بمتطلباته السامية التي فرضها الاله عليهم وجعلهم بسببها شعبه المختار. لكن ستيوارت - وان كان بريطانيا وتربى في تراث فكري واخلاقي لعبت فيه طويلا اصابع اليهود - ليس ساذجا . او قل انه يحتاط لنفسه . فهو - من جانب - يصدر عن منطلق ليبرالي متسامح ، بوصفه بريطانيا ومتحضرا (ولندع جانبا الخوف المحتمل من سيف « معاداة السامية » البتار المعلق فوق الرؤوس ، ولنفترض الامانة الاخلاقية كاملة)، ومثل ذلك المنطلق يتطلب بالاقل ، محاولة فهم حكاية الشعب المختار هذه بقدر كبير من التسامح وسعة الصدر . الا انه - من الجانب الاخر - ليس غافلا عما في الواقع الماثل حوله من حقائق تدحض كل هذا الهراء الفارغ. ولذلك فانه - بنبوغ انجليزي تقليدي - يتخذ الطريق الوسط ، او يلوذ بالحل الوسط (فيمسك بالعصى من منتصفها) ويقول : « والناموس اذا ما انكر ، او اعطي تفسيرا دنيويا، يمكن ان تبيت له نتائج خطيرة . وفي حالة اليهود يمكن ان يستخدم الاحساس بانهم شعب مختار في دعم الميل الانساني المعهود الى تمجيد الجماعة التي ينتمي اليها المرء ووضعها فوق كل ما عداها من جماعات بشرية (اي وضع اليهود فوق الجميع كالاريين) واذا ما اخذته جماعات اخرى واستخدمته ضد سلالة القبائل العدوة القديمة التي يحكي عنها العهد القديم فان النتيجة ستكون مذاهب عنصرية من اشد الانواع ضراوة » (ص ١٦) وبهذا يفسر دزموند ستيوارت قوله ان سلاح الشعب المختار سلاح ذو حدين . فهو يدور دورة حذرة (يقتضي الانصاف بالايلام عليها) حول القضية العنصرية بكل تناقضاتها الصارخة في دعاوي التفوق اليهودي. وسيرا على درب التفسير الاخلاقي « التسامح » الحذر ، يقول ستيوارت ، عائدا الى هرتسل ، ان الختان وضع الوليد ، بصرف النظر عن الموقف الذي قد يتخذه ذلك الوليد من الديانة فيما بعد ، في صفوف الاقلية الاوربية (اليهود) « المتصفة باعمق كبرياء واطول ماض الم والتي كان ينتظرها مستقبل اتصف باكبر قدر من الافتقار الى اليقين. والواقع ان الالام التي تحملها اليهود في سبيل الختان كانت مألوفة من قديم ، اما الجديد في ختان هرتسل فتمثل في ان المستقبل الذي بات ذلك الختان واعدا او منذرا به كان مبهما غامضا ».(ص١٦) وهنا يتبرع ستيوارت مشكورا - غير دار ربما - بالكشف عما في تناوله الحذر الدائري المتراوح من عوار ، اذ يغفل تماما عن استظهار العامل الاقتصادي - الاجتماعي فيما طرأ على وضع اليهود من تغير في المجتمعات الاوربية (وهو تغير طويل لم يتم بين عشية وضحاها، بل استغرق وقتا طويلا ، وتعرض لنكسات كانت قصة الصهيونية مع النازية ذروتها ، واستقر اخيرا عند ما هو عليه الان مما يرغم ستيوارت وامثاله عند محاولة النظر الموضوعي او التطلع الى الموضوعية على اللف الحذر والدوران الخائف بحيث تتوه الحقائق وتطمس وتبهت الموضوعية لتصبح اعتذارا) فيقول :

« ولقد ظل وضع اليهود حتى منتصف القرن الثامن عشر صعبا لكن واضحا » (ص ١٦) .

وهذا حقيقي وصحيح ، ولكن لماذا ؟ الذي يبدو من قراءة التاريخ واستقراء مسار اليهود فيه ان صعوبة وضعهم في المجتمعات الاوربية (وبخاصة مجتمعات اوربا الوسطى) التي جاؤوها مشتتين ودخلوها لينغلقوا على انفسهم وراء اسوار « الجيتو » ويقتاتوا (وهم يتصايحون طيلة الوقت يا ويلاه من الاضطهاد) على اجساد تلك المجتمعات ويتربحوا من مصائبها وبلاياها التي كانت لهم - في معظم الامر - اياد طولى فيها ، تلك « الصعوبة » التي يتحدث عنها ستيوارت كان منشأها انهم وفدوا الى تلك المجتمعات بعد ان رسخت وتشكلت واستقرت (وظلت امادا طويلة عصية على التغيير بسبب الجمود اللاهوتي والحق الالهي) فلم يجدوا في بنياتها منافذ كثيرة لهم ، فظلت بفضل ماقامت عليه من انسقة ثابتة صمدت حتى لما احدثته حركات الاصلاح الديني ، وانفتاحات عصر النهضة ، وعصر الثورات السياسية ، من خلخلة واضطراب - موصدة في وجوههم ، وفي افضل الاحوال ظلوا مرابين وتجارا او سماسرة ، الى ان جاء عصر الثورة الصناعية فزلزل كل راسخ وهدم العديد من اركانه ، ولم تفت الفرصة المرابين اليهود وتجار الحروب ، فقفزوا من ذلك الشق في الاسوار ، وقد واتتهم الفرصة « ليصبحوا محترمين » بوصفهم ممولين وشركاء للبورجوازية الوليدة انذاك التي كانت تقاتل في معركة ضارية مع مديري المجتمع القدامى لتنتزع ادارته منهم. وبفضل دعاوي المساواة والتحرر والتسامح والديموقراطية التي استخدمتها البورجوازية اسلحة في حربها الطبقية تلك،وبفضل الثراء الذي كان اليهود قد حققوه رغم الاضطهاد ، وربما ايضا بفضل براعاتهم المالية وخبراتهم الطويلة بفنون الاقراض ، والربا التي باتت جوهرية لنجاح النظام الجديد القائم على الصناعة والبنوك، وهي فنون ظل الحلف القديم بين ملوك الحق الالهي والنبلاء والاقطاع والكنيسة يحرمها ويحاربها دهرا طويلا الى ان تمكنت البورجوازية التي كانت محدثة نعمة في ذلك الوقت من كسر ظهر الحلف وكسر اغلال نواهيه . والذي لا شك فيه ان نشأة النظام الرأسمالي والطبقة البورجوازية في بلدان اوربا لم تصبح ممكنة الا من خلال الغاء تحريم الربا . ولقد قيل ذلك في الدراسات التي وضعت عن الثورة الصناعية باساليب عديدة ابرزها اظهار الترابط بين انتشار البروتستانتية وازدهار النظام الرأسمالي ، غير ان الذي لا شك فيه ان الممولين الاوروبيين ظلوا امدا طويلا في حاجة الى ما جعلهم تحريم الربا السابق يفتقرون اليه من خبرات في ذلك المجال ، ووجدوا انفسهم ، لذلك ، في حاجة ماسة لا الى اموال المرابين والتجار اليهود فحسب بل والى خبراتهم الطويلة الضاربة في القدم بفنون الربا والتجارة ، والى شيء اخر لا يقل اهمية : خبرتهم باسواق العالم المالية والتجارية . وبذلك التحول بدأت صعوبة وضع اليهود في المجتمعات الاوربية تتلاشى ، فيما بعد منتصف القرن الثامن عشر ، وبدأوا يخرجون الى وضح النهار ، ومن يوم الى يوم يوطدون

تحالفهم مع البورجوازية الصاعدة اكثر ، ويرسون اقدامهم في النظام الراسمالي المزدهر اكثر فاكثر . ولقد توصل اليهود الى تحويل انسحابهم القديم في ظل طبقات ما قبل الانقلاب الصناعي الحاكمة ، وراء اسوار الجيتو ، الى تحالف ثم الى سيطرة وقبضة خانقة على الطبقات البورجوازية في بلدان اوربا ، دون ان يكفوا عن الاعيبهم القديمة التي ظلوا يقتاتون من خلالها على اجساد تلك المجتمعات « الاممية » التي فتحت لهم ابوابها على مصاريعها فرفضوا ان يندمجوا فيها وظلوا ـ باختيارهم ـ « مغتربين » عنها. ومن بعض الاوجه يمكن ان تعتبر الفورة الوحشية للنازية في اوروبا كآخر واعنف محاولة لكسر القبضة الخانقة التي احكمها اليهود على اعناق الاوروبيين وضاق بها كبار الصناعيين والممولين الاميين (ممولي النازية) في المانيا ، وبعد فشل تلك الفورة ، وكسر شوكة النازية عرفت الحركة المنافسة لها ، الصهيونية ، اعظم ازدهار لها ، خاصة بعد ان التقطتها ـ في اعقاب الحرب العالمية الثانية ـ الامبريالية الاميركية التي خرجت لترث العالم،واكترتها .

فما الذي يقوله دزموند ستيوارت (الكاتب البريطاني ليبرالي الفكر ، ربيب المجتمع البورجوازي « الديموقراطي المتسامح » ؟ انه يرجع الامر كله الى اسباب ترفضية وضيق افق فكري وتعصب من جانب الاميين ضد اليهود ، ويرجعه الى اسباب لاهوتية ! :

« ولقد كان بعض تلك الصعوبة (في وضع اليهود) نابعا من عداء الاميين لهم ، وبعضها من متطلبات ناموس بالغ التركيب، لان العهد (بين الاله و « شعبه المختار » لم يكن كسبا جماعيا لتذكرة يا نصيب ! بل احس به كانغماج جماعي في اداء مهام بالغة الصرامة : مهمة الابقاء على « العرفان بالله الواحد » حيا في عالم خلقه ذلك الاله لكنه (اي العالم الضال) رفض في معظم الاحيان ان يعرف آلهه » . (ص ١٦ ـ ١٧) ويضيف ستيوارت استشهادات من العهد القديم يقف لها شعر الرأس هولا يقول فيها موسى لشعبه أن الهه القمري الذي سرقه من المصريين ومن كاهن مدين سيفعل بذلك الشعب اشياء رهيبة اذا لم يحافظ على الوصايا العشر فلا يحيد عنها قيد انملة ، يمنة او يسرة ، ويضيف الكاتب ايضا قوله ان تلك شروط التفوق الروحي لليهود على سائر امم الارض .

وذلك كلام جميل ونوراني ويرفع المرء الى السموات العلى . لكن اليهود عندما حلوا وخرجوا منه سرقوه قبل ان يخرجوا (وهل يريد احد ان يكذب ما هو مكتوب في العهد القديم ؟) رغم ان وصايا يهوه القمري قالت لليهودي لا تسرق . وكلما حل اليهود ببلد وتمكنوا من اهله ، ذبحوهم ، رغم ان وصايا الاله الى اليهودي تقول : لا تقتل . وهل يريد احد أن يكذب تواريخ المذابح البشعة في العهد القديم ، حتى وان كان يريد بحجة التحضر والتسامح والموضوعية ان يعمى عن مذابح اليوم ؟ وهل لم يقرأ المستر ستيوارت في مدرسته البريطانية المتحضرة في « انجيل المدرسة » ما فعله شعب ابراهام ويعقوب وموسى بأهالي شيكيم بأرض كنعان المبتلاة من قديم ؟ فقد نزلوا ، من اختارهم الاله ووضعهم فوق سائر البشر خارج بلد يقال لها شيكيم . وهناك ضربوا خيامهم وبدأوا يطلقون القطعان التي جمعوها من اجل مجد الرب من كل ارض حلوا بها او مروا بقربها، وجمعوا خيرات كثيرة من ارض شيكيم وشربوا وسروا سرورا عظيما. ثم سرحت من بناتهم بنت فرآها ابن ملك تلك الارض وهام بها عشقا، فذهب معها الى مخيم اليهود ضيوفه ليطلب يدها كما يقال بالتعبير الانجليزي المهذب . فتشاور ابوها واخوتها وقالوا له نقبل ان نبقى بارضكم ونتزاوج. لكن شريعتنا الغراء تقضي بأن من يضاجع بناتنا لا بد ان يكون مختتنا ، فان شئتم ارسلنا اليكم من يختن كل ذكوركم من ابن ثمانية ايام الى ابن تسعين .

فذهب الفتى الفر واقنع اباه وعشيرته ، وجاء اليهود فختنوا كل ذكر منهم ، وبعد ان نفذوا شريعة الاله المتعاهد معهم جاءوا بالسيف الى اهل شيكيم وقد اقعدهم التختين ارضا فذبحوهم عن بكرة أبيهم ، وسبوا نساءهم ، وبطبيعة الحال اخذوا ماشيتهم وذهبهم وفضتهم ، لا لشيء ، ولكن من اجل مجد الله . ولعل ستيوارت لم يقرأ خبر تلك المذبحة ولم يقرأ خبر مذبحة اريحا وغيرها ايام التلملة ، ولكن الم يقرأ خبر مذابح دير ياسين والف دير ياسين؟ بل الم يسمع بما قيل في الكنيست الاسرائيلي مؤخرا بمحضر من عضو محافظ بمجلس العموم البريطاني من ان احدا في العالم المتمدن لا يجب ان يحدث كل تلك الضجة حول قتل الفلسطينيين ، لانهم « ليسوا اناسا ، ليسوا بشرا » ؟ غير ان ذلك كله من مسائل كل يوم الدارجة المبتذلة ونحن نتحدث هنا عن مقومات « التفوق الروحي » لشعب مختار . ونتحدث عن التاريخ القديم لا عن مشاكل اليوم . وانظر مثلا هذا التفسير للجيتو :

« مع استيلاء الرومان على القدس سنة ٧٠ ميلادية ، وفشل ثورة يهودية بقيادة باركونجه في القرن الميلادي الثاني ، ذاق اليهود كل ما تهددتهم النبوءات به (اذا لم يتبعوا وصايا الاله المنتقم الجبار) ، فتشتتوا في انحاء اوربا والبحر الابيض المتوسط حيث عاشوا منعزلين وحدهم ، وقد صمموا الا يستجلبوا غضب الاله ثانية على رؤوسهم . فالحائط المحيط بالجيتو اقامته مجموعتان من الايدي : من جانب ، ايدي امم الارض التي بات اليهود بشعيين بالنسبة اليها ، ومن جانب اخر ايدي اليهود انفسهم ، وقد عقدوا العزم على ان يتبعوا بادق تفاصيلها طريقة الحياة التي حددت لهم بتعاليم انبيائهم ، وفوق كل شيء بتعاليم موسى . وقد تلخص ما كانوا قد عقدوا العزم عليه من موقف تجاه الحياة في قول شمايه، احد معاصري هيرود الاكبر ، وقد قال :

« احب العمل ، واكره التسييد ، ولا تجعل نفسك معروفا من الحكومة (!) » ، وهكذا فان الجيتو كان مكان انعزال ،وامكنة تستثير الريبة والازدراء بسهولة . (وهكذا) تدهورت اللفظة في الاستخدامات العامية للاليزابيثيين فباتت مرادفة للفظة « ماخور »، وفي الاستخدام الحديث باتت تعني حيا سكنيا متخلفا تقطنه اقلية دينية أو عنصرية تعيش حياة اسوأ من حياة الاخرين . ولقد يصدق الاستخدام الاخير على الجيتو اليهودي ، ولكن جزئيا فقط ، لاننا اذا اقتصرنا على النظر اليه في ذلك الاطار وحده باتت رؤيتنا له منقوصة . فالجيتو كان ايضا قلعة لها بعض وظائف الدير ، كان ملاذا لاناس كرسوا انفسهم لانشغالات اختلفت عما انشغل به الناس خارج اسوار الجيتو في مجتمعهم اليومي(هل يتكلم مستر ستيوارت بالصدق ؟ وهل يصدق ما يقول ؟) ، منصرفين الى دراسة التوراة، غير مقتصرين على محاولة العيش في حدود مفاهيمه فحسب ، بل ومجتهدين في العيش طبقا لروح الخير والاحسان التي تكمن وراء تلك المفاهيم . والواقع ان انعزالهم عن عالم كان يسمح بالرق ، والتعذيب، والاضطهاد ، والحملات الصليبية لم يكن شيئا سيئا . فكما ان الاديرة المسيحية اشعلت سراجا خافتا من روح العالم الهيليني لاوربا البربرية ، قام الجيتو اليهودي بالحفاظ على شكل فريد من اشكال التوحيد بعد وقت طويل من تشتت شعب اسرائيل على النحو الذي تنبأ به موسى . ولذا فان المفكرين اليهود انتهوا بمرور الوقت الى الاعتقاد بأن ذلك الشتات (الدياسبورا) لم يكن عقابا من الله لليهود على خطاياهم فحسب ، بل ووجها من اوجه العناية الالهية التي لا يسبر غورها » . (ص ١٨)

ورغم اننا ما زلنا عند بدايات الكتاب ولم نر شيئا بعد ، فاننا نستطيع ان نقرر ونحن بمأمن من الزلل ان هذه الفقرة الشاعرية التي اطلق المستر ستيوارت العنان فيها لفصاحته ، قد تكون من خير

ما يكشف لنا عن منهجه ، او ـ ان شئنا توخي الدقة ـ عن طريقته المشاقة بعض الشيء في معالجة موضوعه . فبكل تؤدة الباحث المدقق المنصف للحقائق حتى ولو على حساب مشاعره النبيلة بل وعلى حساب انتمائه الى اوروبا البربرية ذاتها ، يدخل الكاتب الى موضوعه (المحفوف بالمهالك كما قلنا) دخول انسان مسلح بكل اسلحة الموضوعية والتبحر العلمي والتناول الاكاديمي الذي يشارف احيانا الموسوعية لا اقل . انظر فقط كلمة جيتو المباركة هذه وكيف يستقصي الكاتب تدهورها لغويا في عصر شكسبير ، مستشهدا بعبارة نابية قالها هاملت ، وقد افقدته الغيرة حسن تقديره للامور ، للمسكينة اوفيليا ، وتطورها ، تلك الكلمة ، الى حيث باتت اسما على الاحياء السكنية المتخلفة التي تقطنها الاقليات الدينية والعنصرية .. الخ . وفيما يخص الاليزابيثيين يحسن ان نستاذن المستر ستيوارت في ان نتذكر ما فاته ان يتذكره وهو آخذ في ذلك التبحر العلمي ، الا وهو انه وان كانت طبقة المولين بدأ ظهورها الى السطح ، في بلاده ، في عصر اليزابيت الاولى ، فانه كان قد ظل بين تلك الطبقة وبين السطوة الاجتماعية التي اتاحها لها العصر الصناعي وانقلابه العظيم وقت طويل ، ولذا فانه امكن لمارلو ان يكتب ((يهودي مالطة)) ، وان يكتب شيكسبير ((تاجر البندقية)) ، وان يجري في ((هاملت)) ذلك البذاء على لسان بطله . ولقد نال مالرو جزاءه على اي حال . اما فيما يخص الاستخدام الحديث ، وتحول الجيتو ، كلفظ من الفاظ اللغة ، الى تسمية للاحياء السكنية المتخلفة ، فان ذلك قد يصدق على حي يقطنه الزنوج، اما اليهود فان الجيتو فيما يخصهم لا يمكن ان يكون كذلك الا جزئيا فقط . لماذا ؟ كيف لماذا ؟ انظر الى ما ذهبوا يفعلونه وراء اسواره . هل ذهبوا وانعزلوا وراء تلك الاسوار لانهم يهود وشعب الله المختار ولا يصح ان يختلطوا بالاممين السائمة (الذين يعتبر المستر ستيوارت منهم ، معذرة ، بمعايير النقاء اليهودي ، لا بمعاييرنا نحن) الذين خلقهم الاله المنتقم الجبار ليمتطيهم شعبه المختار ؟ ابدا . لقد انعزلوا نايا بانفسهم عن دنس العالم الضال الذي سمح بالرق والتعذيب (والحروب الصليبية ،حتى يطيب الكاتب خاطر جمهوره العربي) وما الى ذلك من الشرور والموبقات التي لا يقرها اليهود ولا يطيقها دينهم الرقيق الحاشية الذي يمقت العنف وينفر من التعذيب وتثير هلعه اراقة الدماء . ومهما تذرع المرء بحسن النية هنا ، واسترض في الكاتب طيبة القلب المفرطة ، فانه لا يملك الا ان يتساءل ،هل قرأ الكاتب العهد القديم ؟ وان كان قراه ،هل ما زال يذكره ، ام انه يفترض ان قراءه ، كلهم ، لم يقرأوا ذلك الكتاب الرهيب ، او انهم قرأوه ، ومن فرط ما يسكب في عقولهم كل يوم عن اليهود ، نسوه ؟ الم يبد له ذلك العهد القديم ، في الف موضع وموضع ، غارقا في الدم ؟ ام ان العهد القديم مدسوس على اليهود ؟ فان لم يكن مدسوسا ، وقد تابطه اليهود في الشتات وذهبوا متباعدين به عن الاممين البرابرة (الاوربيين وشعوب البحر الابيض) ممن تشتتوا في ديارهم ، ليعكفوا على دراسة تاريخهم وتعاليم احبارهم وزعمائهم ، فكيف يطلب منا المستر ستيوارت ان نتصورهم قابعين، كالعذارى الطاهرات ، وراء اسوار الجيتو، مرتعدين فرقا وتقززا واستفظاعا من البشاعات التي كان الاممين يرتكبونها خارج اسوار ذلك الجيتو ؟ نعم كان الجيتو لليهود بالمجتمعات الاممية منفى اختياريا واجباريا وقلعة . ولكن قلعة ماذا ؟ واي روح خير واحسان تلك التي يحدثنا عنها المستر ستيوارت ؟ هل يتكلم جدا ؟ وهل يطلب من قرائه ان ياخذوه ماخذ الجد حقا ؟ وان كان اليهود ذهبوا وانقطعوا لما يقول لنا انهم انقطعوا له وراء اسوار الجيتو ، فمن اين اتوا بكل ذلك المال الذي اذلوا به اعناق الاممين واشتروا به مجتمعاتهم وساستهم وكتابهم ودور نشرهم ؟ نزل عليهم من السماء كالمن والسلوى وهم سجد هجد يتعبدون ؟ كيف بالله خرجوا من القلعة ـ الدير تلك التي يهزج بها المستر ستيوارت وقد ((اتخمهم الثراء حتى افقدهم كل تواضع)) كما يقول لنا هو مستشهدا بقول حبر من احبارهم قد يكون فسد وتقشف وقد يكون القطار فاته ولم يسعده الحظ بالاثراء من تجارة الطباق الذي كان ياتي من اراضي البلقان العثمانية وغير الطباق من خيرات الله ؟

يقول لنا المستر ستيوارت في مستهل كتابه ، القيم ولا شك ، انه تملكه طموح لاكتشاف الكائن الانساني الذي عاش من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٩٠٤ ، والذي جمع في شخصه ، بدرجة فريدة ، بين رجل الاحلام ، ورجل الافعال ((وعندما نذهب معه ، ليرى ، نجده واقفا بنا خارجا ، مستغرقا في وصف السطح والظاهر فقط ، لا يكاد يقترب من الحقائق التي توشك ان تثقب العين ، وان اقترب فلكي يتحسسها ، تلك الحقائق ، من خارجها ، لحظة ، ثم يولي الادبار وهو يلقي من فوق كتفه باقوال قد تبدو له غاية في النبل والتمدين والليبرالية ، لكنها تظل باعثة على التساؤل الذي يفرضه ـ للاسف ـ كل ما تحاول كتابة المستر ستيوارت ان تقنعنا انها غارقة فيه من اشتياق الى استجلاء وجه الحقيقة لا اكثر ، وما ذلك التساؤل الا : ان كان مما يهدر قيمة الفكر ان يصدر عن نية سيئة مسبقة ، الا يهدر قيمته ايضا اصرار الكاتب على النبل مهما كانت الحقائق ؟ ولماذا يجب على الكاتب ان يطمس عقله خوفا من أن يبدو (لنفسه قبل ان يبدو للاخرين) غير مستعبد بما فيه الكفاية لنوازعه النبيلة او لما جعله احد يعتقد انه يجب ان يكون جزءا لا يتجزأ من نوازعه النبيلة ؟ لماذا لا يجب ان يتسلح الكاتب في وجه احتمالات الغش والخديعة التي لا ينكر احد انها ماثلة في العالم ، بشيء من الشك على الاقل ؟ الا يقول المتعمقون في اللاهوت ان الشك اول خطوات الايمان الصحيح ؟ فهل الايمان بان اليهود ملائكة وشعب مختار حقا اخطر شانا من الايمان بالاله المفروض انه اختار اليهود ؟ الم يقل ديكارت ((انا اشك ـ انا افكر ـ اذن فانا موجود ـ ووجودي دليل على كذا وكيت ؟)) لقد جرؤ مفكر عظيم كسبينوزا فشك وتساءل ، بل ورفض . فهل كان سبينوزا وحشا ونازيا ؟ ولقد جرؤ يهود ادنى مرتبة من سبينوزا بكثير فرفضوا ونادوا باصلاح اليهودية كما يقول لنا المستر ستيوارت ذاته . فهل كان اولئك وما زالوا وحوشا ونازيين ؟ وهل من المتعين على الكاتب ـ لكي يكون متحضرا ـ ان يفعل ما تفعله الحكومات والمؤسسة عندما تحالف الصهيونية (اكثر اشكال الرجعية تطرفا) باعتبارها ((ارقى تعبير عن التحضر والديموقراطية)) ؟ ولماذا لا يحاول الكاتب ان يلقي بسمعه قليلا الى اناس كباروخ سبينوزا او دعاة اصلاح اليهودية ؟ لماذا يجب على الكاتب ان يلتزم ((الخط الرسمي)) خشية ان يتهم بالزندقة ؟ ولماذا يتعين عليه ـ تحت وطأة خوفه ذاك ـ ان يتحسس الحقائق ويهرول مبتعدا ؟

وان شئت مثالا على ذلك كله ، فخذ قول ستيوارت ان اليهود جاءتهم الدعوة الى وليمة الحضارة الاوربية متاخرة (ص ١٩) ، فالقول صادق ، وحقيقي ، ومعبر . لكن الكاتب ما يلبث ان يفقده ما كان يمكن ان يظل له من قيمة ، غير تارك له الا قيمة الفصاحة لا اكثر ، فيضعه بين اقوال لا تحصى ظاهرها الذكاء والبراعة وباطنها (في افضل الاحوال) ابيض بغير سوء ، هي تلك التي ينبع فيها ويرتزق بها كتاب اميركيون واوربيون كثيرون يسلكون سبيل المعالجة الاستعراضية من الخارج لما يتحدثون عنه . فستيوارت يقف على هذه الحقيقة الهامة بالنسبة لموضوعه : ان اليهود ظلوا دخلاء مرفوضين ، او قل منبوذين ، في المجتمعات الاوربية ، الى ان فتحت لهم الابواب في وقت متاخر . لكنه ما يلبث ان يقف حائرا (فيما يبدو مما كتبه بعد ذلك مباشرة) ، يقلب تلك الحقيقة المفيدة غير دار اي شيء يمكن ان يفعله بها، وربما ايضا خائفا مما يمكن ان تستدرجه اليه اذا ما حاول الذهاب في شانها الى ما وراء السطح ليرى ويقول لنا ، فيغنم السلامة ويظل خارجا . ولئلا يظل واقفا بالخارج لا يفعل شيئا ، يذهب متلمسا الاسباب في عدد من انصاف الحقائق ، فيقول ان القوى التي هدمت اسوار الجيتو

وحررت اليهود (فاخرجتهم مما وصفه بانه قلعتهم ـ الدير) في القارة الاوربية جاءت ـ تماما كالقوى التي اقامت تلك الاسوار ـ من داخل ذلك الجيتو وخارجه على السواء . « فاعلان حقوق الانسان الذي تبنته الثورة الفرنسية كان قد قضى على كل اساس للتفرقة . وبحلول عام ١٨٣١ كانت اليهودية قد باتت ديانة معترفا بها رسميا في فرنسا وتتلقى عونا ماديا (!) من الدولة بوصفها كذلك . ويهود هولندا كانوا قد تحرروا منذ سنة ١٧٩٦ ، ومثلهم يهود المنطقة التي عرفت بعد ذلك باسم بلجيكا . اما في الولايات الالمانية ، فقد ظل تحرير اليهود متأرجحا يعلو تارة ويهبط اخرى ، تاتي به حركات ثورية (بورجوازية) وتذهب به الحركات الرجعية ، الى ان اعترف به صراحة في دستور الامبراطورية الالمانية سنة ١٨٧١ . فتحرك الشعوب الاممية لتحرير اليهود نبع من ذلك التيار الفكري الذي اتصف من جانب « بالكرم » ، ومن جانب اخر ، بالتشكك الديني . وهو تيار بلغ ذروته بنشوب الثورة الفرنسية . » (ص ١٨ ـ ١٩) وهذا كله انصاف حقائق ، واحيانا اقل من ذلك بكثير ، وهو ما يدركه المستر ستيوارت بغير شك، لان الحكاية لم تكن منافسة دينية بين المسيحية واليهودية . وهو اذ يدعي ذلك (في شق من تفسيره) يلجأ في تفسير التغير بالغ التعقيد الذي حول اليهود من اقلية منبوذة مشكوك في امرها مثيرة للتقزز جالسة (او متمددة) تحت حذاء اوربا فيما قبل منتصف القرن الثامن عشر ، الى صفوة بشرية متربعة على عقل اوربا وقلبها ، يلجأ في تفسير ذلك الى اسلوب الامعان في التبسيط الذي لا نظنه ـ بوصفه سليلا للفكر التجريبي العلمي الاوربي ـ في حاجة الى من يقول له انه اسلوب مدان ومرفوض ، حتى وان قرن ذلك التغير الديني بمتغير اخر يورده بشكل بالغ التعميم والابهام تحت اسم « الكرم » الفكري . فهو ـ بذلك ـ يطمس (او يروغ من) متغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية عديدة باشرت فعلها في احداث ذلك التغير وهدم اسوار الجيتو لتخرج اليهود الى ساحة المجتمعات الاوربية يصولون فيها ويجولون ، وفي مكان ذلك التشابك المتداخل لعلل واسباب تبادلت التاثير فيما بينها طوال عقود باكملها لتحدث ذلك التغير، يضع ـ ببساطة مطمئنة راضية ـ « تيارا من افكار متصفة « بالكرم » والشك الديني » ، بل ويكتفي بذلك ، ولا يعنى حتى بالذهاب وراء ذلك التيار ليستكشف منابعه ويرى من اين اتى ، ولم ، بل ولم كان من المتعين ان يكون اليهود وحدهم هم الذين انتفعوا به وافادوا منه تلك الفائدة العميقة دون سواهم من الاقليات الدينية والعنصرية . وما من شك في ان ستيوارت احس بكل هذا الضعف فيما ساقه من افكار وتأملات ، لانه ما يلبث ان يحاول ـ بشيء اقرب الى التلفيق منه الى اية محاولة لاستجلاء الحقيقة ـ ان يصلب عود افكاره وتاملاته هذه ، فيقول ان الشك الديني لم يكن من جانب واحد ، اي لم يكن من جانب «الامميين» وحدهم ، بل من جانب اليهود ايضا . ونقول انه قارب التلفيق في ذلك لانه ياخذ هنا في تطويع الحقائق لتطابق ما يقول بدلا من ان يحاول جعل قوله استجلاء للحقائق . واذ يفعل ذلك ، يتردى في تناقضات خطيرة .

وبينما وضع الموسوعيون الفرنسيون تعاليم الكنيسة موضع التساؤل ، رفض اليهود وخاصة من كانوا منهم بالمانيا عقيدتهم الضاربة في القدم كلية ، او حاولوا ان يجعلوها تتكيف للانماط السائدة .. ولقد كانت احدى النتائج العاجلة لذلك التفاعل المتبادل بين اوربا التي باتت اكثر تسامحا وبين المعبد اليهودي الذي بات اكثر تساؤلا ، ظهور ونمو ما بات يعرف باسم « اليهودية المستصلحة » . فبدلا من ان تظل الشريعة اليهودية المقياس الذي يرجع اليه ابدا في كل نشاط يقوم به اليهودي ، وكل شعور يحس به ، كما كانت تلك الشريعة قد ظلت بوجه عام حتى ذلك الوقت ، بات متعينا على الشريعة اليهودية ان تبرر نفسها امام محكمة الحضارة الاوربية ـ بالاقل في اعين اولئك اليهود الذين كان دخول المجتمع الاوربي بالنسبة اليهم هدفا اسمى يتعين بلوغه ، وقد كان هؤلاء يمثلون السواد الاعظم من اليهود الغربيين . » (ص ١٩)

ورغم ان المستر ستيوارت يتذكر ، قبل هذا الكلام بقليل، «اسقف باريس الذي تبرأ من المسيحية امام المجلس الثوري » ، ورغم انه ـ بغير شك ـ يذكر ان جاليليو (والتشبيه مع الفارق) تبرأ من عقله ذاته ، ورغم ان كلامه هذا كله يكاد يثقب العين بما ينطق فيه من انصياع (تكتيكي) لحكم الضرورة ومتطلبات اللحظة الحضارية التي كان من المتعين الا تترك لتضيع : « .. دخول المجتمع الاوربي بالنسبة اليهم هدفا اسمى يتعين بلوغه » ، ورغم ان الواقع واحداث التاريخ اليهودي ـ الاوربي ماثلة ولا تترك كبير مجال للنقاش حول اهمية ، او ثقل ، او حجم « اليهودية المستصلحة » هذه ، يستمر ستيوارت في عملية تطويع الحقائق لما يريد ان يقول ، فيخبرنا ان « الجيتو كان رمزا لتصميم اليهود على ان يظلوا منفصلين ، وان يظلوا شعبا مقدسا، وان يظل ما بينهم وبين اغواءات الثقافة الاممية مقطوعا مثلما تقطع الراهبة ما بينها وبين الزواج ، او الراهب ما بينه وبين السوق . ولقد بدا الحل الوسط بين اليهودية والقيم الاممية الذي واكب تدمير الجيتو (للمتمسكين بالعقيدة) كمثال جديد على الروح التي ادت بالعبرانيين بعد الخروج الى ان يعبدوا تمثال هاتور ، ويهود الحقبة الهيلينية الى المشاركة في الالعاب الوثنية وانكار تختينهم .. الا ان حركة الاصلاح ، برغم (ذلك) انتشرت ، بعد ان بدأت في المانيا ، كالنار في الهشيم عبر القارة الاوربية باكملها ، ومنها الى اميركا ، وهكذا فان احبار الاصلاح لم يعودوا يعترفون بتوراة أو تلمود او باي مصدر ديني يهودي اخر ، باعتباره شيئا ملزما ، ولم يعد هناك تقليد يهودي ، مهما كان جوهريا ، لم يتعرض في وقت او اخر لهجومهم . وهكذا فان العهد بين الآله وابراهام تعرض للهجوم من جانب ابراهام جايجر ، مؤسس اليهودية المستصلحة ، وللزراية من جانب تلميذه اميل هيرش ، والسبت (يوم اليهود المقدس) حوله صمويل هولدهايم الى يوم الاحد (الاوربي) ، ويوم الغفران وصفه ج.م. فايس المصلح النيويوركي بانه يوم كئيب ، لا قيمة له ، واحد البقايا الرثة لنظم العقيدة اليهودية ، وحتى الايمان بخلود الروح قارنه الواعظ المصلح اميل هيرش بالمخدرات وعقاقير التخدير ، ويوم تشاه بيعاف ، يوم النواح العظيم للدولة الضائعة والمعبد حولا الى يوم رقص وابتهاج . » (ص ١٩ ـ ٢٠)

والواضح طبعا مما يسوقه ستيوارت ان هذا كله اما متعلق بردة محدودة لا كبير وزن لها ، او تيار تحرر فكري لا كبير خطر له ، واما (وهذا احتمال قائم) بعملية تمويه كبرى بارعة ، تحقيقا للهدف الاسمى ، وهو دخول المجتمع الاوربي والنفاذ الى قلبه . لكن المستر ستيوارت يرى ان ذلك « التمزق (اليهودي) بشكل يعتبر من خصائص كل الديانات الاوربية في القرن التاسع عشر » (ص ٢٠) ادى الى التوافق بين الشك المسيحي والشك اليهودي واغنى تيار الشك والكرم الذي احدث التغير العظيم .

ولو ان المستر ستيوارت ، والحق يقال ، ليس بكل ذلك القدر من سرعة التصديق . فهو ـ اولا ـ يتحفظ ، ويقول ان اليهود انقسموا في اوربا الى فئتين : فئة كانت « ترغب باي ثمن في التفاهم مع عصر ليبرالي ، وفئة اخرى كانت ترى ان المنقذ الوحيد في البحر المصطخب لا يمكن ان يكون الا النجم الثابت » (ص ٢٠)

لندن

البقية في العدد القادم

هوامش

الصفحات المشار اليها قرين كل رقم من ارقام الهامش ، من الطبعة الانجليزية الصادرة بالملكة المتحدة من كتاب دزموند ستيوارت « هرتسل » الناشر هيمش هاميلتون ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٤ .

قرأت العدد الماضي من «الآداب»

الابحاث

عبد المنعم تليمه

من الابحاث ما يعتمد بصورة غالبة على فكرة موجهة ، ومنها ما يعتمد على نهج اكاديمي يجمع المعلوم من مظانه وينتهي الى نتيجة مؤسسة على ذلك المعلوم . واللون الاول من الابحاث ادنى الى طبيعة الدوريات العامة ، بينما اللون الثاني ادنى الى طبيعة الدوريات المتخصصة والدراسات الاكاديمية . وثقافتنا - لاسباب كثيرة - فقيرة في اللونين جميعا ، ولذلك فان المرء يحتفي حقيقة بعدد يناير الماضي من (الاداب) ، فلقد غلب على ابحاث العدد - على الرغم من انصراف معظمها الى النقد التطبيقي كما سياتي - افكار وفروض نظرية موجهة، تشد القارىء الى يقظة عقلية ، وتدعوه الى الحوار الفكري مع كتاب هذه الابحاث .

والبحث النظري الاساسي في العدد الماضي من (الاداب) ، هو ما كتبه يوسف اليوسف بعنوان : « الصوفية : حركة يسار الفكر العربي » . في هذا البحث الهام فكرة وفرض نظري موجهان، يؤسس عليهما الكاتب بحثه ، ويخلص من امتحانهما الى نتائجه . ان الفرض النظري الذي يقيم يوسف اليوسف عليه بحثه ينهض على ان الصوفيه - ابان ازدهارها في القرون الخمسة الاسلامية : من الثالث الى الثامن الهجريين - في تراثنا العربي الاسلامي انما تمثل النهج الفكري للطبقات الكادحة ، والمعبر الاصيل عن الصراع الطبقي . يرى الكاتب ان الحركة الصوفية في تلك القرون كانت منهجا معرفيا توسلت به القوى التاريخية التقدمية في نضالها ضد القوى المستغلة السائدة ، وانها - اي الحركة الصوفية - كانت تيارا فكريا ماديا على الرغم من طوباويتها ، وعلى الرغم من الطابع الانهزامي او الانسحابي الظاهري لمضموناتها . بهذا تتبدى الحركة الصوفية باعتبارها - اجتماعيا - حركة رفض لما كان قائما من علاقات اجتماعية وظروف سياسية وحركة احتجاج على اوضاع طبقية محددة ، اي انها تتبدى ، على الرغم من ظاهرها الانسحابي ، قوة هادمة لظرف قائم لا انساني . كذلك تتبدى الحركة الصوفية - فكريا - ايديولوجية تختلف اختلافا واسعا عن الايديولوجية السائدة التي كانت صياغة لمصالح القوى والطبقات الاجتماعية المستغلة . لكل هذا - اجتماعيا وفكريا - فان الصوفية في القرون الوسطى العربية ، كانت تعبيرا عن تيار مادي ثوري ، تظهر جذريته فلسفيا في نفي صورة الاله المفارقة ، وفي جعل الله متجليا في الطبيعة والوجود المادي المتعين ، وفي جعله متحققا في اهاب الانسان ، اي ان هذه الجذرية تظهر في التفتيش عن المطابقة بين الله والانسان ، وفي تحويل الله الى اعماق الانسان ، تحويل الالوهية المفارقة الى انسانية فاعلة . وقد وقف يوسف اليوسف عند امرين يسند بهما الفرض النظري الذي اراد فحصه : الامر الاول هو الشروط التاريخية التي انشأت الحركة الصوفية . وهنا يصطنع الكاتب المنهج العلمي في التفسير ، ليصل الى ان انتشار الحركة الصوفية كان يتناسب طردا مع تفاقم الصراع الطبقي وشدة تأزم الواقع . ويقع الكاتب هنا على صلة وثيقة بين الثورات التي مارست الصدامات الدموية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري - ثورات القرامطة والزنج - وبلوغ الصوفية غاية قوتها في المرحلة ذاتها . اي ان الكاتب يصل بمنهجه هذا الى ان الصوفيه نشات وارتقت في العصر الذهبي للدولة العباسية ، ذلك العصر الذي عرف استقرارا نسبيا كبيرا في السياسة ، كما عرف انقسام المجتمع الى طبقتين متمايزتين دون ان يكون للدنيا منهما حول او حول ازاء الطبقة المستغلة وكان هذا احد العوامل الحاسمة في نشوء الصوفية وازدهارها . وهذا يعني ان القهر الذي وقع على الفئات الثائرة في عهد الازدهار العباسي هو الذي افرز حركة رفض - الحركة الصوفية - ظاهرها انسحابي وباطنها يقول بهدم القائم . ويوازي الكاتب بين قوة الحركة الصوفية واحتدام الصراع الطبقي ، فيرى ان هذا الصراع حين اصيب بالتراخي ، بعد ان تفسخت الامبراطورية ، حل الوهن في الحركة الصوفية نفسها . اما الامر الثاني فهو جذور الصوفية في المجتمع والفكر العربيين في القرنين الاولين للهجرة . وفي هذا الامر يقع الكاتب على ضروب النشاط الروحي التي مهدت للصوفية ، ويرى هذه الضروب في التنسك والزهد ، وهما نشاطان يختلفان عن الصوفية في التعامل مع الواقع ، فبينما يشعر الزاهد بغربته عن هذا الكون شعورا وجوديا ، فان المتصوف يعي تضاده مع القوى الاجتماعية السائدة . زهاد القرن الثاني الهجري - عند الكاتب - مهدوا السبيل امام متصوفة القرن الثالث الهجري وما بعده ، غير ان ثمة فارقا كبيرا يفصل الجذر وفروعه من حيث النضج الفكري ، وهو ان الزهد لا يعدو كونه سلوكا يرتكز على تاملات اولية وساذجة ، في حين ان التصوف يضيف الى السلوك فلسفة اكثر من دينية ، انها موقف كامل من الوجود . ففي حين كان الدين غاية الناسك فانه لم يكن بالنسبة للصوفي الا منهجا يتجاوز به شرطه الموضوعي .

وليس شك من ان الفرض الذي وجه بحث يوسف اليوسف يثير وجوها كثيرة للحوار المفيد ، لكننا نكتفي هنا بملاحظتين اساسيتين : وتتصل الملاحظة الاولى بما ارتضاه الكاتب لنفسه - امتحانا لفرضه ودعما علميا له - من تحليل الوقائع التاريخية لا النصوص الصوفية - ويمكن ان يكون هذا سبيلا صحيحا اذا توفر التفسير المادي لتاريخنا ، لكن هذا التفسير لم يتم حتى الان، ولذا فان صاحب المنهج المادي في التاريخ اذا اراد ان يضع ظاهرة - كحركة الصوفية وغيرها من الظواهر التاريخية - موضعها من التاريخ العربي العام ، وجد نفسه مطالبا بتفسير حركة هذا التاريخ كله تفسيرا ماديا ، وهذا طموح لا يستطيع انجازه باحث فرد في مجال محدود كبحث يوسف اليوسف . من هنا بدا اعتماد الكاتب على تحليل الوقائع التاريخية والظروف الطبقية في المجتمع العربي القديم اجتهادا اوليا قابلا لكثير من النقاش والدفع ، كذلك اضطر الكاتب - لعدم وجود التحليل المادي الشامل لتاريخنا - الى بناء فرضه الجديد في التفسير المادي للحركة الصوفية على نتائج قديمة في تفسير التاريخ العربي في تلك العصور . لو كان بين ايدي الباحثين تفسير مادي شامل لتلك العصور العربية ، لاستطاع كاتب البحث ان يضع الحركة الصوفية - باعتبارها تيارا ماديا يساريا - بين تيارات مادية

يسارية اخرى في بيئات المؤرخين وعلماء الفلك والطب والرياضيات والطبيعيات وبيئات الفلاسفة والمتكلمة ... الخ ، ولاستطاع ان يضع كل هذه التيارات المتقدمة موضعها من حركة المجتمع العربي في تلك الازمان . ولم يكن المطلوب من كاتب البحث - بطبيعة الحال - تحليل النصوص الصوفية ، فهذا امر لا يتسع له بحثه المحدود ، ولكن كان يمكن ان يصرف جهده الى بيان طبيعة المنهج المعرفي الصوفي ، لا ان يكتفي بالوصف العام للصوفية بانها كانت تيارا فكريا ماديا على الرغم من طوباويتها . ان بيان طبيعة هذا المنهج المعرفي للحركة الصوفية ادنى الى ان يفصح عن جذرية هذه الحركة وماديتها ، كما انه ادنى الى دعم الفرض النظري الذي اسس الكاتب عليه بحثه . كان الاساس في هذا المنهج - دون ان نرصد مبادئه حيث لا يتسع المجال - السلوك الى الانسان ، لذا سعى المتصوفة الى لمح الجواهر من قلب الظواهر ، وكان شعارهم بذل المجهود في طلب المقصود ، وتحديد (القيمة) حسب العاطفة والارادة . وعندما اعلن المتصوفة ان معرفتهم ذوق وعيان وانها لا تتأتى عن طريق النقل والبرهان، فانهم انما قصدوا الارتقاء من المعطى الحسي الى الكشف عن الحقيقة ، وادى هذا القصد الى مناهج للتامل والاستبطان ساعدت في بحث السلوك الانساني والاخلاق العملية من زوايا انفعالية وعقلية وخلقية. الصوفية في صحتها منهج قائم على حركة ذات مراحل ، اولها التطلع الى العلم ، واخرها تحقيق العمل ، لذلك كان هذا المنهج مناهضا للمنهج الصوري الارسطي الذي بفعل التغير ويظهر الجماعة في وحدة متماسكة وهمية . من هاهنا حقيقة الجذرية والمادية في الحركة الصوفية . لقد تعاونت القوى المسيطرة في المجتمع العربي في تلك الازمان على مواراة حقيقة الصراع ، وتوسلت بالنقلية الحازمة والارسطية الصورية لتثبيت اوضاعها ومصالحها ، فكانت الصوفية من بين تيارات اليسار الاجتماعي والفكري التي عبرت عن التناقضات الاجتماعية واحتجت على قوانين القهر الفكري والاجتماعي .

وتتصل الملاحظة الثانية بما حاوله يوسف اليوسف من اشارات متسرعة عن جذور الصوفية العربية وامتداداتها في بعض الانساق الفلسفية المثالية الحديثة والمعاصرة . ولم يكن هذا مطلوبا في بحثه المحدود ، كما انه ليس مقدورا على التثبت من نتائجه بهذا التسرع. ان نفي التأثيرات الهندية القديمة والافلاطونية المحدثة والمسيحية في الصوفية العربية ، وان الاشارة الى تأثيرات هذه الصوفيةالعربية في هيجل وتلامذته من المعاصرين ، نقول ان كل ذلك يحتاج الى جهود كثيرة ، وتحقيق متمهل ، لا يتسع له بحث محدود في دورية عامة . ومهما يكن من امر ، فان هذا البحث يفصح عن اصالة فكر وصحة منهج ، بدرجة طيبة .

* * *

ولا تخلو الابحاث الاخرى - في العدد الماضي من الاداب - من الانظار الفكرية حول فلسفة الفن الادبي ، من جهتي طبيعته وآثاره ، على الرغم من ان هذه الابحاث قد انصرفت في المقام الاول الى النقد التطبيقي والدراسة الادبية . اثار سامي خشبة في مقاله (مسرحنا في ٦ اكتوبر ، والفرق بين الاحتفال والتفكير) قضية الفن والحقيقة الاجتماعية . واثارت ريتا عوض في مقالها (الاسطورة من عبقر شفيق المعلوف) قضية الاسطورة في الفن الشعري . واثار طراد الكبيسي في مقاله (عدة زوايا للنظر : انماط في القصيدة العربية الحديثة) قضية الشعر والثورة : يتناول سامي خشبة بالتقويم العروض المسرحية الثلاثة التي قدمتها هيئة المسرح في مصر احتفالا بالذكرى الاولى لحرب اكتوبر : (الحرب والسلام) ليوسف السباعي، و(محاكمة عم احمد الفلاح) لمحمد رشاد رشدي ، و (رأس العش) لسعد الدين وهبة . ويضطر الناقد الشاب ، ازاء ضعف هذه العروض ، الى التعرض لاوليات التفكير الفني عامة ، والتفكير المسرحي خاصة . وعنده ان جوهر الدراما هو (الشاعرية) التي يكتسب بها الواقع صدقا خاصا ، وعنده ان العرضين الاولين ابتعدا عن هذا الجوهر ، وان العرض الثالث كان على مسافة معقولة منه . ويفسر الناقد التهافت الفني بالموقف الفكري والاجتماعي لمؤلفي هذه الاعمال ، اي انه يجعل الموقف محددا للتشكيل . وهذا معناه ان مجتمعا قد تمايزت فيه الطبقات - المجتمع المصري - يصبح وعي الفنانين الطبقي فيه مفسرا لاشكال الفن وتجاريبه ، ويصبح الموقف الاجتماعي للفنان ذا دور اساسي في تحديد خصوبة اعماله جماليا او عقمها . وفي تلك العروض المسرحية - بخاصة الاولية منهما كما يرى الناقد - كان الوعي البورجوازي مسئولا عن مواراة الحقيقة الاجتماعية ، كما كان عاجزا عن ادارة الصراع في الفن ، من هنا جاء الحبوط الفكري والفني جميعا .

وتتناول ريتا عوض استخدامات شفيق المعلوف للاسطورة في مطولته (عبقر) . وتثير الكاتبة في هذا البحث مسألتين : الاولى تذهب فيها الى ان العودة الى الاساطير القديمة كانت احدى السمات التي تميز بها الشعر الحديث . والثانية ان ما وصلنا من الشعر العربي القديم كان خلوا من الاسطورة. وليس صحيحا ما تراه صاحبة البحث في المسألتين معا . ذلك ان الاسطورة في الفن - كل فن - وفي معظم عصور التاريخ الفني - ذات وجود اصيل ، كمنطق للتفسير في الفنون القديمة ، وكمنهج للبناء في الفنون الحديثة والمعاصرة . والشاعر المعاصر لم (يعد) الى الاسطورة ، وانما تعامل معها تعاملا خاصا باعتبارها منهج بناء تشكيلي . يبث الفنان ذو الموقف الثوري في الاسطورة القديمة دلالات انسانية واجتماعية معاصرة ، ويؤكد بها - تشكيلا - حضور الانسان وسيادته على عالمه وقدرته ونباهته ، وينفخ في الآلهة الاسطورية البدائية روحا انسانيا حارا حميما اعلاء لقيمة الانسان الحديث . اما الفنان البورجوازي فيتوسل بالاسطورة للارتداد بالانسان من واقعه (المركب) الى واقع (بسيط) عاشه الاقدمون ، وفي هذا الارتداد يصرف الانسان عن واقعه الحقيقي ، ليعيش واقعا وهميا . ان الفنان البورجوازي هنا يهرب من اتخاذ موقف من الواقع ، كما انه يجعل تشكيله مؤديا الى الابهام والوهم . هذا في المسألة الاولى . اما المسألة الثانية ، فليس صحيحا ان الشعر العربي القديم كان خلوا من الاسطورة . وتستطيع الكاتبة ان تصحح هذا الحكم اذا رجعت عن خلطها بين الاسطورة والرمز ، واذا تصورت الاسطورة في الشعر على نحو غير النحو الذي تصورته من وجود قصة اسطورية واسماء شخصيات اسطورية . وتستطيع الكاتبة كذلك ان تصحح هذا الحكم لو رجعت الى دراسات حديثة وقراءات جادة اخيرة للشعر العربي الجاهلي .

ويتناول طراد الكبيسي - في دراسة تطبيقية مطولة - اربع مجموعات شعرية ، لاربعة شعراء ، ويصدر دراسته بمقدمة نظرية عن الشعر والثورة ، يحاول فيها ان يبين ماهية ادراك الشاعر الملتزم لعالمه ادراكا جماليا خاصا متصلا بوعيه الطبقي وبموقفه الثوري . ان فن الشاعر الثوري يصوغ مضمونا جذريا ينسحب على التشكيل الجمالي ، ومن هنا يكون للثورة شعرها الذي يعكس - من زاوية الموقف - هدفها ، كما يعكس - من زاوية التشكيل - اساليبها وخبرتها . في هذه الحالة يغدو شعار الثورة - بمستوى رمزي - شعرا لها ، وتغدو موروثات الجماهير قيما ومناهج بناء في هذا الشعر . هنا يتحد الشاعر والمقاتل في اهاب واحد ، ويتبدى الفن والثورة فصلا بشريا واحدا . ويرى طراد الكبيسي ان الشعر الفلسطيني المقاوم قد حقق هذه المستويات الى حد كبير ، فاخص خصائص هذا الشعر المقاوم - كما يرى الكاتب - البساطة والعمق، والالتصاق الشديد بالارض ، وادخال الاغاني والاهازيج ، واستلهام المواقف التقدمية والثورية في الثقافة العربية الكلاسيكية، وتجسيد الحياة والنضالات اليومية . وقد اجتهد الكبيسي - في تطبيقاته الموفقة على المجموعات الاربع - ان يتجلى ارتباط الموقف بتشكيله ، فوقف عند طبيعة ادراك كل من الشعراء الاربعة ، واثر هذا الادراك في طرائق التعبير عندهم .

القاهرة

سامي خشبة

طرحت القصتان المنشورتان في العدد الماضي من « الاداب » قضية قد لا يختلف عربيان في اهميتها : قضية المنهج الذي يمكن ان يستخدم به الفنان ، او المثقف العربي ، مدارس الفكر الغربية ، الى الحد الذي تساعده فيه هذه المدارس في تبين حقيقة وابعاد التجربة الانسانية – الجماعية او الفردية – التي يدرسها او يتخذها موضوعا لعمله الفني ، استنادا على « علمية » هذه المدارس ، او قدرتها على النفاذ وراء سطوح الاشياء والعلاقات والبشر . وقد طرح الكاتبان – العراقية واللبناني – هذه القضية – التي ارجو الا اكون انا الذي يفرضها على القصتين – من خلال تجربة واحدة – مع اختلاف زاوية المعالجة بالطبع واختلاف طبيعة الملكة الفنية والتعبيرية لدى الكاتبين – هي تجربة علاقة الابن بالاب .

اما قصة « النافذة » للكاتبة العراقية بديعة امين ، فكأنما كتبها اثنان ، وكأن كاتبة ثلثيها الاول والاخير (والاخير بالذات) طبيبة نفسية ، كتبتهما كما يمكن ان يكتب تقرير طبي نفسي ، لتشخيص الحالة النفسية المرضية لكاتب الثلث الثاني من « القصة » . ولا يتضح هذا التقسيم فحسب من خلال مضمون التجربة وزاوية الرؤية والضمير الذي تروى به الاحداث او العين التي تنظر الى الوقائع وترصد المواقف او الذهن الذي يتذكر ويسترجع في كل من قسمي القصة ، وانما يتضح هذا التقسيم ايضا من خلال الاختلاف الواضح بين القسمين في اسلوب التعبير ، في مدى امتداد الجملة ، وفي درجة التوتر والشحنة المدخرة التي تنم عنها العبارة ، ومن خلال الاختلاف بين التوجه المباشر الى المعنى والى الحادثة الموصوفة او التجربة المسترجعة في القسم الذي كتبه «المريض» وبين التشبيهات الكثيرة والاستعارات المجازية الثقيلة « الثقافة » الى درجة استفزازية احيانا في القسم الذي كتبته « الطبيبة » بسبب افتعالها (مثل التشبيه الذي يستغرق اربعة اسطر ونصف سطر ، بمأساة اغريقية .. متحدية كل السنين التي مرت منذ كتب سوفوكليس .. الخ .. الخ ص ٢٠) وبسبب قلة علاقتها بمجرى القصة وبالموقف الذي تريدنا الكاتبة ان يزداد ادراكنا له من خلال التشبيه او المجاز . ورغم هذه الاختلافات ، تقوم سمة اساسية في القصة كلها لتكشف ان يدا واحدة قد كتبتها بعد ان خطط لها عقل واحد ، ودبر الموقف والعلاقة بحيث يقدم « المريض » للطبيبة خلاصة وافية لحياته ، تضيء ايضا لها ما كانت تعرف عنه من تفاصيل متناثرة ، فيوفر لها بذلك ان تكتب « تقريرها » التشخيصي عن « عقدته » وكيفية حلها . ان المريض والطبيبة كلاهما يكتبان بنفس الجمل الطويلة المتراكبة المستديرة حول المعنى الواحد ، مستخدمة كل ما تعرفه اللغة العربية من حروف الوصل واسماء الاشارة وحروف الاستدراك والعطف .. تكاد تتكرر في كل جملة ، او في كل فقرة على الاقل ، تنم عن تزاحم الافكار والتصورات ونتائج التأملات الكثيرة على ذهن الكاتبة ، تريد كلها ان تبرز في لحظة واحدة ، وبنفس القدر من الوضوح والقوة ، حتى لا تستأثر فكرة واحدة منها بانتباه القارىء ، وحتى يتبين القارىء ان الكاتبة قد قلبت الامور جميعها على كل وجوهها فلم تفلت منها وجها واحدا ، فاكتشفت ان كل شيء في حياة الانسان (الرجل !) انما ينبع مباشرة من علاقة الكبت بينه وبين ابيه .

ولكن من خلال ذلك التقسيم نفسه حصلت قصة بديعة امين على الجزء الذي يمكن ان يكون مادة لعمل قصصي ابداعي ممتاز ، سيكون بالضرورة مختلفا عن « القصة القصيرة » اذا شاءت الكاتبة ان تستثمر التجربة والمعاني التي وضعتها في « مشروع القصة » الذي كتبه « المريض » . ومن خلال ذلك التقسيم ايضا فقدت قصة بديعة امين قدرتها على التأثير الذي كانت تسعى اليه بوضوح ، من خلال دراسة ونقد العلاقة بين الاب الطاغية والضحية الذي وضعته الظروف بين يديه : « الابن » .

لقد ارجعت الكاتبة كل تشوهات الابن النفسية (التي ينبغي لنا ان ندرك انها تكاد تكون اشارة بالغة الدلالة الى تشوهات مجتمعنا « الاجتماعية » ، اذا نظر اليها على مستوى الجماعة بعد مستوى الفرد) ، التشوهات التي تبدأ من غرس الاحساس الداخلي الدفين بالخوف والشعور بالسجن في لا وعي الابن ، الى بزوغ التطلع العاجز « النوستالجي » الى الحرية في عقله الواعي ، الى تقييد وكبح كل ملكة لديه للابداع نتيجة امتزاج الاحساس بالخوف والسجن مع التوق العاجز الى الحرية التي هي مضمون كل معرفة والباب المؤدي بالتالي الى اي ابداع ، الى العجز الكامل عن ممارسة الحياة وفعلها ، وذروتها « الحب » رغم القدرة على ممارسة العمل وتحمل مسؤوليته بنوع من الكفاءة الالية التي يمكن ان تحطمها تفجرات مادة اللاوعي او طاقته المكبوتة التي قد تطلقها من قمقمها تجربة تفتح باب الذاكرة المسدود بألف تعويذة ، ليسقط اللاوعي فريسة للوعي ، وليفقد الانسان توازنه حين لا يعود يعرف ذاته التي تعود عليها ، بينما هو في الحقيقة يتعرف على ذاته الاصلية التي قهرت وكبتت واغلقت عليها ابواب سجون القيم الاجتماعية المضادة لقيم الطبيعة . والاب بالطبع هو الرمز الاسمى للقيم الاجتماعية او لسلطة المجتمع الذي هو مفارقة للطبيعة وانتزاع للانسان منها . انه الرمز الذي يتكفل بتجريد الابن من انسانيته ، وتحويله الى كائن مضاد لطبيعته ، خاسر لذاته الحقيقية الاولى التي كانت له في فردوس الطفولة المفقود مكتسب لذات اخرى مصطنعة تحاول ان تتشبه بالاب الذي تريد ايضا ان تقضي عليه .. الخ ..الخ ما هو معروف في مدرسة التحليل النفسي بوجه عام .

هذا هو المضمون المجرد للقسم الثاني من قصة بديعة امين ،وهو القسم الذي يتكون من « مشروع القصة » الذي كتبه المريض او الموظف الذي يحلم ان يصبح اديبا ، زميل راوية القصة الاصلية ، وقد ضمن مشروع قصته ملخصا وافيا عن الحادثة الاساسية في حياته ، التي بدا عندها يفقد ذاته وطبيعته ويتحول الى الكائن المضاد للطبيعة . اما الراوية ، فاننا نكتشف من خلال القسم الثالث والاخير ، انها ليست مجرد راوية او موظفة زميلة للموظف المريض ، وانما كما تقول عن نفسها « ذات اهتمامات ادبية »ولكننا نزعم انها ذات اهتمامات « سيكوثرابية » واضحة ، ممتزجة بهموم اجتماعية لا تود ان تواجهها مباشرة .

ولكن طبيبتنا النفسية ، او « راوية » بديعة امين ، تفسد علينا استمتاعنا بقصة متكاملة كان بوسعها ان تبدعها على اساس مشروع قصة مريضها او زميلها ، لانها لم تكرس جهدها من اجل تحويل مشروع القصة الى قصة او رواية ، وانما قررت ان تكتب عن « المشروع » وعن صاحبه ، سواء كان زميلا او مريضا ، تقريرا « سيكوثرابيا » – كان يمكن ان يحتمله بناء روائي ، ولكن من الصعب ان يحتمله هذا البناء القصصي المركز حول لقطة واحدة لا يتعداها . ولا يكتفي التحليل النفسي التشخيصي العلاجي هذا بالتحليل النفسي ، وانما يطمع ايضا الى استخدام واحدة من « الموضات » الفكرية الشائعة ، التي اثبتت قدرتها على اثراء التحليل وليس على الوصول الى نتائج عملية في التصدي الفعلي للواقع وتغييره ، وهي « موضة » المزج بين التحليل النفسي للفرد وبين التحليل المادي السوسيولوجي للمجتمع .. فقدمت ايضا – في القسم الثالث من قصتها – مشروعا لبحث طريف عن اصول تشوهاتنا الاجتماعية ، وقدمت فكرة لا باس ببحثها عن سر اندفاع بعض مثقفينا الى العمل السياسي والى المنفى او السجن، وعن حقيقة موقفهم من

« المرأة » بوجوه ذلك الموقف المختلفة ، ومن حقيقة قدراتهم على معرفة ذواتهم ومعرفة دافعهم وطاقاتهم معرفة حقيقية .. قدمت الكاتبة الخطوط العامة لمثل هذه الدراسة ، مكتوبة بتكثيف شديد لانها ايضا لم تتوفر على درسها ، فلم تكتب لنا قصة متكاملة ناضجة ، ولم تكتب لنا بحثا « سيكوسوسيولوجيا » متكاملا ناضجا قائما على المعلومات المجمعة المصنفة المدروسة ، وانني لارجوها حقا ان تعود فتكتب الاثنين ، منفصلين ، كاملين . وازعم لها ان القصة لن تفقد عمقها الفكري اذا لم ترتبط بالبحث ، وان البحث لن يفقد جاذبيته الفنية اذا هو لم يرتبط بالقصة . وازعم ايضا انهما معا ـ القصة والبحث ـ يفقدان قيمتهما وعمقهما ، الفنية والفكرية ، اذا بقيا على صورتيهما الحاليتين ،وفي هذا خسارة محققة ، سأشير اليها بعد قليل .

ولعل قصة « النافذة والجدار » ان تكون محاولة أخرى ،لتقديم جانب مختلف ، لنفس العلاقة : علاقة الابن بالاب . ولكنها محاولة « قصصية » فقط هذه المرة ، اكتفى المؤلف فيها بكتابة القصة ، دون ان يجرب كتابة البحث . واكتفى ايضا بالاستناد الى ابسط باب مؤد الى « القص » : باب « كان » ، « كنت » ، ومضى « يعافر » من هذا الباب حتى دخل باحة القصة نفسها فتخلص من اثاره ، ومضى يكتب بعبارة وان كانت غير متميزة ،خالية من التوتر ، فهي على الاقل تعرف كيف تقسم القول على قد المعاني .

اكتفى سمير تنير بكتابة القصة اذن ، دون ان يلحقها ببحث يكاد يشبه « تذييلا » فكريا لها مثلما فعلت بديعة امين . ولكن الكاتبة العراقية ، رغم تقلب عملها بين مشروع القصة ومشروع البحث ، كانت تحاول ان تبرز تجربة عملها ، وهو علاقة الابن بالاب، من خلال تصور لواقع اجتماعي وحقيقة حضارية معينين ،هما الواقع والحقيقة العراقيان بشكل خاص ، والعربيان بشكل عام . الامر الذي يعطي لعملها (لو انه اكتمل) قيمة فنية جديدة ،هي قيمة اكتشاف « تجسد » جديد لحقيقة انسانية عامة ، او على الاقل « اختبار » مدى تطابق هذه « الظاهرة » الانسانية مع ذلك الواقع الحضاري الذي لم يفحص ذاته من هذا الجانب من قبل فحصا وافيا . اما سمير تنير ، الكاتب اللبناني ، فقد اكتفى من الواقع « الخارجي » كله بملامح قليلة من « المكان » ، مثل سور الحديقة و« النقيفة » التي نعرفها في مصر باسم « النبلة » ، وبعض ملامح عامة للمنزل من الداخل . ولم يكتشف ـ ولم يحاول ان يكشف ـ في علاقة الابن بالاب أيه ملامح « محلية » ، ولا اريد ان اقول « قوميه » خاصه .

لقد ارتبطت ـ عنده ـ قسوة الابن في علاقته بالقطة التي رماها بالحصاة من النقيفة ففقأ عينها ارتبطت بمجرد « صورة » وجه « الاب » الذي يعرفه الابن جيدا ،والذي اكتشف الابن بالصدفة خيانته لامه مع الجارة الشقراء أثناء فراره الجبان من القطة الجريحة (لاحظ العلاقة بين الجبن والقسوة في التحليل النفسي الذي يستخدم مصطلح الرخاوة بدلا من كلمة الجبن) . وقد كانت لصورة وجه الاب عند الابن الصبي الذي جرح نفسه هو الاخر ب « فيش » التوصيلة الكهربائية ، كان لوجه الاب معنى خيانى ، معنى التخلي عن « الام » وتهديد امان الابن بهذا التخلي ، الامر الذي سهل على الابن ـ اخلاقيا ـ ان يعلن رفضه للاب « الخائن » في ندائه الاخير : « اريد امي ، اريد امي ».

وبذلك ربط الكاتب اللبناني نفسه بمحض الرؤية المجردة عن التكوين النفسي ل « الانسان » التي يمده بها التحليل النفسي في معناه المطلق.ولكنني لا اعتقد ان التحليل النفسي « معنى مطلق ». اعتقد انه معنى محدد بظروف تطور المجتمع الاوروبي ، وان محاولة « رؤية » فلسفية فنية اوروبية لاكتشاف التكوين النفسي لانسان الحضارة الاوروبية الغربية ، منذ الاصول الاغريقية الاولى لهذه الحضارة ، وتحولها من ظروف المجتمع « الاموي » الى ظروف المجتمع « الابوي » . وقد حاول فرويد ان يقيم اسس فلسفته كلها ،فيما هو معروف على رموز مستمدة من الاساطير الاغريقية ، ويمكننا هنا ان نشير الى دراسات السوسيولوجيين والانثروبولوجيين الغربيين المحدثين عن اساطير هرقل وثيذيوس وجاسون التي ارجعوها الى عصر المجتمع الاموي الخالص ، ثم عن اساطير اوديب واورست وفينون التي ارجعوها الى مرحلة القضاء على المجتمع الاموي والدخول الى النظام الابوي البتريركي .

ولست أظن ان « اللاوعي » الجمعي والفردي الاوروبي ، هو النمط المتكرر الامثل للاوعي الجمعي والفردي في ظل كل حضارات التاريخ . ومن هنا كان احساسي ايضا بتسطح محاولة سمير تنير الذي لم يفكر في اقامة تجربته القصصية عن العلاقة بين الابن والاب، في المجتمع العربي اللبناني على تصور او رؤية تضع الظروف الحضارية والتاريخية الخاصة لهذا المجتمع في اعتبارها مثلما فعلت بديعة امين ، سواء في مشروع قصتها او في مشروع بحثها.

القاهرة



شوقي خميس

في ديوان الشعر القديم ، كنت تجد كل شيء . الفلسفة ـ الحكمة ـ التاريخ ـ التسلية الرياضة ـ النوادر ـ وفي جملة واحدة نجد صور حياة الاسلاف وهمومهم واحلامهم .. ولذلك كان الشعر اهم الانواع الادبية في تاريخ الادب العربي .. كان عنصرا اساسيا من العناصر التي تشكل الحياة الانسانية .. عنصرا تربويا .. وقائدا .. ومخصبا للوجود . فهل انتهى زمن الشعر ؟

عندما نقرأ قصائد العدد الماضي من « الاداب » . نجدها بعيدة كل البعد عما كان وعما يريد الجمهور من القراء . وباستثناء ثلاث قصائد لم تفقد الصلة بواقع الحياة والعصر ، لا يجد القارىء الا شعر الابراج العاجية والتجارب الموغلة في الذاتية والاستهانة بما يحدث في الخارج ونتساءل ثانيا: لمن يكتب الشعراء ؟

لم يعد الشعر تلك المرآة الفاتنة او المخيفة التي نواجه فيها انفسنا على نحو أعمق ، ولم تعد تلك الموسيقى التي تضفي ظلال الخلود على وجودنا العابر . لم يعد يحفل بالعقل والوضوح ، ولم يعد يحفل بالمشاعر القوية التي تصوغ جانبا هاما من انسانية الانسان، لم يعد ذلك الاحتفال الرائع بالحياة ، والتحدي البطولي للموت ، والدفاع العظيم عن الحرية والعدل والجمال .. انفصلت الكلمة عن قائلها كما انفصل الاحساس عن التعبير ، وفي النهاية انعزل الشعر عن جمهوره التاريخي العريق . وكل ما بقي لنا الان تلك الاعمال التي لا ندري اولها من آخرها : تداعيات لغوية ، وهلوسات عقلية ، ورموز مغلقة بلا معنى .. والجميع تقريبا الا القليل يرددون نفس اللحن .. الغربة .. والضياع .. والاشواق المبهمة .. والتاريخ المفقود وشرفات المستقبل التي لها صوت النحاس الفارغ ، وليس هذا ما يضعف قيمة ما يكتبون ، فغربة الانسان في هذا العالم وضياعه واشواقه المبهمة وتاريخه المفقود وذلك المستقبل المخيف عذابات حقيقية جديرة بتحريك وجدان الشاعر المعاصر . ولكن المأساة تأتي من حيث نتوقع الخلاص . فالصياغة الحديثة للقصيدة بعد تحررها من كثير من قيود الشكل القديم كان بامكانها احتواء عناصر تلك الغربة والشوق والهجران والخوف على نحو نرى في تفاصيله المختارة بدقة ما يرمز الى ما هو ابعد ، لتتجلى صورة مأساتنا نحن ومجد الصراع الذي نخوضه .

ولكن ما حدث هو العكس ، فلا ندري كيف تحول بناء القصيدة الحديثة الى بناء اكثر تفككا على ايدي الشعراء الجدد ، واقترن ذلك التفكك بالرمزيات المصطنعة والتجريدات فاقدة المعنى والاستخفاف بوظيفة الوعي في البناء الفني للعمل الشعري ، مما ادى الى وجود شكل ارستقراطي الطابع ، هش ومفرغ من داخله لا يصمد للفحص او التأمل . وقد افضى ذلك الى تباعد الجمهور الذي لا علاقة له بهذه الاشياء عن هذا اللون من الكتاب حتى اصبح الناشرون يعتبرون طبع ديوان احد الشعراء الجدد ، نوعا من المغامرة او كرم الاخلاق .. هذا فيما عدا ـ بداهة ـ الشعراء النجوم ذوي الاسماء الرنانة حيث يكون النشر متاحا ومستحسنا لاعتبارات اخرى غالبا ما تكون بعيدة عن معايير الفن ووظيفته الحقيقية . لذلك سوف نحاول النظر في قصائد العدد الماضي من زاوية ـ الشعر والجمهور ـ لعلنا نصل الى فهم اعمق لظاهرة ابتعاد الجمهور عن الشعر من خلال تأمل القصائد .

١ ـ للعشق وجه اول ـ حبيب صادق .

ربما يستطيع هواة حل الكلمات المتقاطعة وحدهم تبين ما يريد الشاعر حبيب صادق قوله في قصيدته ، فهو مولع بالغموض والالغاز والتناقض على طريقة التنقل من احساس الى آخر بلا مبرر ، وهو في حالة انسراح عجيب لا ندري كيف توصل اليها لانه لا يعطف علينا بذكر المسببات ، وهو يبث المصطلحات الادونيسية في فراغه الخاص فلا يزيده وجودها الا ابهاما . ولقد نتحمل قراءة القصيدة مرات ومرات ونحن لن نلمس معنى تحت التراكيب اللغوية البراقة التي لا تخرج عن كونها نوعا من اللهو اللفظي . ولقد تسأل عن كنه شواطيء النهايات التي [illegible] اليها او تنتظر ذكر الاسماء الحقيقية للاشياء ، تلك التي يزعم الشاعر انه فوجيء بها ، ولكنك لن تجد لسؤالك جوابا . ولسوف تظل القضية تائهة ، وغربة الشاعر بلا وجه ، والمعنى في بطن القائل .. وكل ما سوف نخرج به من القصيدة لا يزيد عن نوع من التقاسيم المرتجلة الرديئة على آلة قديمة ... فالشاعر بلا موقف ، ولا تشفع له تلك الاحاسيس « السنتمنتالية » المعبأة بالحزن والاشواق المريضة ، ولا تلك الكلمات المبثوثة في ثنايا القصيدة وهي تتحدث عن الثواني التي تستطيل وتتحول بقوة سحرية الى ثوان صديقة نعاجا في ختامها بصورة عابرة عبورا سريعا عن الوطن الجريح .

٢ ـ عبد الكريم الناعم ـ الجري خلف المهر المتوحش .

مرة اخرى نجاهد للعثور على موقف الشاعر ، ولعل اللغة في قصيدة عبد الكريم الناعم اوضح من سابقتها ، ولكن الصورة الكلية في قصيدة « الجري خلف المهر . » اكثر اهتزازا وبعدا عن الذوق العام . انها صورة دون كيشوت برجوازي يحارب من اجل رفاقه الفقراء معتليا صهوة الكأس . فما الذي ينتظره الناس من مثل هذا البطل الذي فقد نفسه وعجز عن اتخاذ اي قرار ؟ ليته ظل « واقفا بالباب » كما يردد الشاعر على النسق التقليدي في ختام قصيدته التي احتشدت بعديد من الالوان المتنافرة في الصياغة ، وربما كان الاطار التقليدي هو الشكل الانسب لتجربته هذه ، فالشكل الحديث في قصيده الناعم لا يجد له مبررا فلسفيا او فنيا الا اذا فهمت الحداثة على انها مجرد تنظيم مختلف للتفعيلات والاشطر والبيوت ، بينما جوهر الحداثة يكمن في احتواء القصيدة صورة عصرنا وحياتنا هذه . تلك الصورة التي تختلف كثيرا في ملامحها ودلالاتها عن الصورة المشابهة لها في القرون الاخرى .. من هنا نستطيع القول ان قصيدة عبد الكريم الناعم لا تتبنى موقفا يهم الجمهور ، موقفا يمكن ان يضعوا انفسهم فيه بسهولة ، او يمكن ان يتعرضوا لموقف مشابه له يوما ما .. لذلك اذا انصرف الناس عن مثل هذا الشعر فلهم العذر ، كل العذر .

٣ ـ وليد ابو بكر ـ الحزن المركب .

بعد الغربة الرومانسية الهائمة في قصيده الناعم يأتي الحزن الرومانسي الغامر ، الحزن فاقد الذاكرة .. فاقد الهوية .. والمعنى .. ولا يبقى في قصيدة وليد ابو بكر الا فرسان الدموع والوحشة في ساحة الموت .. بيد ان شاعر « الحزن المركب » لم يشأ التوقف عند هذه الحدود فاضاف ختاما من نوعية مختلفة في المقطع الاخير يتضمن نداء وتحديا وحكمة متفائلة ، وهو يريد بذلك ان يضفي على عمله مذاقا ثوريا ينقذه من طابع الاستسلام البكائي ، ولكن ذلك يتعارض مع فلسفة البناء الجديد للقصيدة حيث ينبغي ان يتحقق ترابطها ترابطا عضويا وليس عن طريق التجاور الساذج .. خلاصة الامر ان العمل لا يخرج عن كونه نوعا من الغناء الرومانسي التقليدي الذي يحفل به تراثنا الشعري ، ولكنه لا يتخذ موقفا مما يحدث الان على اي مستوى من مستويات الوعي .. لذلك تضعف الصلة بين هذا النوع من الاعمال وبين الجمهور المعاصر الذي يطمح ان يجد شيئا من نفسه في الفن الجاد .

٤ ـ عبد الوهاب اسماعيل ـ لحظات ذاتية جدا .

الموضوع الواقعي في جوهره قد يتحول من خلال الادراك الرومانسي الى تعبير غنائي مطلق لا يغني ولا يشبع من جوع . ويحسن ان نقرر في البداية اننا لسنا ضد الحزن او الاكتئاب او اي عاطفة من العواطف الانسانية ، ولعل أعظم ما عرفناه من شعر كان في اغلبه حزينا مأساويا يكشف عن جوانب النقص في الحياة والانسان ، ولكن ما يهمنا الان هو موقف الشاعر ، لقد ولد الشعر العظيم من خلال الصراع النبيل بين الشاعر الانسان وبين قدره الكوني او السيكولوجي او الاجتماعي ، فاذا انتفى عنصر الصراع ينتفي جزء من جوهر الشعر الذي هو من احد زواياه نوع من التحدي والثورة والرفض والاحتجاج .. اما ما بقي من قصيدة عبد الوهاب اسماعيل فليس اكثر مما الفناه في المراثي وعويل النادبات .

كذلك فاننا نظن ان ما يميز القصيدة الحديثة من ناحية اخرى ، كونها رؤية وليست تعبيرا مباشرا عن الاحساس ، والرؤية شكل فني ذو ابعاد تجسد لنا جانبا من صورة العالم الذي نحياه او نتخيله من خلال الصورة الفنية ... والصورة ـ نقصد الصورة الكلية ـ ان لم تحتو التفصيلات التي تمنح التجربة خصوصيتها .. نوعية الوقائع .. الاحداث .. المأثورات .. الكلمات .. الخ تصبح صورة فارغة .. وفي النهاية فان موقف الشاعر .. رؤيته الخاصة .. ان اهتزت او اغمضت او اختفت فلا قيمة لاي كلام يقال بعد ذلك في القصيدة .. لان الشعر ليس حكما ولا مأثورات ولا توريات ولا تدريبات لفظية وهتافات فكيف يمكن ان نربط بين جمهورنا وبين الشعر ؟

٥ ـ شريف الربيعي ـ مرثية للسفر الثابت .

عندما اراد الشعراء الرومانسيون في فرنسا ان يفرضوا وجودهم على المجتمع الادبي ولم يكونوا بعد قد وصلوا الى اسماع القراء والسامعين ، لجأوا لارتداء الازياء الغريبة الملفتة للنظر والى الحديث في الاماكن العامة بصوت مزعج . ولعل هذا ما يحدث عندنا الان ولكن من زاوية اشد خطرا ... فمسائل الشذوذ في الملبس والشكل يمكن احتمالها ، ولكن تركيب جمل وابيات القصائد على نحو مضطرب غير مفهوم لمجرد استعراض قدرة الشاعر على الخلق الجديد وهو في حقيقته ليس اكثر من خلق غريب كما يفعل الشاعر شريف الربيعي ، شيء لا يحتمل .

ونحن لسنا ضد الغموض فكثير من حقائق الحياة غامضة في واقع الامر ، وما تزال ، وتبسيطها لا يعد اكثر من نوع من التزييف كما اننا لسنا ضد البناء المركب الذي يتطلب جهدا مضاعفا في تلقيه، فهذا لم يمنع اشعار اليوت او ازرا باوند من الذيوع لانها تستحق الجهد الذي يبذل في سبيل استيعابها . ولكن هذا الخلط الرديء بين المعنويات والحسيات ، هذا التمزق المفسد للصور والافكار ، هذا الغياب الكامل للموقف الشعري ـ لا يترك لنا الا هشيم الموسيقى والصور الممزقة والافكار المبتورة . لقد اراد الشاعر ان يقول كل

شيء مرة واحدة ، فلم يستطع ان يوصل لنا شيئا واحدا .. وكان عليه ان يتخذ موقفا من نفسه اولا ...

٦ – جودت فخر الدين – ومضة في دائرة الظل

بدون هذه الجمل الصحفية التي تبدو غريبة على القصيدة

وجهي ،
يتنقل في آفاق المشكلة
تحجبه اسلاك الرحلة

يتخذ الشاعر موقفا ايجابيا يصل الى ذروته حين يتذكر ان بقاع النهر سيوف سوف تضيء . اما ان تتحقق هذه الرؤية من خلال حلم الشاعر فليس ذلك اكثر من اشارة تنبي لشاعر موهوب تلهمه الطبيعة في ابسط مظاهر الحل وتضعه على بداية طريق الخلاص ، وغنيمة تلك اللغة البسيطة ، الواضحة ، الشفافة ولسوف تظل لطبيعة تلهم الانسان شعرا حقيقيا .

٧ – جريمة قتل – فدوى طوقان

فدوى طوقان شاعرة كبيرة من الاسماء التي تجذب القراء لقراءة الشعر . ولن نتكلم هنا عن براعة الصياغة او احكام البناء وشفافية اللغة ووضوحها وبساطتها ، وانما انطلاقا من القصيدة التي نتناولها بالنظر ، سنحاول ان نضع تفسيرا للسبب الذي دفع بها لاعتلاء القمة التي تقف عليها . ببساطة هي شاعرة ذات موقف ، وفي موقفها هذا تدافع عن حقوق امتها ، فلا عجب ان احتفى الناس باشعارها ، وفي قصيدة « جريمة قتل » ترسم باسلوبها الخاص صورة للجريمة التي تحدث الان .. ونحن فرسانها وضحاياها .. هي تكتب عن جريمة قتل « منتهى » الطالبة الفلسطينية الشهيدة .. وتقذف وجه العالم بصرخة الطفلة الرائعة التي ذهبت تعلق اقمار افراحها في السماء الكبيرة بينما ينشب السفاحون مخالبهم في عنقها ، واستعاضت الشاعرة عن التسجيل والوصف والهتاف بتلك الصورة الشعرية البسيطة التي لا يستطيع ان يقف ضدها انسان .. وليت الشاعرة العظيمة اكتفت بتلك الصورة الفاتنة ولم تضف اليها الختام الخطابي المألوف في المقطع الاول والاخير من القصيدة .. المهم ان موقف الشاعرة هنا كان المنطلق الحقيقي للشعر العظيم .

٨ – رقص الحصاد – الياس لحود

نادرة اناشيد الفرح في حياتنا وفي شعرنا الحديث ، وقصيدة « رقص الحصاد » واحدة من هذا النوع النادر . فامكانية رؤية ما يفرح في عالمنا ، تتطلب قدرة خاصة لتقيم فلسفة بنائية تدعم روح المقاومة والتشبث بالحياة عند الناس . وهي في النهاية ، موقف ايجابي من الشاعر ، خصوصا انه يستنبت نشيد فرحته من تراب ارضنا العربية وتراثها الحي . وهو لا يسير في طريق ممهد ، اذ لا يلجأ الى تمجيد الابطال والتفاؤل الساذج والنهايات السعيدة ، لكنه يشق طريقه في الصخر واللهب ، ويعبر الاسلاك والحدود المصطنعة، قويا بعشقه العظيم الذي يتحدى الذبول والموت – اشبه بالكاهن الامين الذي يحفظ طقوس الخير والحب للاجيال القادمة ، بجوريس الذي كان يصارع فرس النهر القادم من الصحراء ليأكل زرع الفقراء، وهو مزود بسيفه الشجاع وباغاني الفلاحين الذين يغنون في قلبه الحماس .

القصيدة اذن ليست قصيدة فرح عادية ، وانما فرح يتخلق كالابداع من خلال الصراع المميت بين قوى الحياة والموت . والدراما في هذه القصيدة ليست دراما الزمن الممتد وانما دراما اللحظة الواحدة التي تموت فيها الاشياء لتولد في نفس الوقت اشياء افضل. وموقف الشاعر ليس معلنا على نحو مباشر وان كان واضحا من البيوت الاولى .. انه يسبح ضد التيار ، وهذا بالضبط ما علينا ان نفعله الان ، وما يفعله الاحرار في كل زمان عندما يقف العالم ضدهم . لتكن السباحة شاقة ، ولكن ، هل من بديل الا الجمود او الموت .

هذا مخاض المواسم
فارفع دماءك وارقص

الشاعر هنا يتخذ موقفا واضحا، ليس ضد الاستسلام الرومانسي فحسب ، بل ضد الواقع الدموي . ايضا ليؤكد حقه في الحياة . وهو عندما يحرر نفسه من الرضوخ ، يحرر الجميع .. او على الاقل، يضعهم امام حريتهم .

عندما ينصف الحزن على معبر تموز المحنى
وتطل الذكريات الناعمة الارياش
من باب السكينة
اتدلى من اناشيدي كشلال
واجري عبر افراحي

هكذا يتحتم تحرير الذات من الداخل بعد تحطيم القيود المحيطة بنا لتكتمل حرية الانسان ويتحقق الفرح الانساني الذي يفرش ظلاله المضيئة على الكون والمخلوقات .

٩ – لعينيك يا بدوية – محمد راضي جعفر

من الاعمال الرمزية الناضجة هذه القصيدة للشاعر محمد راضي جعفر وهي رغم قصرها حافلة بالجمال الموحي ، فهي الحب المستحيل، وهي الشوق الدائم ، وهي الثورة المستمرة ، وهي نشيد ممتع من اناشيد الرعاة الاحرار ، وهي .. الخ العمل الجيد كالمخلوق الحي لا تستطيع ان تحكم عليه حكما نهائيا ولا تستطيع ان تترجمه الى لغة اخرى – يكفي ان تشعر بنفسك فيه ، انا .. انت .. هي .. هم .. كانوا او ممكن ان يكونوا ذلك العاشق في قصيدة جعفر . فهل فينا من لم يجرحه الصوت يوما ما ؟ وهل فينا من لم يعشق بنت الثلاثين؟! وهل فينا من توقف عن الاشتياق والسؤال ؟ وهل فينا من لا يحلم بعد مشقة الاسفار بنبع يروي عطشه ؟

من لم يكن كذلك ، اقترح ان يقرأ قصيدة جعفر وسيجد بعضا من نفسه فيها .

القاهرة